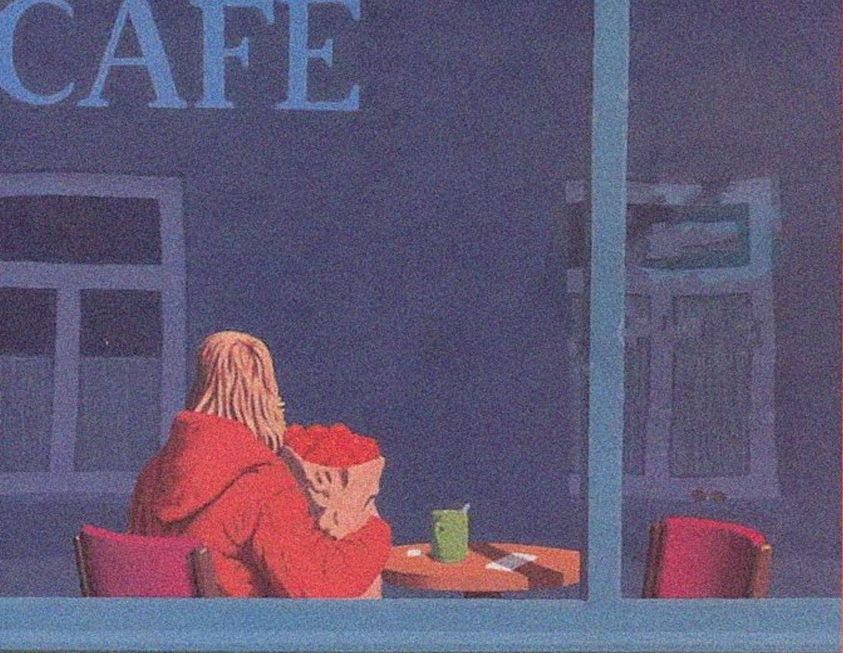


جوستاين غاردر

فتاة البرتقال

دار المنى

جوستاين غاردر

فتاة البرتقال

النص العربي بقلم:
مدني قصري

دار المنى

جوستاين غاردر

فتاة البرتقال

ISBN 978 91 88356 93 2

Original title in Norwegian:
Appelsinpiken
Cover: Quint Buchholz, Ottobrunn

Dar Al.Muna
Box 127
SE-182 05 Djursholm
Sweden
www.daralmuna.com

حين فاضتْ روحُ والدي قبل أحد عشر عامًا لم يكن قد انقضى من عمري سوى أربعة أعوام. ولا أظنني قـــدّرتُ يومـــاً أن الأيـــام ستطالعني بأخباره من جديد. وقد تضافرت الروحان في نسج خيـــوط هذه القصة التي نكتبها اليوم معاً.

هذه هي الأسطر الأولى من قصة حرصتُ على أن أكتبها بنفســي، سأجدني مضطراً لأن أترك الحديثَ فيها لوالدي بعد حين، لأنّ والــدي وحدَه مَن يملك من تفاصيلها الشيء الكثير، ولأني لم أظفر من ذكرياتها إلا بالقليل.

لست أعرفُ على وجه الدقة إلى أيّ حدّ من الحدود تكتملُ ذكـــراه في مخيلتي، وإن ادّعيتُ لنفسي أن الذكرى لم تفارقني يومًا فليس عنــدي من سبب لذلك سوى هذه الصور التي تعلّقـــتُ بها بعــد الرحيــلِ تعــلّــقَ والدي بي قبل الرحيل.

من الصور التي لم تخنها ذاكرتي، فظلتْ راسخةً فيها رسوخَ اليقـــين تلك الجلسةُ الحميمية التي جمعتنا ذات ليلةٍ على شرفة البيت، نتطلـــع

فيها إلى كوكبات النجوم وهي تتألق في سماء صافية رائقة، في ذلك الليل الهادىء الجميل.

تُنبئك إحدى هذه الصور بأبي وقد جلس إلى جانبي في الصالون على كنبة من الجلد الأصفر، تخاله فيها يحدثني حديثاً لطيفاً ممتعاً. لم يبق من هذه الذكرى سوى هذه الكنبة التي ما تزال تتوسط الصالون، أمّا الذي كان يشاطرني الجلوس فيها فقد رحل ولن يعود.

وعلى صورةٍ أخرى سَترانا على تلك الشرفة المطلة وقد تمدّدنا على كرسي هزّاز أخضر اللون. وقد حرصنا على أن تظل هذه الصورة معلّقةً في تلك الشرفة تَعَلّقَ ذاكرتنا به. وأنا الآن أجلس على هذا الكرسي الممتع، وأسعى ألا أحرّكه حتى لا يُربِك قلمي وهو يكتب هذه القصة على صفحات مسودّةٍ كبيرةٍ، قبل أن أنقلها إلى شاشة كمبيوتر والدي القديم.

وإذا كانت بنفسي اليوم حاجةٌ مُلحّة للحديث عن أشياء أخرى تشدّني إلى هذا الجهاز فإني أفضل أن أعود إليها بعد حين.

وما أكثر ما كانت تثيره كلُّ هذه الصور القديمة من مشاعر غريبة في نفسي، فهي بالتأكيد صورٌ من زمانٍ غير زماني .

في غرفتي مجموعةٌ كاملة من صور والدي، غير أني أكاد أنزعج لهذا الكمّ من صورِ رجلٍ لم يعدْ له مكان في عالمي. ومن ذكرياتنا عنه أيضاً بعضُ أشرطةِ فيديو ما يزال صوتُه فيها يثير في نفسي شيئاً من الحزن، ومن الكآبة كلما تفرجتُ على هذه الصور المتحركة الناطقة التي كان لوالدي فيها صوتٌ جهير.

ولعله كان من غير المباح أن نشاهد صوراً مرئية لشخص فارق الحياة، أو بالأحرى لم يعد له وجودٌ بيننا. هكذا كانت تقول جدتي لأبي، لأن التجسّس على الأموات – في رأيها – سلوكٌ قبيحٌ مشين.

وعلى بعض أشرطة الفيديو قد تسمع أحياناً بعضاً من صوتي أيضاً .. زقزقة هيفاء تذكّرك بزقزقة طُيَيْرٍ جميل. هكذا كان صوتُ والدي جهيراً، وكان صوتي ندياً.

في إحدى هذه الصور المرئية تراني على كتفيه وقد امتدّتْ يدي لتمسك بنجمة صغيرة على صَنَوْبرةِ عيد الميلاد المجيد. ليس لي فيها من العمر سوى عامٍ واحد لم يكن يسعفني لكي أنشلَ منها تلك النجمةَ نشلاً.

وحين تتفرج أمي عليّ وعلى أبي في هذه الفيديوهات، تراها أحياناً وقد ارتدّت إلى ظهر الكرسي، مقهقهةً مازحة، غير آبهة أن الذي أمسك الكاميرا والتقط الصور في ذلك الزمن هيَ هيَ نفسُها. لستُ أحبذ أن تضحكَ أمي وهي تشاهد فيديوهات والدي، وظني أنه ما كان ليقبل بهذه الفكرة. بل لعلّه قال أيضاً إنّ في الأمر خروجاً عن المألوفِ.

وعلى شريط آخر جلستُ ووالدي تحت شمس عيدِ الفصحِ أمام بيتنا الريفي في "فجيلستون" وقد أمسك كل منا بنصف برتقالة، أحاول أن أمتصّ عصير نصفي منها دون تقشيره، بينما ينشغل أبي عن نصفه بأمورٍ أجزم أنها أخطر وأعظم شأناً.

وما إن انتهتْ أعيادُ الفصْح حتى داهم المرضُ والدي. وقد ظلّ على

تلك الحال لستة شهور كاملة كان الموتُ فيها أخشى ما يخشاه. وظني أنه حدس أنّ الموتَ لن يمهله طويلا.

وكم من مرة قالت أمي لي إنّ ما بلغه أبي من حزنٍ لم يكنْ لحياةٍ سيفارقها حتماً بل لزمنٍ لم يمنحني من النضج ما يجعله يوطّد معرفته بي. وما أكثر ما كانت جدتي تقول لي كلامًا مِنْ ذاك القبيل، ولكن بلغة أغرب وأكثر غموضاً.

كانت جدتي لا تتحدث عن والدي إلا وتتغيّرُ نغماتُ صوتها على نحو غريب. لكنْ من يدري، فقد يكون الأمر عادياً، لأن جدتي وجدي قد فقدا ابناً بلغ من العمر ما لن أبلغه إلا بعد حينٍ.
تُرى، أيّ شعور تركه فيهما رحيلُ هذا الابن؟ لست أدري. من حسن طالعهما أنّ لهما ولدًا آخرَ حيًّا يرزق. لكنّ جدتي حين تنظر إلى صور أبي القديمة لا تضحك كثيرًا أو قليلا. ففي رأيها أنّ الميت لا يُستذكَر إلا في صمتٍ وتأمل وخشوع.

كان والدي قد قرّر، إن صحّ القول، أنْ لا سبيل لأن يُحاوِرَ طفلا لا يزيد عمره عن ثلاثة أعوام ونصف العام. وقد اهتديتُ اليوم إلى قصده ذاك الذي لم أفهم منه شيئاً في أول عهدي. ومَن يقرأ هذا الكتاب سوف يدرك تلك الحقيقة حتماً.

من صوري عن أبي أيضاً هذه الصورة التي تمدّد فيها على سريره في المستشفى، وقد بدا وجهُه شاحباً باهتاً. تراني فيها جالساً على ركبتيه وقد أمسك بيديّ حتى لا أقع على جسده النحيل، وهو يحاول أن يبتسم لي ما وسعه الابتسام. كان ذلك قبل أسابيع قليلة من رحيله.

ولكم تمنيتُ أن لا تكون هذه الصورة معي. لكنني، وقد امتلكتها، لا أجد ما يجعلني أرغب عنها، بل قل ولا غنىً لي اليوم عن التطلع إليها أيضاً.

اليوم صار عمري خمس عشرة. وإنْ شئتَ الدقة أكثر قلْ خمسة عشر عامًا وأسابيع ثلاثة. اسمي جورج رواد،و أقيم في هومليفاي بِأوسلو، مع والدتي وجورجن ومِريام. جورجن هو والدي الثاني، الذي لست أدعوه سوى جورجن. أما مِريام فهي أختي الصغرى، لا يزيد عمرُها عن عامٍ واحد ونصف العام. ناهيك عن أنها أصغر من أن يسعني الخوضُ معها في أي حديث من الأحاديث الجادة.

ليس لِمريام بطبيعة الحال آية صور قديمة أو فيديوهات مع والدي، لأن جورجن هو والد مريام، ولأني الابن الوحيد عند والدي.

حتى نهاية هذا الكتاب سيكون جورجن موضوع أسرار طريفةٍ لا سبيل لأن أكشف عنها في الحالِ، لكنّ مَن يثابر على القراءة حتى النهاية سوف يرى تلك الطّرائف لا محالة.

بعد وفاة والدي جاءتْ جدتي وجدي إلى البيت لكي يساعدا أمي على ترتيب ما ظل عالقاً من شؤونه بعد رحيله. لكنّ شيئاً مُهمّاً ظل خافياً عن أعين الجميع. نصٌّ طويل كتبه والدي قبل أن يدخل المستشفى.

في تلك الأيام لا أحد كان يعرف أن أبي قد كتب نصاً طويلا، فلم ترَ قصة "فتاة البرتقال" النورَ إلا يوم الاثنين الماضي. فقد حدث أن

ذهبت جدتي إلى كوخ الأدوات فوجدت فيها نصًا كاملا مغروزًا في بطانة عربةِ طفولتي الصغيرة الحمراء.

تُرى، لماذا رسَا هذا النصّ في هذا المكان بالذات؟ لا أظن أنّ الأمر محض صدفةٍ، لأن النصَّ الذي كتبه والدي وأنا في الثالثة والنصف من عمري كان على صلة وثيقة بتلك العربة الصغيرة. لستُ أدّعي أن القصة ذاتها قصة عربة خالصة، فالأمر على غير ذلك، لأن "فتاة البرتقال" قصةٌ كتبها أبي لي وحدي. فقد كتب كل هذه القصة الطويلة لكي أقرأها حين أبلغ من النضج ما يهيّئني أن أفهمها. فقد كتب أبي رسالةً إلى المستقبل.

فإذا كان أبي هو الذي أخفى كل صفحات هذا النص الطويل في بطانة العربة القديمة فلا شك أنه كان على يقين تام بأن الرسالة لا محالة مُدركةٌ مقصدَها. لذلك أراني أنصح مَن كانت له ملابس رثّة أو أثاث قديم أن يفحصه بعناية قبل أن يُحيله على سوق "البراغيث" أو قبل أن يلقي به في صندوق المهملات. وأكاد لا أتصور ما يمكن أن نعثر عليه من رسائل قديمة، وغيرها في مكبّات النفايات والمهملات.

وما أكثر ما شغلني هذا الأمر في الفترة الأخيرة. وظني أنه لا بد من وسيلة أيسر لتوجيه الرسائل إلى المستقبل، وأسهل من دسِّها في بطانة عربة أطفال قديمة.

قد يحدث أحياناً، في مناسبات نادرة، أن نُمنّي النفس بأن لا يقرأنا الشخصُ الذي نكتب إليه إلا بعد أربع ساعات، أو أربعة أيام، أو أربعة أعوام. فكذلك كان الشأن مع قصة "فتاة البرتقال". فقد كانت

القصة موجّهةً لجورج، ابن الثانية أو الثالثة عشرة، أي لجورج الذي لم يكن والدي قد التقى به إطلاقاً.

لكنّ الوقتَ حان لكي تبدأ الآن هذه القصة حقاً.

قبل أسبوع فقط، حين عدتُ من معهد الموسيقى إلى البيت وجدتُ جدتي وجدي وقد جاءا في زيارة مرتجلة. فقد استقلا سيارتهما من تونسبورغ إلى هومليفاي، ولم يغادرا بيتنا إلا في اليوم التالي.

كانت أمي وجورجن في البيت أيضاً. وقد بدا لي أن الجميع كان ينتظرني على أحرّ من الجمرِ. وقد دلفت إلى الغرفة الخلفية وشرعت في خلع الحذاء. كان حذائي ملطخاً بالوحل مبللا، لكنّ أحداً لم يبالِ بأمره، فقد انشغل الجميع عنه بأشياء أخرى، فأحسستُ أن لا بد في الأمر سرًّا.

أخبرتني أمي أنّ مِريام في سريرها، فرأيت في نومها رفعًا للحرج في ذلك الظرف، لاسيما وأن جدتي وجدي في البيت، ناهيك عن أنّ جدتي ليستْ جدتَها، ولا جدي جدّها. لمِريام جدتها وجدها لأبيها، وهما على أي حال وَدُودان لطيفان أيضاً، وقد يحدث أن يفاجئانا بالزيارة. لكنْ يبقى، كما يقال، أن صلة الرحم هي الأقوى.

ثم دخلتُ إلى الصالون وجلست على السجاد ولمحتُ الجميعَ وقد ارتسمتْ على وجوههم ملامحُ الجِدّ، فشعرتُ أنّ في الأمر حدثاً خطيراً. لم أذكر أنني ارتكبت خلال الأيام الأخيرة حماقةً من الحماقات، وكنت قد عدتُ من حصة البيانو في الموعد الذي اعتدتُ أن أعود فيه

دوماً. وكانت آخر مرة أنشل فيها عشر كورونات تعود لشهور طويلة خلت. لذلك وجدتني أقول في اندفاع : "ماذا حدث؟"

شرعتْ جدتي تشرح لي كيف عثرتْ على رسالة كان أبي قد كتبها قبل وفاته بقليل. فاهتزّ قلبي للخبر اهتزازاً، فقد مضى على رحيله أحد عشر عاماً. لذلك بدتْ الرسالةُ القادمة من والدي حدثاً مهيباً وكأنه وصيّة.

ولمحتُ مغلّفاً كبير الحجم على ركبَتَيْ جدتي التي ما لبثت أن ناولتني إياه. كان العنوان الوحيد : "إلى جورج". لم يكن الخطُّ خطّ جدتي، ولا خطّ والدتي، ولا خطّ جورجن أيضاً. وبلا تردد مزّقتُ المغلّف وأخرجتُ منه كومةً من الأوراق. وما لبثتُ أن انتفضتُ انتفاضاً، فقد كتِب على رأس الصفحة الأولى :

هل أنت مرتاحٌ في جلستك يا جورج؟ مِن المهمّ أن تكون جلستك مستقرّة على الأقل، لأني سأقصّ عليك الآن هذه الحكاية المثيرة...

أصابني الغثيان. ما هذا الذي أراه وأسمعه؟ رسالةٌ من والدي؟ وهل هي منه حقاً؟

"هل أنت مرتاح في جلستك يا جورج؟" بدا لي كأني أسمع صوته الجهير. ليس فقط صوته على الفيديو كما تعودتُ، بل صوت أبي الحقيقي وقد عاد فجأةً إلى الحياة وجلس بيننا في الغرفة.

فحتى وإن كان المغلّفُ مختوماً حين فتحتُه فقد وجدتني أسأل الجميع من حيث لا أدري إن كانوا قد قرأوا تلك الرسالة من قبل، لكنني لم أر

سوى رؤوس تهتز مؤكدة أنهم لم يقرأوا منها جملة واحدة.

"لم نقرأ منها حرفاً واحداً" أكد جورجن بصوت فيه شيء من حيرة لم أعهدها منه قط. وقد أوحى أنهم قد يقرأونها حين أفرغُ من قراءتها. وقد لمستُ فيه شيئاً من توْقٍ إلى معرفة مضمونها، وشيئاً من ذنْب يعذّب ضميره أيضاً.

بدأت جدتي تشرح الأسباب التي جعلتهما يستقلان السيارة ويقطعان تلك المسافة إلى أوسلو في ظهيرة ذلك اليوم. فقد أحسّتْ جدتي فجأة أنْ لعلّها اهتدتْ إلى حلّ لغز قديم. وبدا لي الأمرُ خفيّاً غامضاً. بل قل إن الأمر كان خفيّاً حقّاً.

كان أبي، أثناء مرضه، قد حدّث أمي بأنه قد شرع في الكتابة... كتابة رسالة سوف أقرأها حين أصبح كبيراً، لكنّ شيئاً من ذلك لم يطْفُ على السطح حتى تلك الساعة، وقد بلغتُ الآن من العمر خمس عشرة سنة.

كان الجديد كل الجِدّة في هذه القصة أن تذكّرتْ جدتي فجأة شيئاً آخر مختلفاً. شيء كان أبي قد تحدث به أيضاً. فقد اشترط أن لا يرمي أحدٌ العربةَ الحمراء. تقول جدّتي إنها تكاد تذكر كلماته تلك حرفاً حرفاً. كان ساعتها في المستشفى. "سوف تحتفظون بالعربة الصغيرة الحمراء، أليس كذلك؟ كونوا حريصين عليها ولا تلقوا بها. لقد كان لها عند جورج وعندي أيضاً شأنٌ عظيم خلال الأشهر الأخيرة. أريدها أن تبقى مع جورج. أخبروه بذلك يوماً. وحين يصبح قادراً على الإدراك قولوا له كم كنتُ مصرّاً على أن أحتفظ له بها."

لذلك السبب لم يفكر أحد في رمي العربة إلى الزبالة، أو في بيعها في سوق البراغيث. وقد تلقى جورجن نفسه تعليمات بذلك أيضا. فمنذ أن رحل إلى هومليفاي وهو يعلم أن هناك شيئاً لا يحق ليديْه أن تمتدا إليه بسوء. لذلك فقد ظل يلحّ في الحفاظ على تلك العربة القديمة إلحاحَه على شراء واحدة جديدة لِمريام. لعل نفسه تأبى عليه أن يدفع ابنته في العربة التي كان والدي يستعملها في نزهاتنا. ولكنه من المعقول أيضاً أن تكون نفسه قد اشتهت عربة جديدة وأحدث عهداً. فجورجن من النوع الذي يحبّذ مواكبة الموضة، بل لعله من الولعين بها أيضاً.

رسالةٌ إذاً وعربة صغيرة حمراء. لكن جدتي لم تفك رموز هذا اللغز المحيّر إلا بعد أحد عشر عاماً، فحتى تلك اللحظة لم يكن يخطر لها أنّ شخصاً مَا قد يغامر بالدخول إلى كوخ الأدوات ويفحص العربة. وكم كانت مُحقةً جدتي حين راودها ذلك الاحتمال، فلم تكن العربة مجرد عربة حَسْب، بل كانت صندوقاً بريدياً أيضاً.

أكاد لا أصدق هذه القصة حق التصديق. فمن الصعب أن نجزم إن كان الآباء والأجداد يقولون الحقيقة دائماً، لاسيما في الحالات التي يتعلق الأمر فيها بـ "مواضيع حساسة" كما يحلو لجدتي أن تصِف تلك الأشياء.

لكنْ يظل أكبرُ الألغاز في رأيي اليوم أن لا أحدَ استطاع على مدى أحد عشر عاماً أن يُشغِّل كمبيوتر والدي القديم. ومع ذلك فهذا

الجهاز هو الذي كتب عليه والدي رسالته. فقد حاولوا بالطبع تشغيله لكن لم يسَعْ أحداً الخيالُ الكافي لفك رمز الدخول إليه. كان هذا الرمز يضم نحو ثمانية أحرف، هكذا كانت أجهزة الكمبيوتر في تلك الأيام. حتى أمي لم تنجح في فكّ ذلك الرمز. إنه لأمرٌ لا يصدَّق حقاً. بعد ذلك لم يجدوا من بدّ سوى أن يودعوا ذلك الجهاز في سدة البيت. لكني أستسمحكم هنا في أن أعود لقصة هذا الجهاز في مقام آخر.

الآن حان الوقت لأن أحيل الكلمة لوالدي. لكنني سأمزج حديثه ببعض التعليقات من حين لآخر. وسوف أضيف للنص خاتمةً أجِدُني مضطراً لكتابتها اضطراراً. ففي الرسالة الطويلة سؤال لم يجد والدي من طرحه بدًّا، ويلحّ عليّ في أن أردّ عليه، لِما له من بالغ الخطورة والأهمّية.

تناولتُ قنينة الكوكا كولا وتوجهتُ إلى غرفتي مع كومة الأوراق. ولم يرُق لأمي أن أغلِق البابَ بالمفتاح لأول مرة، فراحت تعلن اعتراضها، لكنْ ما لبثتْ أن أدركت أن لا طائلَ من الاحتجاج.

قراءتي لرسالةٍ قادمة من شخص فارق الحياة من المهابة ما يجعلني لا أطيق من أسرتي أن تتزوَّبع من حولي. فالرسالة على أي حال من والدي أنا، والدي الذي مضى على رحيله أحد عشر عاماً. فأنا إذاً أحوج ما أكون للهدوء والسكون.

ما أغرب أن أجد نفسي فجأة في هذا الجو المهيب وقد تجمّعتْ بين يديّ كل هذه الأوراق المطبوعة. كان الأمر أشبه باكتشاف ألبومٍ من

صور جميلة وحديثة من أبي ومني أيضاً. في الخارج كان الثلج كثيفاً نداقاً. وكانت كبّاته قد بدأت بالتساقط حين عودتي من معهد الموسيقى. وكنتُ أحسب أن الثلج سيتماسك على الأرض طويلاً. كان ذلك في مطلع تشرين الثاني.

وخلوتُ إذاً لنفسي وجلستُ على سريري وأخذت بالقراءة.

هل أنت مرتاح في جلستك يا جورج؟ مِن المهمّ أن تكون جلستك مستقرة على الأقل لأنني سأقص عليك الآن حكايةً مثيرة قد ينقطع لها نَفَسُك انقطاعاً، فلعلك جالس الآن جلستك المريحة تلك، على كنبة الجلد الصفراء، إلا إذا كنتم أحللتم محلها واحدة جديدة. مِن أين لي أن أعرف؟ ولي أيضاً أن أتخيلك متمدّداً على كرسي حديقة الشتاء الهزّار ... فلعلّك تذكر كم كنتَ مُحِباً له. أم أنك سعيتَ إلى الهواء الطلق على الشرفة؟ لستُ أعرف أيّ فصل من فصول السنة قد حلّ عليكم الآن، بل ولعلكم رحلتم عن هومليفاي أيضاً.

لست أدري؟

لا عِلم لي بأي شيء. تُرى مَن هو رئيس الوزراء النرويجي؟ وما اسم الأمين العام للأمم المتحدة؟ وأي حالٍ من الأحوال صار عليه منظار هوبل العملاق؟ هل تعرف شيئاً عن كل ذلك؟ وهل صار الفلكيّون يعلمون عن المادة المكوّنة للكون أكثر مما كانوا يعلمون؟

حاولتُ مرات عديدة أن أستبق الزمن بضع سنوات إلى الأمام، إلى قلب المستقبل، حتى أراك عن كثب كما أنت الآن، لكنّي في كل مرّة

لا أتبيّن من صورتك الحالية شيئاً. فأنا لا أعلم عنك اليوم إلا ما أذكره منك حين كنتُ حيّاً. فلعل عمرك الآن اثنتا عشرة، أو أربع عشرة سنة. أما أنا، أبوك الذي يحدثك الآن فقد رحل عن الحياة حين وافته المنيّة منذ أمد بعيد.

لستُ واهماً إنْ قلت لك إني صرت كشبحٍ منذ الآن، وكم يجعلني هذا الإحساس أختلج للأمر اختلاجاً، وقد بدأت أفهم ذلك الذي يجعل الأشباح تزمجر وتهدُر في أحيان كثيرة. فهي لا تفعل ذلك لرعبٍ تريد أن تبثه في نفوس نسلها، بل لعُسرٍ في التنفس في زمنٍ غير الزمن الذي دَرَجَتْ عليه وألِفَتْه طويلا.

إننا في هذا الوجود لا نملك إلا حيّزاً محدوداً، بل لا نملك من الزمان فيه إلا ردحاً محدوداً أيضاً.

هذه هي سنّة الحياة لا حول لنا فيها. وليس لي من نقطة أنطلق منها غير هذا الذي يحيط بي اليوم. إني أكتب إليك والزمن آب ١٩٩٠.

أحسبك اليوم - وأنت تقرأ هذه الأسطر – قد نسيتَ معظم ما عشناه معاً في أيام الحرّ من صائفة عمرك الثالث والنصف. لكنّ أيامنا هذه ما تزال مِلْكاً لنا، وما يزال أمامنا من الأوقات السعيدة الكثير مما يمكن أن نعيشه معاً.

دعني أبوح لك الآن بشيءٍ ممّا صار يشغل بالي الآن كثيراً. فمع كل يوم يمرّ، ومع كل نشاط صغير جديد نقوم به معاً سوف تتضاعف حظوظك في أن تذكرني. فقد صرتُ الآن أعدّ الأسابيع والأيام عدّاً.

ففي يوم الأحد الماضي توجهنا أنا وأنت إلى برج تريفان، ومنه تطلّعنا إلى نصف المملكة حتى حدود السويد المجاورة. وكانت والدتك ترافقنا، فقد كنا نحن الثلاثة، فهل تذكر تلك الرحلة؟ هل لك أن تحاول، على الأقل، أن تذكرَ ذلك يا جورج؟ لِمَ لا تحاول؟

وهل تذكر أيضاً قطارك "بريو" الخشبي الكبير؟ كنتَ تتسلى به كل يوم ساعات طوالا. وإني لأنظر إليك الآن وأنت تلعب به. ففي اللحظة التي أكتب إليك فيها أرى السكك والقطار وعرباته متناثرةً في أنحاء الغرفة الخلفية كما تركتَها قبل حين. وقد نجحتُ أخيراً في أن أنتزعك من هذه اللعبة انتزاعاً حتى يتسنّى لنا الوصول إلى الحضانة في الموعد المحدد. وأخال يديك تكادان تلمسان قطع القطار المتناثرة ولم أجرؤ على تحريك سكة واحدة منه.

وهل تذكر الكمبيوتر الذي كنا نتسلى به أنا وأنت بألعابٍ كثيرة في عطلة نهاية الأسبوع ؟ فحين جئنا به للمرة الأولى وضعناه في مكتبي بالطابق العلوي. لكنني ما لبثت أن حولّته في الأسبوع الماضي إلى الغرفة الخلفية. فقد آثرتُ أن أكون حيث تكون شؤونك وأغراضك، وحيث يحلو لك ولوالدتك أن تكونا دوماً في فترات العصر، وحيث تزورنا جدتك وجدك في أوقات كثيرة. فيا لها من أيام طيبة رائعة.

ثم هل تذكر الدراجة الثلاثية الخضراء؟ إنها الآن في ممرّ الحصى في الحديقة، بهيّة جديدة. وإنْ كنتَ الآن ما تزال تذكرها فلأنها ربما ما تزال في المرآب، أو في كوخ الأدوات، قديمةً على ما أتصور ومنهكة. أم إن أمرها انتهى إلى سوق البراغيث؟ ثم قل لي، يا جورج، كيف

حال العربة الصغيرة الحمراء؟ أجل العربة الصغيرة الحمراء. أما تـــزال على حالها؟

فلعلك تحتفظ بشيء من ذكرياتِ كل النّـــزه التي كنا نقـــوم بها حول بحيرة سونسفان؟ ولعلك لم تنس أيضاً إقامتنا في بيتنا الريفي. لقـد أمضينا ثلاث عطل أسبوعية متتاليات في فجيلستون. لكنني لا أحب أن أثقل عليك بمزيد من الأسئلة، فلعلك، يا جورج، لا تحتفظ بأيّ ذكرى من ذكريات ذلك الزمن الذي كان زمني أيضاً. فلندعْ الأشياء عنـــــد هذا الحد.

قبل حينٍ أخبرتُك بأني سأروي لك قصة مثيرة، لكن أيّ أســـــلوب أنسب لكتابة هذه الرسالة؟ فالأمر على أي حال ليس هيّـــناً. ولعلـــي أيضاً كنتُ أحمقَ حين خاطبتُ فيك ذلك الجزء الصغير الذي أحسـبني أعرفه جيداً. ومع ذلك فلم تعدْ صغيراً وأنت تقرأ هذه الأسطر. فـأنت لم تعدْ ذلك الطفل ذا الخصلات الشقراء.

غير أني أخالني أهْذر هذراً كمثل أولئك العجائز اللواتي يتغابين مـــع الأطفال الصغار. وفي ذلك شيء من حمقٍ، لأنّ جورج الذي أقصـــده هو جورج البالغ الناضج الذي لم يمهلني الزمن لكي أراه، جورج الـذي لم يسعني يوماً أن أخاطبه حقاً.

هأنذا أنظرُ الآن إلى الساعة. لقد مضتْ ساعة كاملة على عودتي إلى البيت بعد أن اصطحبتك إلى الحضانة.

كنتَ دائما تهوَى، ونحن فوق النهر، أن تخرج من عربتك لكي تلقي

في الماء عوداً أو حجراً. وذات يوم عثرتَ على قنينة صودا فارغة فأبيتَ إلا أن تقذف بها إلى النهر، فلم تطاوعني نفسي أن أحرمك من تلك المتعة. لقد صرتَ اليوم تملك من الحق ما يجعلك أكثر حرية في التصرف وفقاً لإرادتك الحرة. وقد كنتَ، حين تصل إلى الروضة، تهرول إلى صفّك حتى قبل أن يتسنى لأحدنا أن يقول للآخر "وداعاً"، فأنت الذي كنتَ على عجلة من أمرك وليس أنا. وحين أذكر ذلك أستغرب لأمرك كثيراً. فالكبار يبدون دائماً أكثر صبراً وجلداً وأكثر تحكّماً في الزمن من الأطفال الذين يسعهم من الوقت حياة كاملة.

أنا نفسي لا أحسّني تقدّمتُ في العمر كثيراً إلى الحد الذي يجعلني أضخم الحكاية. فما أزال أحسّ بأنني شابٌّ في مقتبل العمر، وعلى أي حال فلستُ إلا أباً صغيراً. ولكنني مع ذلك أحببتُ، لو وسعني، أن أوقف الزمن، وكم تمنيتُ لو أن واحداً من تلك الأيام الجميلة استحالَ إلى يومٍ أبديٍّ، يوم يتعاقب فيه الليل والنهار، لأن للأيام وتيرتَها الخاصّة وإيقاعَها المميّز.

لم تعد بي حاجة قط لكي أرى وأعيش أكثر مما رأيتُ وعشْت. بل أتوق لأن أحتفظ بما ملكتُه من عمر ومن عافية، لكنّ اللصوص بدأوا يحومون من حولي يا جورج. فقد شرع الطفيليون يسلبون قواي الحيويّة. ألا يخجلون مما يفعلون؟

تغمرني وأنا أرافقك هذه الأيام إلى الحضانة مشاعر من الغبطة لا حدّ لها، لكنني أشعر في الوقت نفسه بوطأة المرض وقد بدأت تثقل كاهلي

أيضاً. فإذا كان ما يزال يسعني أن أتحرك دون عناء كثير، وأن أدفع بك العربة فإنني أعلم أنّ جسمي قد صار سقيماً عليلا.

الأمراضُ الحليمة الرؤوفة هي التي تسمِّر المريضَ فجأة في سريره. لكنّ المرض الخبيث يحتاج في غالب الأحيان لوقت طويل لكي يقضي على صاحبه نهائياً ويذهب به من حيث لا عودة.

لعلك لا تذكر يا بني أنني كنت طبيباً يوماً. وظني أن والدتك قد حكت لك قليلا أو بعضاً عني، و لم تقصّر في حقك من أمري شيئاً. صحيح أنني الآن في إجازة مرضية بأمر من المركز الطبي، ولكنني رغم الإعياء أعي تماماً ما أقول، فأنا لست من صنف المرضى الذين ينخدعون بسهولة.

حصيلتنا، أو بالأحرى اللقاء الأخير الذي جمع بيننا نحن الاثنين أراه يدور حول زمانين اثنين. لعلنا نستطيع القول إن كل واحد منا يقف على قمة جبل غَشَتْهُ سحابة من الضباب، حيث يسعى كل واحد منا فيها لأنْ يرى الآخر وقد امتد بيننا وادٍ خصب ما لبث أن قطعتَه أنت على طريق الحياة التي لن تتاح لي فيها فرصة لكي أراك من جديد. لكنْ عليّ أن أحسبَ حساباً للحظة الكتابة أثناء تلك الصباحات التي تكون فيها أنت في الروضة، ثم للحظة القراءة التي لا يملكها أحدٌ غيرك يوم تقرأ فيها هذه الأسطر.

واعلمْ يا بنيّ أن الكتابةَ لولدٍ فارقتُه تجعلني أضطرم اضطراماً. وأتصور أن في قراءة الرسالة ما يثير الألم أيضاً. وإنْ كنتُ أنا قد

نجحتُ في أن أخطّ هذه الأسطر على الورق، فإني أتصور أنك ستقْدِر أنت على قراءتها أيضاً.

لعلك قد فهمتَ أني أدركتُ أنني على وشك أن أفارق كل شيء .. الشمس والقمر وكل ما هو موجود. وبالطبع أنت وأمك أيضاً! إنها الحقيقة، وكم هي مرّة الحقيقة يا بنيّ!

لا أجد بدّاً يا ولدي من أن أطرح عليك سؤالا أراه غاية في الأهميّة، فهو الذي دفعني للكتابة إليك، لكنْ قبل أن يتاح لي طرح السؤال دعني أقص عليك هذه الحكاية المثيرة التي وعدتك بها ذات يوم.

منذ أن رأتْ عيناك النور وأنا أُمنّي النفس بأن أحدثك يوماً عن فتاة البرتقال. فاليوم – أي في اللحظة التي أكتبُ إليك فيها – أراك أصغرَ عمراً من أن يسعك فهمُ هذه القصة. لذلك ستكون القصة هذه إرثاً صغيراً أتركه إليك خصّيصاً. وسوف تظل هذه القصة مختفيةً في مكان ما تنتظرُ يوماً آخر من حياتك.

وقد حان الآن موعدُ ذلك اليوم.

عند هذا الحد من القراءة تطلعتُ إلى السماء. فما أكثر ما حاولتُ أن أذكر والدي، وهاأنذا أحاولُ أن أتذكره من جديد. لقد التمس مني هو ذلك. لكنّ كل ما يخطر لي من ذكريات لا يأتيني إلا من ألْبومِ الصور ومن الفيديوهات.

أذكر أني كنتُ ألعب بقطاري الخشبي الكبير حينما كنت صغيراً. لكنّ القطار لا يسعفني في تذكّر شيء من والدي. كانت الدراجةُ الثلاثية ما تزال في المرآب، ويعني هذا أني ما زلت أُحتفظ بشيء من ذكريات الطفولة. لا يساورني في ذلك شكٌّ تقريباً. وما تزال العربة الصغيرة الحمراء قابعةً في مكانها، في أعماق كوخ الأدوات. لكنني ما أزالُ عاجزاً عن تذكُر النُّزَهِ التي كنا نقوم بها حول سونسفان، كما لا أذكر أن والدي اصطحبني يوماً إلى برج تريفان. لقد أُتيح لي كثيراً أن أزور ذلك البرج برفقةِ أمي وجورجن، بل لقد قصدتُ إليه وحدي مع جورجن. كان ذلك حين كانت أمي في المستشفى بعد ولادة مِريام..

كنتُ بالطبع أحمل ذكريات كثيرة عن بيتنا الريفي في فيجلستون، لكني لا أعثر فيها على مكان واحد لوالدي، فلا أحد يملأ هذه الذكريات غير والدتي وجورجن وميريام. في الطابق الأول من بيتنا يومياتٌ قرأتُ فيها مرات عديدة أشياء كثيرة اعتاد أبي على تدوينها قبل رحيله. غير أن مشكلتي الوحيدة أنني لا أعرف إن كنتُ حقاً أذكرُ الأحداث التي وصفها في تلك اليوميات، حيث لا فرق بينها وبين ما هو محفوظ في الصور والفيديوهات. "في ليلة عيد الفصح بَنَيتُ مع جورج كوخاً من الثلج كبير الحجم زيّناه بمصابيح من الثلج أيضاً" لقد قرأتُ كل هذه القصص بل حفظتُ بعضاً منها عن ظهر قلب، لكنني لم أفلحْ قط في تذكّر إنْ كنتُ يوماً طرفاً في ما توحي به كل هذه القصص. لم أكن قد جاوزتُ من العمر عامين ونصف العام حين شيَّدنا ذلك الكوخ الثلجيّ، وكل تلك المصابيح الثلجية. وعندي عن

ذلك الكوخ صورة أيضاً. لكن الصورة قاتمة لا تظهر فيها غير المصابيح.

سؤال آخر طرحه عليّ والدي في مقام آخر من هذه الرسالة الطويلة التي كنتُ شرعتُ في قراءتها، يقول:

تُرى، كيف حال المنظار هوبل؟ هل تعرف عن ذلك شيئاً؟ وهل صار الفلكيّون يعلمون عن المادة المكوّنة للكون أكثر مما كانوا يعلمون؟

واقشعرّ بدني لقراءة هذه الأسطر، لأنني كنتُ قد أنهيت لتوّي بحثاً عن المنظار المداري أو"هوبل سبايس تلسكوب" كما يُسمّى بالانجليزية. طلاب آخرون كانوا قد انصرفوا إلى كرة القدم أو "سبيس غيلرز" أو "روالد داهل". أما أنا فقد سعيتُ إلى المكتبة أبحث فيها عن كل ما وسعني العثور عليه فيها عن المنظار هوبل الذي وهبتُ له بحثي. لم يكن قد مرّ على تقديم البحث سوى أسابيع قليلة، وكان أستاذي قد سجل على صفحته الرئيسية مدى تأثره بطريقة "المعالجة الناضجة المتأملة الرزينة". وقد غمرني ذلك بفخرٍ لم أشعر بمثله إلا حين قرأتُ هذه الجملة. كان عنوان تعليق الأستاذ: "كلُّ الزهور للفلكي الهلوي". وأرفقَ التعليق برسم جميل لباقة جميلة من تلك الأزهار.

هل كان والدي يملك حسًّا تنبّئياً؟ أم أنّ الصدفة المحضة هي التي جعلته يسألني عن حال المنظار هوبل بعد أسابيع قليلة فقط من كتابة ذلك البحث؟

أم أنّ رسالة والدي غير حقيقية؟ أم تراه ما يزال حيًا يرزق من حيث لا أدري؟

وعادت القشعريرة إلى بدني من جديد.

ومكثتُ جالساً في سريري أتأمل الأمرَ، مستغرقاً فيه. كان المنظار هوبل قد وُضِع في مداره حول الأرض بواسطة المكوك الفضائي "ديسكوفري" في الخامس والعشرين من نيسان من عام ١٩٩٠. في تلك الفترة بالذات أصاب المرضُ والدي، وكان ذلك بعد إجازة عيد الفصح. لم يغبْ ذلك عن ذاكرتي. وقد ربطتُ خيوطَ ذلك المرضِ بحدثِ وَضْع منظار هوبل في مداره. فلعل أبي علِم بمرضه في اليوم ذاته الذي أُطلق فيه ديسكوفري من قاعدة "كاب كنافيرال" وعلى متنه المنظار هوبل. ومَن يدري ... فلعل أبي علم بذلك في الساعة نفسها، وربما في الدقيقة نفسها.

وفي يسرٍ أدركتُ فضولَ أبي وانشغاله بحالة المنظار. فما لبث العلماء أن اكتشفوا في المرآة الرئيسية عيباً في جهاز التجنيب. ولم يكنْ يَسَعُ والدي أن يعرف أن الفلكيين في "أنديفاوار" سيصلحونه في كانون أول من العام ١٩٩٣ أي بعد وفاته بنحو ثلاثة أعوام تقريباً. وبطبيعة الحال لم يكن يعرف أي شيء عن كل التجهيزات التي زُوِّد بها المنظارُ في شباط من العام ١٩٩٧.

رحل أبي عن الحياة قبل أن يقفَ على ما أنجزه هوبل من صور عن الكون لم يسبقْه إلى دقّة وضوحها أي منظار آخر، ولم ير العالَم أجمل

وأروع منها قط. وقد اهتديتُ إلى الكثير من تلك الصور على "الويب" وأعددتُ عنها ملفاً أضفتُ إليه كمّاً من الانطباعات الـتي أثارتهـا في نفسي تلك الصورُ الرائعة. وقد علّقتُ في غرفتي بعضاً ممّا راق لي منـها كصورة النجمة العملاقة الرائعة "إيتا كاريناي" النائية التي تبعُـد عـن مجموعتنا الشمسية نحو ثمانية آلاف سنة ضوئية. إيتا كاريناي واحـدةٌ من النجوم الأكثر كثافةً في درب التّبانة، وسوف تنفجـر قريبـاً إلى سوبرنوفا (كوكب ساطع) قبل أن تستحيل إلى نجمة نوترونيـة أو إلى ثقب أسودَ. ومن صوري المفضلة الأخرى صورةُ أعمدة الغاز والغبـار في مجموعة العُقاب النجمية (التي تُدعَى أيضا م ١٦). ففي المجموعـة ذاتها تولدُ النجوم الصغيرة.

لقد صرنا نعرف عن هذا الكون ما لم يكن متاحاً لنا العـام ١٩٩٠، ولا سيما بفضل منظار هوبل العملاق. فقد التقط هـذا التلسـكوب آلاف الصور عن مجرات، وعن سُدُمٍ تفصلنا عن مجرتنا ملايين عديـدة من السنوات الضوئية، ناهيك عن صور أخرى لا يكاد يصدّقها العقـل عن ماضي الكون السحيق. وإنْ بدَتْ قدرةُ الإنسان علـى تصويـر ماضي الكون غريبةً إلى حدّ من الحدود فإنّ النظرَ في أعماق الكـون أشبهُ ما يكون بالنظر إلى الخلف في أعماق الزمن. فـالضوء يتحـرك بسرعة فائقة لا تقل عن ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، ومـع ذلك فقد يستغرق ضوء المجرّات النائية ملايين السنين قبل أن يصل إلينـا ، لأن سعةَ الكون هائلةٌ إلى حدّ لا يتصوره العقل، فقد وسِع هوبـل أن يصوّرَ مجرّات يزيد عمرها عن اثني عشر مليار سنة ضوئية، ويعني ذلـك

أنّه قد تطلّع لأكثرَ من اثني عشر مليار سنة إلى الوراء في تاريخ الكـون. إنه لأمرٌ – لو تأمّلناه – أشبه بالجنون! لأنّ عمرَ الكون في تلك الأثنـاء لم يكن قد جاوز ملياراً واحداً من السنين. فقد كاد هوبل أنْ يُـدرك لحظةَ الانفجار الكوني الأعظم (البيج بنج) حـين ميـلاد الزمـان والمكان.

لكنّني لا أحب أنْ أقصَّ عليكم كلّ ما أعرفُ عن هذا الموضوع، فقـد حوى الدفتر الذي قدّمته لأستاذي ما يزيد عن سبع وأربعين صفحةً.

إنّ في حديث والدي عن المنظار المداري ما يحزنني حقاً. فقد كـان البحث الفضائي يستهويني دائماً، وكان التطلع إلى ما يجري فيمـا وراء سطح كرتنا الأرضية أشبه عندنا بالوراثة. كان بوسعي أن أُكرِّس بحثـي لبرنامج أبوللو، وللإنسان الأول الذي وطِئتْ قدماه سـطح القمـر. وكان بإمكاني أن أحدثكم عن المجرّات، وعن الثقوب السـوداء لأني أعرف الكثير عنها، ناهيك عما أعرفه عـن المجـرّات ذات الثقـوب السوداء. وكان في وسعي أن أحدثكم أيضاً عن المجموعـة الشمسـية وعن كواكبها السيارة التسعة، وعن حلقات النجيمات ما بين المشتري والمريخ، وعن مناظير هاواي الكبرى. غير أني آثرتُ الحديثَ عن منظار هوبل بعينه. لكن كيف تسنى لأبي أن يتنبّأ بذلك؟

كان من الأسهل عليّ أن أفهم سبب ذكره للأمين العـام للأمـم المتحدة، بل أراه قد أصاب في السؤال حقاً، لأن ميلادي جاء في الرابـع والعشرين من تشرين الثاني، يوم ذكرى الأمم المتحدة بالذات. وكـوفي

أنان، على أي حال، هو الأمين العام الحالي، و"كوجيل مانييه بوندفيك" هو رئيس الوزراء الذي خلف "جنس ستولتنبرغ" من عهدٍ قريب.

كنتُ غارقًا في هذه التأملات حين جاءت أمي وطرقتْ بابَ غرفتي لتسأل عن حالي. لم أكن قد قرأتُ من الرسالة سوى أربع صفحات. قلت لها: "دعيني وشأني". وعدتُ لوالدي وفكرتُ: هيا، احكِ أيها الأب، احكِ قصة فتاة البرتقال! أنا جالسٌ هنا! لقد جاء اليوم الموعود، موعد القراءة!"

تبدأ قصة "فتاة البرتقال" ذات عصرٍ كنتُ فيه أمام المسرح الوطني أرقب القطار الكهربائي. كان ذلك في حدود نهاية السبعينات والخريفُ على أشدّه.

أذكر أني كنتُ ساعتها أفكر في دراسة الطب التي كنت قد شرعت فيها. ومن الطريف حقاً أنْ أتصور نفسي وقد صرتُ طبيباً حقيقياً يستقبل مرضى حقيقيين جاؤوا لكي يضعوا مصيرهم بين يديه. فقد تخيلتني جالساً بالمئزر الأبيض خلف مكتبٍ واسع وأنا أقول: "سنبدأ بأخذ عينة الدم يا سيدة جونستين!" أو"هل طال معك المرض كثيراً؟" وأخيراً وصل القطار الكهربائي. فقد لمحتُه بعيداً وهو يتقدّم أوّلا أمام البرلمان، ثم ينساب في شارع ستورتنسغيت. لا يسعني أن أذكر المكان الذي كنتُ سأقصد إليه، وكنت أضيقُ بذلك بعض الضيق، لكنني لم

أنسَ أنّ القطارَ الكهربائي وهو من قطارات فروغنر، كـــان مكتظـــاً، ناصع الزرقة. وما إنْ وصل حتى وجدتني بداخله.

ثم توقف بصري للتو عند فتاةٍ غريبة الأطوار كانت تقف في الممــــر الرئيسي للعربة. كانت تحمِل كيساً من الورق امتلأ برتقـــالا لحيمـــاً. كانت ترتدي مِمْطراً رياضياً ريفياً قديماً، برتقالي اللـــون، وأذكـــر أني أشفقتُ عليها من ذلك الكيس الكبير، ورأيت أنه حِمْلٌ ثقيل قد يُفلِت منها في أي لحظة. لكنّ الذي شدّ اهتمامي ليس كيس البرتقال بذاتـــه بل الفتاة بعينها. وقد أدركت لتوي أن الفتاة قد انطوت على شـــــيء لافتٍ أشبه بالسحر المغلق الأخّاذ.

ولمحتها وهي ترقبني بعد أن رصدتني في لمحة بصر من بين كل الركاب الذين انسكبوا داخل القطار، وكأنّ رباطاً خفياً قد نشأ بيننا.

وما أن دخلتُ القطار حتى احتوتني تلك الفتاة بنظرتها الجامدة الثابتـــة. ولعلي كنت سبّاقاً إلى تحويل نظري عنها، بل إنني أُرجِّح ذلك لفـــرط خجلي في ذلك العمر. ومع ذلك فقد خطر لي بوضـــــوح، في تلـــك الرحلة القصيرة في القطار، أنني لن أنسى تلك الفتاة يومـــاً. لم أكـــن أعرف شيئاً عنها، ولا أعرف اسمها، لكنني شعرتُ منذ اللحظـــة الأولى أن الفتاة قد أحدثتْ في نفسي وقعاً يكاد يكون مهيمناً.

كانت تقصرني قليلا، وكان شعرها طويلا داكناً. وكانت عيناهـــا بنيّتين، وعمرها في حدود التاسعة عشرة كعمري تماماً. وحين رفعـــتْ عينيها نحوي راحت تحييني بحركة من رأسها ثم ما لبثـــت أنْ رمتـــني

بابتسامة نكِدة جريئة وكأننا التقينا من قبل، أو كأننا – لا أتـــردد في قول ذلك – عشنا معاً منذ زمن بعيد حياةً كاملة لم يكن فيها ســوانا. كان الأمر أشبه برسالة قرأتها في عينيها القاتمتين. كانت ابتسامتها قـــد رسمتْ على خدّيها غمّازتين جميلتين، لم يكن هذا هو الـــذي ذكّــرني بالسنجاب تحديداً، ولكنها كانت حبّوبة على أي حال. لكن، وإن كنا قد عشنا معاً حياةً كاملة حقاً، فلعل تلك الحياة كانت أشــــبه بحيـــاة سنجابين في شجرة. هكذا خيّل لي. وإنْ كنتُ قد عشت حقاً حيـــاةَ سنجاب سعيدة مع فتاة البرتقال المليئة بالأسرار، فإنني لا أتصوّر تلـــك الحياة إلا سارة طيبة.

لكنْ ما الذي جعل ابتسامتَها مفعمةً بكل ذلـــك الخبـــث الحـــافل بالتحدي؟ هل كنتُ أنا المقصود بتلك الابتسامة؟ أم أنّ فكرةً مســـلّية حثّت في نفسها تلك الابتسامة، مجرد فكرة عابرة لا صلة لها بي؟ أم أنها كانت تسخر مني حقاً؟ لم أستبعدْ ذلك الاحتمال أيضاً. ومع ذلك فلم أكن غريب الأطوار حتى أُلْفِتَ منها كل ذلك الانتباه، فقد كنتُ أراني عادياً جداً، بل لا شك عندي أنها كانت أوْلى بإثـــارة الانتبـــاه وقـــد انفردتْ بمظهرها المُسلّي وهي تحمل ذلك الكيس الذي التصق ببطنـــها التصاقاً. فلعل في ذلك سببَ ابتسامها. ومَنْ يدري فربما كانت تعـــاني شيئاً من خَبَلٍ في عقلها.

لم أجرؤ على النظر في عينيها من جديد، فاكتفيتُ بالنظر إلى كيـــس برتقالها الكبير، أراه على وشك أن يقع منها. لا أحب أن يقع منـــها، لكنْ ها هي على وشك أن تتخلى عنه.

كان الكيس يحمل ما لا يقل عن خمسة كيلوغرامات، بل قـل ثمانيـة أوعشرة!

وسار القطار الكهربائي صعوداً نحو درامنسفي. هل لك أن تتخيلـه يا جورج؟ إنه يرتعش ويقاوم، ويقف أمام سفارة الولايات المتحـدة، ثم يتوقف عند ساحة سوللي، ثم وبينما هو الآن يرسـم انحرافـه نحـو فروغنرفي إذا بالأمور تنقلب إلى ما كنت أخشاه منذ البداية.

فجأة يتعرض قطار فروغنر الكهربائي إلى هزّة خطيرة، كـان ذلـك إحساسي على أي حال. وتأرجحت فتاة البرتقال قليلا فـأدركتُ في طرفة عينٍ أن لا بد من أن أنقذ كيس البرتقال الكبير من الغَـرَق ... الآن ...لا...الآن!

وهنا كان خطئي الفادح في التقدير. فقد اقترفتُ حركةً لا يمكـن أن تُحمَد عُقباها. دعني أشرح لك ذلك: مددتُ ذراعيّ في حركةٍ محسوبة وما لبثت إحداهما أن امتدت تحت كيس ورق الكرفت، فيما احتضنت ذراعي الثانية خصر الفتاة الصغيرة. تصورْ ما الذي حدث بعد ذلـك! لقد فقدتْ فتاة البرتقال كيسها، بل قلْ أنا الذي دفعتُ الكيس خـارج عناقها القوي له، وكأنني حسدتُها على ذلك الكيـس فسـعيتُ إلى التخلص منه، فكانت النتيجة أن انتثرتْ ثلاثون أو أربعون برتقالـةً في أحضان الركاب وعلى الأرض. أجلْ على القطار بكامله. لا شك أنـي اقترفتُ الكثير من الحماقات في حياتي، لكنّ حماقتي هذه فـاقت كـل الحماقات، وكان الموقف أكثر المواقف حرجاً في حياتي.

قلتُ لنفسي كفاك الآن من هذه البرتقالات ودعيـها تتدحـرج في

القطار بعض الوقت، فليس البرتقال على أي حال بيتَ القصيد في قصة القطار الكهربائي هذه. وما لبثتْ الفتاة أن التفتتْ إليّ من جديد ولكنْ في غير ابتسامٍ هذه المرة، حيث بدتْ كئيبةً حزينة. فقد لمحتُ ذلك من المسحة القاتمة التي غَشَتْ وجهَها. لم يسعني أن أقرأ أفكارَها وما ظننتني قادراً على ذلك بأي حال. وتوقعتُ أنها ستنفجر بكاءً بين لحظة ولحظة، وكأن لكل برتقالة في نفسها أهميّةً خاصة. أجل يا جورج وكأن كل برتقالة كانت فريدةً من نوعها. لم يدمْ هذا المشهدُ طويلا، فما لبثت الفتاة أن رمتني بنظرةِ تبرّمٍ وضجر أوْحَتْ لي فيها بوضوح، بأنني مسؤول عما أصابها. وأحسستُ أنني بدّدتُ حياتها ومعها بدّدتُ حياتي أيضاً، بل قل وكأنني أضعتُ ما أتطلع إليه من مآل.

كم تمنيتُ لو كنتَ إلى جانبي يا جورج في تلك اللحظة حتى تنقذَ الموقف بدعابةٍ منك أو طرفة، لكن في تلك الفترة لم أكن أمسك بيدٍ صغيرة، لأنك لم تكنْ قد جئتَ إلى هذه الحياة.

وفي خجلٍ جمٍّ ارتميتُ على الأرض لألتقطَ البرتقالات المنتثرة ما بين عدد من الجزم، بعضها طويلة الساق وبعضها قصيرة الساق امتلأت قذارةً ودرَناً. لكنني لم أجمعْ من تلك الفاكهة إلا كمّاً قليلا. وسرعان ما أدركتُ أن الكيس الذي احتواها قد تمزّق إرباً إرباً فصار غير ذي جدوى.

وكمْ راعني ذلك الموقفُ الهزلي الحزين حين وقعتُ عند قدمَيْ تلك الفتاة الشابة، فقد شرع راكبٌ أو راكبان في الضحك في جذل وغبطة فكانا أكثر الركاب بذلك المشهد ابتهاجاً. وما أكثر التكشيرات

المترعجة التي عمّتْ ذلك القطار الذي طَفَح بالركاب حتى كاد لا يحتمل تكدسنا. أما الركاب الذين وقفوا على ذلك المشهد عن كثبٍ فقد لمحتُهم وهم يحمّلونني مسؤولية تلك الجناية التي لم تكن سوى لفتة طريفة مني لإنقاذ تلك المسكينة.

أما آخر صورة أحتفظُ بها عن ذلك المشهد، فهي هذه الصورة التي وقفتُ فيها من جديد أمام فتاة المِمْطر البرتقالي وقد امتلأتْ ذراعايَ بالبرتقال بعدما وضعتُ حبّتين منها في جيوب البنطال، فقد أمعنتْ فيّ تلك الفتاة النظرَ وقالت بلهجة قاسية: "يا لك من شخص نبيه!"

ورأيتُ في ذلك عتاباً قاسياً لم يراودني فيه أي شك. لكنها ما لبثتْ أن تمالكت نفسها قليلا لتقول بلهجةٍ اختلطتْ فيها مشاعرُ المصالحة بمشاعر الهزل: "هل تسمح لي بواحدة؟"

"آسف! ــ قلتُ ــ إني آسف!"

وتوقّفَ القطار الكهربائي عند محل حلويات "ميلهاوس" في فروغنر. وتشرّعت بواباته. وهززْتُ رأسي منذهلا في اتجاه تلك الفتاة التي بدتْ لي وكأنها من عالم آخر. وما هي إلا هنيهة حتى تناولتْ الفتاة من حضني الطافح، برتقالةً واحدة، قانعةً راضية، قبل أن تتلاشى في الشارع في خفّة حوريةٍ أسطورية.

وانطلق القطار الكهربائي من جديد، ثم واصل طريقَه نحو شارع فروغنرفي.

"هل تسمح لي بواحدة؟" تصورْ يا جورج! كل البرتقال الذي

احتضنَتْه ذِراعاي وجيوبُ بنطالي وما وقع منه على أرض القطار كـان مِلكاً لها!

ووجدتني فجأة بِذراعين مفعمتين بالبرتقال، برتقال لم يكـن لي أي حق فيه على أي حال، حتى أنّ بعضَ الركاب لم يتردّدوا في أن يلمّحوا إلى ذلك في مزح لم يخلُ من قساوة واحتقار. لكنني لا أذكر ما تركـه كل ذلك في نفسي من انطباع، وما لبثتُ أن قفزتُ خارج القطار عند ساحة فروغنر.

حين غادرتُ القطارَ لم تكنْ بذهني سوى فكرةِ البحثِ عن مكـان أتخلّص فيه من كل تلك البرتقالات. و لم أجدْ بدّاً من أن أظل محتفظـاً بتوازني الأشبه بتوازن الراقص على الحبال حتى لا يفلتَ ذلك الحمـلُ مني. ورغم ذلك فقد انتهتْ إحدى البرتقالات إلى بـلاط الشـارع، ولكنني لم أخاطر بالانحناء عليها لكي ألتقطها من جديد.

وما لبثتُ أن لمحتُ امرأةً تَدْفَعُ أمامها عربةَ أطفالٍ أمام محـل بيـع السمك القديم، سوق ساحة فروغنر، هل تذكره يا جورج؟ (علـى أي حال لا أستطيع أن أعرف إنْ كان هـذا المحـل موجـوداً إلى الآن). اقتربتُ من تلك المرأة شيئاً فشيئاً، وبينما كنت أجاورهـا إذا بخـاطرٍ يوحي لي بأنْ أُلقي بكل برتقالي في داخل تلك العربـة علـى فـراش الرضيع الوردي، بما فيها البرتقالات التي كانت في جيـبي. فـالأمر لا يحتاج لأكثر من ثانية أو ثانيتين.

آهِ لو رأيتَ انطباع تلك المرأة يا جورج! لقد أحسسـتُ بشـيءٍ

يدفعني لأنْ أقول شيئاً، وقد رَجَوْتُها بأن تقبلَ منّي تلك الهدية المتواضعة لذلك الطفل الصغير. فما أحوج الأطفال في نهاية فصل الخريف، لأن يتناولوا ما وسِعهم من فيتامين ج، وقد سعيتُ لأن أقنع تلك المرأة بأن حديثي حديثُ خبيرٍ طالبٍ في الطب.

وجدَتْني تلك الفتاةُ وقِحاً جريئًا، لا شك في ذلك، بل ولعلها تصورتني ثَمِلا نشواناً، وعلى أي حال فلم تُصدّقْ أنّي طالبٌ في الطب. كنتُ وأنا أفكر في ذلك قد انطلقتُ في طرفةِ عين مسرعاً نحو فروغنرفي. ومن جديد لم يعدْ في ذهني مكانُ سوى لفكرةٍ واحدة وهو العثور على فتاة البرتقال. لذلك كان عليّ أن أسرع الخطى لعلّي أعثر على أثرٍ لها وأعتذر منها.

لستُ أعلمُ إلى أيِّ حدّ تعرف يا بنيّ هذا الجزء من المدينة. فقد وصلتُ بعد عناءٍ يقطع الأنفاس إلى تقاطع فروغنرفي وفردريك ستنسغيت وإليزبيرغفي وليفينشيلدغيت، حيث نزلتْ تلك الفتاة الغريبة وليس في يدها سوى برتقالة واحدة. كان هذا التقاطع يذكرني بتقاطع ساحة "ليتوال" في باريس، فما أكثر الطرقات وأيّ طريق منها أختار، فقد تاهتْ فيها فتاة البرتقال و لم أعثر لها فيها على أثر.

وظللتُ أروح وأغدو في فروغنر ساعاتٍ طوالا في غروب ذلك اليوم. أصعدُ تارةً لغاية ثكنة بريسكيي للاطفاء، وأنحدرُ تارةً أخرى حتى عيادة الصليب الأحمر القديمة، وكلما رأيتُ شيئاً يذكرني بالمِمطر البرتقالي راح قلبي ينتفض في صدري، وقد بدا لي أنّ الفتاة التي كنت أسعى إليها لن تعود للظهور فوق الأرض من جديد.

بعد مرورِ ساعات خطر لي أن الفتاة الصغيرة التي كنت أسأتُ إليها أيّما إساءة ربما تجلس خلف نوافذ "إليزيبيرغفي" ترصدُ خلسةً طالباً شاباً وهو يهرول يئساً في كل الاتجاهات، مثل بطلٍ حائر في لعبة فيديو يسعى عبثاً خلف أميرة ولا يعثر لها على أثر. لم يكن يعوز ذلك البطلَ الإصرارُ لكنه كان عاجزاً كل العجز عن العثور على أي أثر من آثار تلك الأميرة. فما أشبه حالي بحال بطل لعبة الفيديو ذاك!

في لحظة من اللحظات لمحتُ فجأة قشرةَ برتقال طازجة في إحدى سلات النفايات، فأمسكتُ بها وشممتُها، لكنْ حتى وإن مرّت فتاة البرتقال من هنا حقاً فليستْ تلك القشرة سوى آخر أثرٍ من آثارها الباقية.

وما لبثتُ خلال بقية السهرة أفكر في فتاة المِمطر البرتقالي. لقد عشتُ في أوسلو حياتي بأسرها ولكني لا أذكرُ أنْ رأيتُها قط. كنتُ على يقين من ذلك. لذلك كنتُ مصرّا كل الإصرار على أن أبذل قصارى جهدي كي أراها ثانية. فكأنها بفعل سِحْر ساحرٍ قد نجحتْ في أن تقفَ ما بيني وما بين بقية العالم.

ورحتُ أفكر وأفكر في كل تلك البرتقالات. ماذا كانت تنوي أن تفعل بها؟ هل كانت ترغب في تقشيرها وأكلها حبةً تلو الأخرى، وقطعةً بعد قطعة، عند الفطور مثلا أو عند الغداء؟ كم يحزنني أن أحتملَ منها ذلك! فلعلها كانت مريضةً أو خاضعة لِحِمْيّةٍ خاصة. وأقلقتني هذه الفكرة أيضاً وانشغلتُ بها.

لكن الاحتمالات كانت كثيرة. فلعلها كانت أيضاً ستُعِدُّ طَبَقاً من

المُحلّيات بالبرتقال لحفلٍ من مائة مدعوّ. وما لبثت هذه الفكرة أن أجّجت نارَ غيرتي. لماذا لم توجَّه لي الدعوةُ لهذا الحفل أنا أيضاً؟ وتصوّرتُ، فضلا عن ذلك، أن توزيعَ الجنسين لن يكون عادلا في هذا الحفل. أكثر من تسعين شاباً مدْعُوًا مقابل ثماني صبايا فقط. وخيّل لي أني عرفتُ سبب هذا التميز. طَبَقُ المُحلّيات كان سيقدَّم بمناسبة حفل كبير تُحييه كلية الاقتصاد بمناسبة نهاية الفصل الدراسي، ففي هذه الكلية بالذات كان عدد الطلبة من الإناث شبهَ معدوم.

ورحتُ أجتهدُ في طرد هذه الفكرة من خاطري حين بدتْ لي غير معقولة، لكنني ما لبثتُ بعد تأمّل أن اعتبرتُ ذلك التميز فضيحةً حقيقية، لأن كلية الاقتصاد لم تضعْ نظاماً عادلا للتوزيع. وأخيراً لم يسعني أن أثق بمخيلتي. لعل فتاة البرتقال لم يكن في نيتها سوى أن تدخل في غرفتها الطلابية الضيقة وتشرع في عصر كميات من العصير لتحتفظ به في ثلاجتها، لأنها كانت حساسة للعصير الذي تعبّئه مصانعُ الحليب النرويجية، ذي القاعدة المركزّة الكاليفورنية الرخيصة.

ولم تبدُ لي أيٌّ من الفرضيّتين مقبولةً بأيّ حال، لا العصيرُ ولا طَبَق المُحليات. لكنّ فكرةً جديدة ما لبثتْ أن عبَرتْ خاطري فوجدتُها أكثر احتمالا وإقناعاً: لقد كانت فتاة البرتقال ترتدي مِمْطراً قديماً من النوع نفسه الذي كان روالد أموندسين يلبسه أثناء حملاته القطبية الشهيرة. لقد كنتُ دوماً أُتقِن تفسيرَ الرموز والإشارات، وهذا ما يُدْعَى في الطب تشخيصاً، ولذلك رأيتُ من غير المعقول أن يتجول أحدٌ في شوارع أوسلو دون أن يكون لهذا السلوك معنى، لاسيما وهو

يجرّ معه كيساً ورقياً كبيراً امتلأ برتقالا غزير العصارة.

وهكذا إذاً خلصتُ إلى نتيجةٍ: أنّ فتاةَ البرتقال كانت تفكّر في أن تعبُر غرينلاند تزلُّجاً، انطلاقاً من هاردبجرفيدا، وعلى أيّ حال فليس من الغباء شحنُ مركبةِ الجليد بثمانية أو عشرة كيلوغرامات من البرتقال، وإلا عرّضنا أنفسنا لداءِ الإسقربوط بسبب نقصِ الفيتامين ج في تلك الصحراء الجليدية.

ومرة أخرى وجدتني أستسلم لمخيلتي، ألم تكن كلمة المِمْطر من صميم كلمات الأسكيمو؟ من المؤكد أن الفتاة كانت تريد التوجه إلى غرينلاند. لكنْ، تُرى، كيف كانت ستتم تلك الرحلة إلى غرينلاند؟ لا شيء كان ينبِئ بأنّ الفتاة كانت ستشتري مؤونة إضافية من البرتقال، فقد كانت على وشك أن تنفجر شهيقاً عندما فقدتْ كل تلك الحمولة الكبيرة من البرتقال، بل لقد أحسستُ أنها من ذوي الحاجة.

وما أكثر ما طرحتُه على نفسي من احتمالات. كان عليّ أن أجمَع شتات عقلي حتى أتقبل ذلك، إذ لعل فتاةَ البرتقال كانت تعيش في أسرة كبيرة. أجل في أسرة كبيرة، ولِمَ لا؟

ومَنْ يدري فلعلها كانت أيضاً ممرضةً وتعيش بمفردها في غرفة صغيرة مقابل عيادة الصليب الأحمر؟ وربما كانت أيضاً من عائلة عاشقة للبرتقال. كم تمنيتُ أن أزور هذه العائلة يا بنيّ، إني أتصور أفرادَها حول الطاولة في إحدى شقق فروغنر الفخمة ذات الغرف الواسعة وقد زُيِّنت أسقفُها بالجصّ، وأن هذه العائلة تضمّ، بالإضافة إلى الأم والأب سبعة أطفال، حيث لفتاة البرتقال فيها أربعُ أخوات وأخوان اثنان، وقد

كانت هي بكرُ هذه المجموعة الأسرية والأخت الكبرى العطوفة الساهرة على راحة الجميع. فما أحوجها إلى هذه الصفات الحميدة من الآن فصاعداً! لأنّ أياماً كثيرة يمكن أن تمرّ قبل أن يتمكّن الصغار من حملِ البرتقال إلى المدرسة.

أو لعلها أيضاً – عبرتْ هذه الفكرةُ رأسي كسَهْمٍ من جليد – كانت هي نفسها أُمّاً في أسرة صغيرة لا تتكوّن إلا منها هيَ ومن زوجٍ متبجحٍ أنهى لتوّه دراسته في كلية الاقتصاد، ومن طفلة عمرُها أربعة أو خمسة شهور أفترضُ لسبب أو لآخر أنّ اسمها رانفيغ.

كان عليّ أن أفكّر في هذا أيضاً على سبيل الافتراض. لا حيلة لي في ذلك. ليس مؤكداً أن تلك التي رأيتها هي الأم وهي تدفع أمامها رضيعاً ملفوفاً بلحافٍ ورديّ اللون أمام محل السمك " فروغنر فيسكْ وَ فيلتْ". لعلها كانت فتاة البرتقال الجميلة نفسها. وجعلني هذا الاحتمال أتعذب أيّما عذاب، حتى إنْ كانت بعضُ البرتقالات تعود للفتاة الصغيرة ذات العينين السنجابيّتين. وما لبث العالم أن أصبح فجأة صغيراً جداً في عينيّ، وأصبحت كل الأشياء من حولي مفعمة بالدلالات والمعاني.

لقد كنتُ دائماً أستطيع جمع اثنين إلى اثنين، أو أقدر على ما نسميه نحن الأطباء بالتشخيص. بل لعلّي أستطيع أن أضيف هنا أنني أنا الذي شخصّتُ حالتي حين أدركتُ مرضي. إنّ ذلك ليملؤني ببعض الفخر. فقد اكتفيتُ بزيارة أحد الزملاء وأخبرته بما كنتُ أحسّ. بعد ذلك

أمسَكَ هو بزمام أمري، ثم...

طيّبْ .. طيّبْ يا جورج! هنا وجدتني مضطراً لأن أتوقف عن الكتابة قليلا.

قد ترى بعض الغرابة منّي أن أجد متعة في سرد ما حدث في عصر ذلك اليوم قبل سنوات عديدة. لكنني أذكر هذه الأحداث هنا كأنها قصةُ ممتعة أشبه بفيلم صامت. وكم يسعدني أن تحسّ بها أنت أيضاً! لكنْ تأكدْ يا جورج أن هذا لا يعني أني كنتُ مرهفَ الحسّ إلى هذا الحد في اللحظة التي كنتُ أكتبُ فيها إليك. فالحق أني عاجز كل العجز، أو بالأحرى بلا عزاءٍ، في أن أكون أصدقَ معك. لا أخفي عنك ذلك، لكن لا تشغل بالك بالأمر كثيراً. فلن تراني أبداً أبكي أمامك، فقد قررتُ ذلك، وأنا أعرف كيف أتمالك نفسي.

كانت أمّك قد عادت لتوها من العمل ولا أحد سوانا في الدار الآن. لكن في هذه اللحظة بالذات، وأنتَ جالس على الأرض ترسم بأقلامك الملونة، لن تجد سبيلا إلى مواساتي بأي حال. ومن يدري فلعلك تستطيع ذلك رغم كل شيء. وحينما ستقرأ بعد سنوات عديدة هذه الرسالة القادمة إليك من شخص كان أباكَ يوماً ربما سترسِل إليه فكرةً طيبة تواسيه بها. مجرّد التفكير في هذا الاحتمال يُعيد إليّ الطمأنينة وراحة البال.

إنه الزمن يا جورج! فهل تعرفُ مَا هو الزمن؟

تأملتُ صورة للسوبرنوفا ١٩٨٧ A. صور التقطها منظار هوبل العملاق، تقريباً في اللحظة التي أدرك فيها والدي أنه عليل.

كان من الطبيعي أن أشفق عليه، لكنني لم أكن على يقين تام بأنه سيضع على عاتقي ذلك القدر من حزنه العميق، ناهيك عن أنني لم أكن أملك لأبي أيّ حيلة. لقد عاش في زمنٍ غيرَ زماني وكان محكوماً عليّ أن أعيش حياتي الخاصة، إذ لو انهار الناس كلهم تحت وطأةِ رسالةٍ قادمةٍ من آبائهم وأجدادهم المتوفّين لما استطعنا أن نحيا حيواتنا.

أحسستُ ببعض الدموع تداعب عينيَّ. لم تكن دموعاً ناعمة إنْ صحّ لنا أنْ نتحدثَ عن دموعٍ ناعمة. فقد كانت من الدموع المرّة التي تظل حائرةً في الأعين فتبقى تحترق عند طرف المقلتين احتراقاً.

وقد جعلني ذلك أذكر تلك المرّات العديدة التي كنت أرافق فيها والدتي إلى المقبرة لكي نتفقّد ضريحَ والدي ونصلح ما فسد منه. فبعد أن قرأتُ هذه الفقرات الأخيرة قرّرت ألا أزوره في القبر من جديد. وعلى أي حال فلن أذهب إلى المقبرة بمفردي.. أبدًا!

ليس من الصعوبة بمكانٍ أن يكبر الإنسان بلا أب. فالأمر لا يصبح عسيرًا حقًا إلا عندما يشرعُ هذا الأبُ في الحديث من قبره. أليس خليقاً بهذا الأب أن يدع ابنه وشأنه. ألم يوحِ هو نفسُه أنه عاد مجدداً مثل الشبح؟

كانت يداي قد أضحتا نديَّتين. لكنني سأعود لا محالة لقراءة بقيّة رسالة والدي من جديد، فلعله فعل خيراً حين كتب رسالةً إلى

المستقبل، ولعل الأمرَ شرٌّ أيضاً. إنه لمن السابق لأوانه أن أبدي في الأمر رأياً.

وقد فكرت أنه ربما كان مختلّ العقل... غريباً، لاسيما وهو في سن التاسعة عشرة، في ذلك الخريف من نهاية السبعينات. لأنني أراه قد أفرط قليلا في اهتمامه بفتاة قطار فروغنر التي حملتْ كيساً من البرتقال في يدها. فكم من شباب وصبايا تبادلوا النظرات، فأيّ غرابة في ذلك؟ بل ظني أنهم قد فعلوا ذلك منذ أنْ وُجد آدم وحواء.

لماذا لم يكْتفِ أبي بالقول إنه وقع في حب تلك الفتاة؟ فلا شك أن الفتاة قد فهِمت ذلك حتى قبل أن يرتمي على برتقالاتها. ليتَه وقف عند هذا الحد. فلا شك أنه تحايل في دسّ يده حول خصرها. ومَنْ يدري فلعله شعر فجأة برغبة لاواعية في أن يرقص معها في القطار الكهربائي .. رقصةَ فالزٍ مالطية حقيقية.

عندما يقع الأطفال في الحب إما أن يتعاركوا وإما أن يجذب أحدُهم شعرَ الآخر، وربما يتقاذفون كرات الثلج. أتصور أن الأطفال في التاسعة عشرة كانوا أمكر من ذلك بكثير.

لكنني لم أكنْ قد قرأتُ من القصة إلا بدايتها. وعلى أي حال فلعل "فتاة البرتقال" غريبة بعض الشيء. مَنْ يدري؟ وإلا لما كان أبي كلّف نفسَه الحديثَ عنها. لقد كان مريضاً، وكان يعلم أنه قد يموت، لذلك لا بد أنّ ما سعى لكتابته كان في رأيه مهمّاً له، ولي أيضاً.

وانتهيتُ من شرب الكوكا، وعدتُ للقراءة من جديد.

هل سألتقي بفتاة البرتقال من جديد؟ لعلّي لن أراها أبداً، ربما كانت تسكن في موطنٍ آخر من البلاد، ولعلها لم تأتِ إلى أوسلو إلا في زيارة عابرة.

تعوّدتُ وأنا في المدينة كلما رأيتُ قطارَ فروغنر الكهربائي أن أتطلع من خلال كل نوافذه علني ألمحُ فتاةَ البرتقال من بين الركاب. كان ذلك يحدث كثيراً، لكنني لم أرها قط. كانت فروغنر قد أصبحتْ منذ ذلك الوقت مسرحاً لترهاتي عند كل غروب شمس، وكنت كلما تراءى أمام عينيّ شيء أصفر أو برتقالي اللون خطر لي أني سأراها حتماً. لكنْ إذا كان أملي كبيراً دوماً فقد كانت خيباتي في كل مرة أكبر.

ومرّتْ الأيام والأسابيع، وذات اثنين قصدتُ إلى مقهى كارل جوهان، ذلك الملتقى الذي كان يجمعنا أنا وزملائي. وما أن اجتزتُ عتبَة ذلك المقهى حتى وجدتني أتراجع نصفَ خطوة إلى الوراء. فقد كانت فتاةُ البرتقال هناك! لا أذكر أنني رأيتها من قبلُ في هذا المقهى، على الأقل أثناء تواجدي فيه، لكنها اليومَ تجلس في هذا المقهى وتتصفح كتاباً ملوّناً وتحتسي كوباً من الشاي. كأنّ يداً خفيةً قد جاءت بها إلى هذا المكان في انتظار قدومي إليه كي أفاجئها بالزيارة.

كانت تحمل المِمطر البالي نفسه، وأكثر من ذلك – انتبه إليّ الآن جيداً يا جورج، فقد لا تصدّق ما رأيتُه – فقد وضعتْ على ركبتيها، بينها وبين الطاولة، كيساً كبيراً من الورق مملوءً بالبرتقالات غزيرة العصارة.

وانتفضتُ انتفاضةً قوية حين رأيتها. وقد خيِّل لي وأنا أرى فتاة البرتقال بالمِمْطر نفسه ومعها الكيس ذاته على ركبتيها كأن الأمر أقرب إلى السراب. ومن ساعتها أضحتْ البرتقالات بيتَ القصيدِ في ما كنتُ أسعى لاكتشافه. أيُّ نوعٍ من البرتقال هذا الذي في كيسها؟ كانت تلك الشموس الذهبية تلمَع في ألقٍ ونضارةٍ مبهرة حتى رغبتُ في فرك عينيّ من فرط الدهشة. كانت صفراءَ مثل الذهب ولمعانِه، ولا تشبه أيًّا من البرتقال الذي كنت رأيته من قبل. بلْ لقد كنت أشعر أنه غزير العصارة حتى من غير تقشيره. لم يكن برتقالا عادياً، على الإطلاق.

وتسرّبتُ إلى داخل المحل وجلستُ إلى طاولة على بعد أربع أو خمس أمتار منها. وقبل أن يقرّ رأيي على أيِّ شيء رغبتُ في أن أظل جالساً بالقرب منها أنظر إليها وأتلذّذ بتلك الرؤية التي لم أجد لها تفسيراً.

لا أظن أنها رأتني، لكنها سرعان ما رفعتْ عينيها عن الكتاب لتواجها عينيّ مباشرة، فوجدتني متلبّساً لأنها فهمتْ أنني كنت أتطلع إليها منذ حين. ورمتني بابتسامة حارة، ابتسامة كانت، يا جورج، قادرةً على أن تُذيب العالَم بسحرها. ابتسامةٌ لو كان العالم رآها لاستمدّ منها قوةً يوقف بها كل حروب الدنيا وعداواتها. أو لعله كان أوقف تلك الحروب فترات طويلة.

لم يعد أمامي أيُّ اختيار، ورأيتني مضطراً للذهاب إليها. ومشيتُ نحوها في بطء وجلستُ في كرسي شاغرٍ في طاولتها. ولم ترَ في جلستي ما يثير استغرابها ولم يصدر منها ما يجعلني أوقن بأنها قد تعرّفتْ عليّ

بعد لقاء القطار الكهربائي الذي كان بيننا ذات يوم.

ومكثنا بضع لحظات لا ننطق بكلمة واحدة. فكأنها شاءت ألا نبدأ الحديث فوراً. وظلت تنظر في عينيّ طويلا، ربما دقيقة كاملة، ولكنني لم أغُضّ الطرفَ عنها هذه المرة. فقد رأيتُ حدقتيها ترتعشان كأن عينيها أرادتا أن تقولا لي: "هل تذكرني؟" أو: "ألستَ تذكرني؟"

كان يجب أن يقول أحدنا للآخر شيئاً، وما لبثتُ من فرط الارتباك الذي أصابني أن عدتُ إلى تلك الفترة التي قضيناها معاً مثل زوجين من السنجاب مشاغِبَيْن مُهتاجين في غابة صغيرة لا أحد فيها سوانا. كانت تهوى الاختفاء، وكنت أنا لا أجد بدّاً من أن أصعدَ وأهبط مسرعاً على طول الجذوع بحثاً عنها، ومن أن ألمحها تقفز من غصنها منطلقةً نحو شجرة أخرى. وهكذا أمضي وقتي في الرقص وراءها عبر الغابة، إلى أن خطر لي يوماً أن أختفي مثلها أنا أيضاً. وبذلك جاء دورُها في الدوران ورائي. وهكذا رأيتني على قمة شجرة، أو وسط الطحلب وراء جذعٍ قديمٍ، فأتلذّذ أنا برؤيتها وهي تبحث عنّي إلى أنْ نفِدَ صبرُها وأصابها شيءٌ من ضيق وأدركتُ أخيراً أنها لن تعثُر عليّ أبدا.

فجأة حدثَ شيءٌ أشبه بالخرافة، لا تقع أحداثُها في غابة أشجار البندق في زمن البدائيين، ولكن هنا والآن.. في داخل مقهى كارل جوهان الرائع.

كانت ذراعي تستند إلى الطاولة، وفجأة تسربتْ يدُها اليمنى إلى يدي. كانت قد وضعتْ كتابَها على البرتقالات وأحاطتْ كيسها

الكبير بذراعها اليسرى، وكأنها خشيتْ أن آخذه منها وألقي بـــه إلى الأرض.

فجأة صرتُ أقل خجلا، واكتفيتُ باستقبال الطاقة النضرة المتدفقـــة من أصابعها نحو أصابعي. وخيّل إليّ أن في نفسها شيئاً من قوّة خارقـة، وأحسستُ أنّ رباطاً مَا يربط بينها وبين ذلك البرتقال.

إنه لغزٌ محيّر. هكذا قلتُ لنفسي! وأي لغزٍ عجيب!

وأحسستُ بأنّني لن أظلّ صامتاً أكثر ممّا صمتُّ. كان لا مفرّ مـــن أن يقول أحدُنا شيئاً على الأقل. أخيانة، أم إخلال بالقواعد التي كانت فتاة البرتقال تمثلها؟ على أي حالٍ ظللنا ينظر الواحد منا في عيني الآخر إلى أن تجرأتُ وقلتُ لها: "يا لك من سنجاب!"

فابتسمت لي ابتسامةً خافتة وضمّتْ يدي في يدها مُصافحـــةً. ثم مـــا لبثتْ أن أطلقتْ يدي ووقفتْ في كبرياء وكيسُ البرتقال الكبير ما بـين ذراعيها، وانطلقتْ إلى الشارع. وفيما كانت ذاهبةً لمحـــتُ الدمـــعَ في عينيها.

وظللتُ بلا حراك مشلولا. لم أعد أجرؤ على الكلام. قبل لحظـــات فقط كانت فتاة البرتقال تجلس قبالتي وتمسك بيدي، وخيّـــل لي بـــأن القاعة كانت ما تزال تعبق برائحة البرتقال. لكنها لم تعد هنـــا. لـــولا كيسها الكبير لكانت حيّتني بيدها، لكنها كانت في حاجة لكلتا يديها لكي تضمّه ضماً. لم يكن يسعها أن تلوّح لي. ولكنّ الدمعَ كان يمـــلأ عينيها.

ولْمْ أسِرْ في أعقابها. فلو فعلتُ يا جورج لكنتُ هنا أخللتُ بالقواعد

أيضاً. لقد استغرقني الحدث، وغرقت في حالة من الخدر والفتور. كنت مشبعاً مفعماً، وقد شُفِي غليلي. لقد عشتُ لحظات من النشوة الغريبة ظللت أتغذى عليها شهوراً طويلة. وحسبتُ أنني لن أراها بعد ذلك اليوم. وهنا أيضاً كانت السلطة للأشياء القوية الغامضة.

كانت تلك الفتاة غريبة، قادمةً من أسطورة أروع من أسطورتنا. لقد نجحتْ في أن تدخل إلى واقعنا، ربما في إطار مهمّةٍ ضرورية جاءت لتنفّذها، أو لعلها جاءت لتنقذنا مما يدعوه بعضهم "رتابة الحياة اليومية". حتى الساعة كنتُ لا علم لي بهذه الاندفاعات الرَّسولية. كنتُ أتصور أنْ لا وجودَ إلا لوجودٍ واحد فريد، ولواقع واحدٍ وحيد، لكني أيقنتُ بأنّ في العالم نوعين من البشر: فتاةَ البرتقال، ونحن بني آدم... ليس إلا.

لكن، ما الذي جعل عينيها تغرقان في الدموع؟ لماذا كانت تبكي؟ أذكر أني قلتُ يوماً إنّ فتاة البرتقال ربما كانت تملك حساً تنبّئياً، وإلا لماذا لا تغزوها الدموع إلا حينما ترى رجلا غريباً عنها؟ ربما "رأت" أنّ قدَراً قاسياً سيصيبني يوماً.

من الغريب أن أكون قد فكرتُ في مثل ذلك الأمر في تلك الأيام. فحتى وإنْ كنتُ في العادة سريع الاستسلام لمخيلتي فإنني مع ذلك رجلٌ عقلاني.

عند هذه النقطة من القصة أرى ضرورةً في أن أُذكّرك بالأحداث تذكيراً سريعاً. وإني لأعدك بأن لا يتكرر مني هذا كثيراً.

حدث أن التقى رجلٌ شاب بامرأة شابة ذات يومٍ لقاءً عابراً،

بالنظرات في قطار فروغنر الكهربائي. لم يكن هذا الشاب وهذه الشابة طفلين صغيرين، ولكنهما لم يكونا ناضجين تماماً و لم يسبق لهما أن التقيا من قبل قط. بعد لحظات قصيرة أحسّ ذلك الشابُ أنّ الفتاة على وشك أن تفقد كيساً كبيراً مملوءً بالبرتقال، غزير العصارة. فتدخل لانقاذها فكانتِ النتيجةُ أن أفلت كلُّ البرتقال منها، فتألّم لذلك وتحسّر كثيراً. ووصفَتْه تلك الفتاة بالغباء، ثم تركتْ القطارَ في المحطة التالية بعد أن التمستْ منه برتقالةً واحدة ليس أكثر، وقد استجاب الشابُ لرغبتها في حركة بلهاء حائرة. ثم مرّت أسابيعُ التقيا بعدها في أحد المقاهي لقاءَ صدفة. وفي هذه المرة أيضاً كانت الفتاة تحمل كيساً ورقياً كبيراً امتلأ برتقالاً غزيراً وافراً.

وجلس الشاب إلى طاولتها وظل الاثنان لدقيقة كاملة ينظر كل منهما في عينيّ الآخر. وسرعان ما غاصتْ نظراتُ أحدِهما في نظرات الآخر خلال تلك الثواني الستين إلى حدود أعماق روحيهما تقريباً، حيث غرِق هُو في روحها وغرقتْ هي في روحه. ثم وضعتْ يدَها في يده وقال هو لها أنتِ سنجاب، ثم قامتْ الفتاة في حركة رشيقة وتسرّبتْ خارج المقهى وهي تحمل صرَّتَها الكبيرة بين ذراعيها، ولمح الشاب الدموعَ في عينيها.

وما بينهما لم تسقط سوى أربع عبارات: هي: "يا لك من شخص نبيه! هي: "هل تسمح لي ببرتقالة؟"، هو: "سامحيني، سامحيني!"، وهو أيضاً: " أنتِ سنجاب!"

أما بقية القصة فهي أشبه بفيلم صامت. البقية يا بني لغزُ محير!

هل أنتَ قادرٌ على فك هذا اللغز يا جورج؟ أنا لم أقدر على فكه، وذلك لأنني كنتُ جزءً من هذا اللغز حقاً.

كنتُ قد غرقتُ في هذه القصة مرتين متتاليتين تراءتْ فيهما فتاةُ البرتقال لأبي وهي تحمل كيساً كبيراً من البرتقال. ما أغرب هذه القصة! ثم ومن دون أن تقول كلمةً واحدة أمسكتْ بيده وأغرقتْ عينيها في عينيه قبل أن تقف فجأة وتنطلق مسرعةً في الشارع والدمعُ يملأ عينيها. سلوك غريب! بل سلوكٌ فذّ يستحقّ الذكر فعلا!
إلا إذا كان أبي قد وقع تحت وطأة التجليات!

يمكن أن تكون فتاة البرتقال ما ندعوه "وَهْماً". ما أكثر الذين ادّعوا أنهم رأوا "شبحاً" في "لوك نيس" Loch Ness، أو في "سيلجودسفنيت" Seljordsvannet مثلا. لا شيء يؤكد لنا أنهم كاذبون، لأنه من الممكن أنهم رأوا "وَهْماً". لو أن والدي بدأ يقصّ علينا فجأة أنّ فتاة البرتقال جاءت تدفع عربة جليد عملاقة تجرّها كلاب في اتجاه كارل جوهان، لما ساورني شك في أن حكاية فتاة البرتقال لم تكن سوى قصة من خيال والدي الذي كان في وقتٍ عابرٍ من حياته على وشك أن يفقد صوابه. وذاك بلا شك أمرٌ يمكن أن يحدث لأفضل الناس فينا، وهناك أدوية لعلاج مثل هذه الأعراض.
فسواء كانت فتاة البرتقال مجرد وَهْمٍ أو كائناً بشريًّا من لحمٍ ودمٍ، فإن المؤكد أنّ أبي قد أفرط في اهتمامه بها. لكنْ إذا افترضنا أنه

استطاع أن يقول لها شيئاً فإنني أقر بأنّ جملته: "أنتِ سنجابٌ" كانت ردّاً فظّاً منه حقّاً.

فلم يخْفِ والدي نفسُه أنه فوجىء وهو يتفوه بمثل هذا الوصف الحقير. تُرى، أيُّ شيطانٍ أوحى له بمثل ذلك القول بالتحديد؟ لا يا أبي العزيز! هذا لغزٌ لا حيلة لي في حلّه.

لا أحب أن أدعي بأنني شخصٌ يعرف أكثرَ مما يعرفه كل الناس. إني أوّل مَن يقر بأنْ ليس من البداهة في كل الأحوال أن يجد الإنسان ما يقوله لفتاة "لا حيلة له في مقاومة إغرائها" كما يقال.

في مقامٍ سابق قلتُ إنني أعزف على البيانو. لست عازفاً بارعاً، لكنني أستطيع أن أعزف بلا نشاز الحركةَ الأولى (Adagio sostenuto) من سوناتة "ضوء القمر" لبتهوفن. فحين أكون وحدي وأعزف الحركة الأولى من تلك السوناته أخالني أحياناً كأنني فوق القمر أمام بيانو كبير الحجم فأحسّني أعزف، فيما القمر والبيانو وأنا نسبح في المدار حول الكرة الأرضية. وأتصور أن التّوْليفات التي أعزفها يصل صداها إلى المجموعة الشمسية بأسرها، فإن لم تصلْ إلى بلوتون فإلى ساتورن على الأقل.

وقد شرعتُ قبل قليل في التدرّب أيضاً على الحركة الثانية من سوناتة "ضوء القمر") (Allegretto. ليستْ حركةً سهلة لكنني أشعر بمتعة حقيقية حين تكون أستاذتي هي التي تعزفها لي. إن ذلك يذكرني بدُمًى ميكانيكية صغيرة وهي تتحرك صعوداً ونزولا في سلم مركز تجاري.

وقررتُ أن أهمل الحركة الثالثة، لا لصعوبتها الجمّة، ولكن لأنني أجدها مخيفة للغاية. فالحركة الأولى حركة رائعة الجمال، ربما كانت قاتمة بعض الشيء، لكن الحركة الأخيرة (Presto agitato) تثير في نفسي الرعب فعلا. فلو كنت سافرتُ في مركبة فضائية وهبطتُ على كوكب آخر فيه كائنٌ مسكين آخر يعزف الحركة الثالثة من سوناتة "ضوء القمر" لكنتُ عدتُ دون تردّد من حيث أتيت. لكن لو كان ذلك الكائن عزف الحركةَ الأولى من تلك السوناتة لكنتُ مكثتُ في ذلك الكوكب بعض الوقت، ولكنت تجرأت على الذهاب إليه أستفسرُ منه أمرَ ذلك الكوكب الموسيقي الذي هبطتُ عليه.

ذات يوم قلتُ لأستاذتي في البيانو أن بتهوفن كان يحمل في أعماقه كثيراً من السماوات وكثيراً من الجحيم. وقد دهشتْ أستاذتي لذلك أيما اندهاش، وقالت لي أني فهمتُ كل شيء عن بتهوفن. ثم قصّت عليّ حكايةً غاية في الأهمية. فليس بيتهوفن نفسه هو الذي اختار عنوان سوناتة "ضوء القمر". فقد سماها سوناتة Sonate in ciss moll, Opus 27, Nr. 2، تحت عنوان شامل sonata quasi una fantasia وهو ما يعني "فانتازيا تقريبًا". فقد كانت أستاذتي تقدّر أن تلك السوناتة قاتمة جداً، ولذلك فهي غير جديرة بأن تسمى "ضوء القمر". وقد أضافت في هذا الشأن أن الملحن الهنغاري "فرانز لِيسْت" قد وصف الحركة الثانية بـ "زهرةٌ ما بين هاويتين". أما أنا شخصياً فكنتُ سأسميها "مسرح عرائس سعيدة ما بين مأساتين".

قبل قليلٍ كتبتُ بأنني لم أجد صعوبةً في إدراك ما نلاقيه من عسرٍ في إيجاد ما نقوله لفتاة "لا نستطيع مقاومة إغرائها" . فقد حان الوقت لأن أقرّ بذلك. لأنه فيما يتعلق بهذا النوع من الأسئلة فقد كانت لي تجربتي الخاصة في معهد الموسيقى.

كل يوم اثنين يحِين موعدي مع درسٍ في البيانو ما بين السادسة والسابعة مساء. في الموعد نفسه تلتقي إحدى الفتياتُ بحصتها مع آلة الكمان. إنها تصغرني سنّاً بنحو سنةٍ أو سنتين. ولا بدّ من أن أقرّ بأنني تأثرتُ بجمالها أيما تأثر. ليس من النادر أن نقضي معاً خمس دقائق أو ستة، في قاعة الانتظار قبل بداية الدروس. لم نتبادل الحوارَ من قبل قط إلى أن سألتني قبل أسابيع قليلة عن الساعة، وقد تكررتْ القصة نفسها في الأسبوع الماضي. فقلتُ لها إنّ المطر غزيرٌ وإنّ حقيبة كمانِها قد تبللت. لم نذهب أبعدَ من ذلك، وهذا ما حدث بالفعل. ولما كانت لا تحبذ الدخولَ في حوارات حقيقية فلم أجرؤ أنا أيضاً على الدخول في حوار معها.

لعلها تعتقد بأنني مجرد قملة تافهة. ولكن يمكن أن نتصور أنها تحبني أيضاً، وأنها خجولة مثلي تماماً. ليس عندي أدنى فكرةٍ عن مكان سكناها ولكنني أعلم بأنّ اسمها إيزابيلا. لقد عرفتُ ذلك من قائمة الطلبه في حصة الكمان.

صرنا نصِل قبل موعد درس الموسيقى بكثير. في يوم الاثنين الماضي أمضينا نحو ربع ساعة كاملة في الانتظار. لكننا نكتفي في كل مرة بالبقاء جالسيْن معاً، صامتيْن مثل سمك الشبوط. ثم يتجه كل واحد منا

إلى قاعته ليعزف أمام أستاذه. وسرعان ما تخيلتها تقتحم قاعة البيانو فجأة وتراني أعزف سوناتة "ضوء القمر"، فتتأثر أيما تأثر وتتحمس لمرافقتي موسيقيا على الكمان. لن يحدث هذا أبدا. إنه مجرد وهم. ومصدر ذلك الوهم على الأرجح أنني لم أر آلتها يوما ولم أسمعها تعزف عليها قط. بل وأكاد أجزم بأنها لا تحمل في حقيبة كمانها سوى شبابة عادية! (وإن كان ذاك حالها، فلن يعود اسمها ايزابيلا بل كاري).

كان همي أن أعرف كيف أتصرف معها لو أنها أمسكت بيدي فجأة وأغرقت عينيها في عيني. ولا أعلم أي سلوك كنت سأسلكه لو أنها انفجرت بكاء. وأقول لنفسي لست تصغر والدك إلا بأربعة أعوام حين التقى بفتاة البرتقال، فأفهم وأقدر أن وقع اللقاء عليه كان كالصدمة "أنت سنجاب". هكذا قال لها.

على أي حال أخالني قد فهمت أبي العزيز حق الفهم. هيا واصل حكايتك!

بعد ذلك اللقاء العابر الذي جمعنا بالمقهى بدأت المرحلة المنهجية المنطقية من البحث عن فتاة البرتقال مرة أخرى، ومرت الأيام دون أن أعثر لها على أثر.

لست أرى يا جورج أي داع لأن أجرك معي إلى متاهات البحث عن تلك الفتاة ومواراباته، فلسوف يكون الوصف طويلا جدا. فبينما

كنتُ تائهاً في فرضيات ذلك التحري وتحليلاته إذا بالتأمل يقودني نحـو ملاحظة لم تخطر لي من قبل على بال، حيث أدركتُ أنّ المرتين اللتـين رأيتُ فيهما فتاة البرتقال كانتا يومَ اثنين! عجباً! كيف فاتني ألا أتنبّـه للأمر من قبل؟ ثم البرتقال أيضاً، الأثر الحقيقـي الوحيـد الـذي في حوزتي. فمن أين جاءت تلك البرتقالات؟ أتصورُ أن بِقالات فروغـنر تبيع البرتقال، بالتأكيد، ولكنْ إلى أيّ حد هو طيب المـذاق وغزيـر العصارة - ورخيص الثمن أيضاً - ؟ وخلصتُ إلى فكـرة: أن هـذا البرتقال إذا كنا متشدّدين في اقتنائه، علينا أن نبتاعه من سوق كبـيرة للفواكه، كسوق يونجستورغيت مثلا التي كانت في تلك الفترة سـوقاً كبيرة للفواكه والخضر في أوسلو، ولاسيما إذا كنا نستهلك كميـات كبيرة منه في اليوم الواحد. بعد خروجنا من تلك السوق نركب القطار الكهربائي نحو فروغنر انطلاقاً من ستورغاتا لأننا لسنا ميسوري الحال، بحيث نقفز بلا تردد إلى سيارة أجرة. لكن كان هناك شيء آخر مـهم وهو كيس الورق البني! في العادة يستعمل البقالون العاديون أكياساً من البلاستيك. لكن أليست سوق يونجستورغيت تحديداً هي التي تُعبّأ فيـها كلّ البضائع في تلك الأكياس الكبيرة الورقية كذلك الذي حملته فتـاة البرتقال؟

لم تكن تلك سوى فرضية من بين فرضيات عديدة. لكنني علـى أي حال عدتُ إلى يونجستورغيت ثلاث مرات متتالية أيام الاثنين لشـراء بعض الفاكهة والخضار. مهما كان الأمر فلم يكن مـن المشـؤوم أن يحسّن الطالب نظامه الغذائي، فقد صار بي ميل هذه الأيام للافـراط في

أكل كثير من النقانق المشوية مع سلَطة الجمبري.

لا داعي يا جورج لأن أصف لك جموعَ النـــاس المتدفقــة علــى يونجستورغيت، بل حسبك أن تفعل مثلي. وهو أن تسعى لكي تـــرى فتاة تحمل ممطراً برتقالي اللون تحاول أن تساوِم في سعر كيسٍ يحتـــوي عدة كيلوغرامات من البرتقال في أحد أجنحة السوق، أو تحـــاول أن ترى هذه الفتاة الشابة نفسها وهي تتأهب لمغادرة السوق وقد حملـــتْ ما بين ذراعيها كيساً كبيراً. ولا شأن لك بالباقي، عفوًا أقصدُ الـــزوار الآخرين.

لكن قلْ لي: "هل تراها يا جورج؟"

أما أنا فقد أصبتُ بالخيبة في المرة الأولى وفي الثانية أيضاً. لكـــن في يوم الاثنين الثالث لمحتُ شبحاً برتقاليا عند أحد أطراف الساحة! أجـــل رأيته! بالتأكيد! الذي رأيته فتاة شابة ترتدي ممطراً قديماً، ولكنـــها لم تقف أمام أحد أجنحة الفواكه تحديداً لتملأ كيساً ورقياً كبيراً مملـــوءً بالبرتقال كما تصورتُ.

وعبرْتُ السوق مسرعاً ووقفتُ خلفها على مسافة بضعة أمتار. هنـــا إذاً كانت تشتري برتقالها! كان الأمر وكأنني أمْسَكْتُها متلبسةً بجريمـــة. وبدأتْ رجلاي ترتخيان وتترنّحان وخشيت من الانهيار.

لم تكن فتاةُ البرتقال قد أكملتْ تعبئة كيسها، لأن طريقتها في الاقتنـــاء اختلفتْ عن طريقة سائر الزبائن في الاختيار كل الاختلاف. وظللـــتُ طويلا أدرسُ كيف تمسك بالبرتقال حبّة حبّة، وكيف تمعِن في فحـــصِ

كل واحدة منها قبل أن تضع البرتقالة في الكيس، أو تُعيدها إلى الكومة الكبيرة التي جاءت منها. وأدركتُ السببَ في عزوفها عن شراء البرتقال من أي محلٍّ تجاري صغير من محلات فروغنر. فقد كانت هذه الفتاة الشابة تملك قدرة فائقة على اختيار برتقالاتها.

لم أتصور يوماً مثل هذا التشدد في اختيار البرتقال، وأيقنتُ أنّ هذه الفتاة لا تشتري هذا البرتقال من أجل العصير فقط. ولكنْ في أي غرض من الأغراض كانت تستعمله إذاً؟ هل هناك ما تقترحه يا جورج؟ هل فهمتَ سببَ تريثها ما يقارب الدقيقة مع كل برتقالة قبل أنْ تقرر إن كانت ستودِعها كيسَها الورقي أم لا؟

شخصياً لم أر سوى جواب واحد على ذلك: أنّ الفتاة مسؤولة عن المطابخ في روضة أطفالٍ كبرى يتناول كلّ صغيرٍ فيها برتقالةً عند وجبة الغداء. والحال أن الأطفال يملكون حسّاً مرهفاً للعدل. فمهمة فتاة البرتقال، إذاً، كانت السهر على أن تكون كل البرتقالات التي تشتريها متكافئةً الحجم والاستدارة واللون الناصع أيضاً. وكان عليها أيضاً أن تعدّها عدّاً.

ووجدتُ هذه الفكرةَ مقنعةً، بل وقد وسعني أن أحِس شيئاً من حسرة بأن يكون العديد من المعترضين وجدانياً يعملون في روضة الأطفال تلك. لكنني ما لبثت يا جورج أن لاحظت على بعدِ مترين أن الأمر على غير ما تصورتُ تماماً. حيث ليس من الصعب أن تدرك بأن الفتاة كانت تكلف نفسها إلى أقصى حدود التكليف حتى تختارَ برتقالات يختلفُ بعضُها عن الآخر حجماً وشكلا ولوناً على السواء.

ويمكنك أن تضيف لذلك أن في بعض هذه البرتقالات بقية من أوراقِ الشجر الذي كان يحملها.

ولكن ما لبثتْ فكرة التخلي عن أولئك المعترضين الوجدانيين المتطفلين أن أراحتني نفسياً، فاغتبطتُ لذلك كثيراً. لقد كانت فتاة البرتقال وستظل لغزاً محيراً.

ثم صار الكيس ممتلئاً، فدفعت الفتاة ثمنه واتجهت نحو ستورغاتا. وتبعتُها عن بعد، لأنني قررت ألا ألفت انتباهها إليّ قبل أن ننصهر من جديد على متن قطار فروغنر الكهربائي. لكن حول هذه النقطة الحاسمة تحديداً كانت فرضياتي خاطئة مع الأسف الشديد. في عشية ذلك اليوم لم تقطع كل المسافة حتى ستورغاتا حتى تركب القطار الكهربائي. فقبل ذلك المكان بقليل ركبت سيارة بيضاء من نوع تويوتا، وكان شخص ما يحتل مقعد القيادة، وكان ذلك السائق رجلا. ولم أر من اللائق أن أجري خلفها حتى ألحق بها. ولم أجد في نفسي رغبة لكي أحيي ذلك الرجل. وما هي إلا برهة حتى أقلعتْ السيارة ثم انحرفتْ في إحدى الزوايا واختفتْ.

ولك أن تأخذ مني هذه الملاحظة الإضافية يا جورج: في اللحظة التي صعدتْ فيها فتاةُ البرتقال داخل السيارة وكيسها الكبير في حضنها التفتتْ فجأة ناحيتي وحيّتني. هل وسِعها أن تتعرّف عليّ في شخص ذلك الشاب الذي رأته في قطار فروغنر الكهربائي أو مقهى كارل جوهان؟ لا سبيل لي لأن أؤكد لك ذلك على وجه اليقين. لكنّ يقيني

الوحيد أنها استقرتْ في تويوتا بيضاء مع رجل، وأنها مـــا لبثــت أن نظرتْ إليّ.

لكن مَن هو ذلك الرجل المحظوظ؟ لم يســـعني أن أقـــدّر عمــرَه بالتحديد. فلعله كان والدها أو لعله كان ...المهم أنني لم أعرفْ عنـــه شيئاً؟ هل كان من المعترضين الوجدانيين؟ لا! ليس في تويوتا بيضاء. أم أنه كان ذلك المهرج المتبجح والد طفلة الأربعة أعــوام الــتي تدعــى رانفيغ؟ ليس بالضرورة، لا شيء يوحي بذلك. من المحتمل جـــداً أن يكون رجل التويوتا هو الرجل الذي عبر غرينلاند مع فتـــاة البرتقـــال بالعربة الجليدية. هذا الرجل أحمل عنه فكرة منذ زمن طويل. ومن بـين شلالات الصور التي كانت تتتالى أمام عينيّ كنتُ أرى قِطع البرتقـــال وبلطات الجليد والمشرط وأعواد مركبة الجليد الإضافية وحقائب لـوازم النوم والموقد والحساء. وأرى الخيمة التي يناماں فيها، كانت صفـــراء اللون، وخيّل لي أن المركبة الجليدية كانت تجرها ثمانية كلاب.

آه، كل هذه الأشياء كنت أتخيلها دون عناء! ليتأكدا أنهمـــا لــن يستطيعا التخفي عنّي! كان الأمر أشبه ببكرة فيلم كـــامل يــدور في رأسي: زوجان فريدان من نوعهما يعْبران بعربـــة ثلجيـــة، صحـــراء غرينلاند الجليدية الشاسعة، أرى الزوجة رائعة الجمال مثل إلهة الثلـــج. بينما لا أراه جميلا على الإطلاق. فأنفه معقوف وعلى فاهه تكشـــيرةٌ مُرّة ونظراته مملوءة بنوايا سيئة كنوايا صدوع الثلج التي قد تقع فيـها في أي لحظة (هل سيساعدها على الخروج منـــها إن وقعـــتْ، أم أنـــه سيكتفي بالهروب وحدَه ليتغذى ببرتقالاتها هي وهو يعلم بأنه لن يراها

بعد ذلك قط؟). فُحولته فظة، وقوّته بدائية وبشعة. إنه يقتل الدببة البيضاء بالبساطة ذاتها التي ندهس بها بعوضة. ثم لا تستبعد أن يغتصبها ما بين كتل الجليد بعيداً عن أعين السلطات. فمن يراهما الآن؟ مَن كان يرقبهما عن كثب هناك؟ لا أحد يرقبهما غيري. كانت صورة تلك الرحلة تتضح عندي أكثر فأكثر. كنت أعرف بالتحديد اللوازم التي كانا يحملانها. قبل نهاية اليوم كنتُ قد أعطيتُ اسماً لكل كلب من تلك الكلاب الثمانية، وعند المساء كنت قد أعددتُ قائمة كاملة بالشحنات الضرورية. وقدرت أن العتادَ يزن في المجموع نحو مائتين وأربعين كيلوغراماً، بما في ذلك قنينة صغيرة من الشامبو وربع قنينة من الكحول قد يشربانه عند وصولهما إلى سيورابالوك أو إلى كاناغ.

وما لبثتْ أعصابي أن بدأت تسترخي عند طلوع صبيحة اليوم التالي. لا يُعقل أن نعبر غرينلاند بمركبة جليدية في عز كانون الأول. ففي هذا الشهر تتجه هذه الرحلات نحو أنترتيكا ولا نشتري البرتقال من سوق للفواكه في أوسلو. هذه المواد الضرورية يؤتى بها من التشيلي أو من إفريقيا الجنوبية. بلْ قل إنه ليس من المؤكد أننا نشتري ولو برتقالة واحدة. إن مَن يكون على عربةِ جليد في القطب الجنوبي يمتص قدراً من السعرات يومياً يغنيه عن فيتامينات البرتقال كلها. ناهيك عن أن البرتقال ثقيل الوزن. ثم كيف يمكن أن تقشر برتقالة جامدة وأنت تضع قفازتين غليظتين في يديك؟ لا تقِلُّ متاعبُ البرتقال كسند سائل عن متاعب جياد سكوت. وعلى أيّ حال السائل سائل: بضع قطرات من البترين وموقدٌ جيد كفيل بحل المشكلة. فالجليد والثلج، أي الماء،

هما العنصران الوحيدان اللذان نجدهما بكميات تفوق الحاجة في هـــذه الأصقاع. والحال أن البرتقالة تحتوي أكثر من ثمانين بالمائة من الماء.
فكرتُ: عزيزتي فتاة البرتقال، مَن أنت؟ و مِنْ أين أتيتِ؟ وأين أنـــت الآن؟

عادت أمي من جديد لبابي وسألتني : "كيف أنت الآن يا جورج؟"
"على ما يرام، لكنْ ألا كففتِ الآن عن إزعاجي؟"
ولبثت صامتة برهةً قبل أن تضيف: "لا أحب أن تغلق باب غرفتـــك بالمفتاح."
"وما فائدة المفتاح إذا كنا لا نستعمله من حين لآخر؟ هناك شيء اسمه احترام حرية الآخر."
أزعجها ذلك قليلا، أو قل إنني جرحتها، فقالت:
"هذه سخافة منك، يا جورج. ليس ثمة سبب يدعوك لإغلاق البـــاب دوننا."
"أمّاه، عمري خمسة عشر عاماً، وأنا لست سخيفاً."
فتنهدتْ بعمقٍ. ثم خيّم صمتٌ كامل.
بالطبع لم أقل لها أيّ شيء عن فتاة البرتقال. فقد كنـــتُ أستشـــعر بقوة أنّ كلّ ما قاله لي والدي في شأنها لم يُطلِع عليه والدتي. ولو كـــان العكس صحيحاً لكانت حدثتني به، ولكان أبي وفر على نفسه كـــل لحظاته الأخيرة على الأرض حتى يكتبَ لي هذه الرسالة الطويلة. فلعلـه خبِر في حياته تجربةً من التجارب فأراد الآن أن ينتهز الفرصـــة حـــتى

يحذر ابنَه من الوقوع في مثلها. ألم يقل إنّ له سؤالا مهماً يريد أن يوجّهه إليّ؟

حتى هذه اللحظة كان سؤالُه الوحيد الذي طرحه عليّ هو سؤاله عن حال المنظار هوبل. آهٍ لو كان يعرفُ كم كنتُ أستطيع أنْ أفيدَه في هذا الشأن!

أهم ما انفرد به هذا البحث "المكتوب" أن الأستاذ أرغمني على قراءته على الطلبة. وقد أريْتهم الصورَ أيضاً. كان ذلك عن حسن نية، لكن في الاستراحة التالية ما لبث بعض الفتيات أن لقّبنني بـِ "أينشتاين الصغير". وتشاء الصدفة أن تأتي هذه التعليقات من الصبايا الأكثر تحمّساً في تجريب كحل العيون وأحمر الشفتين.

لستُ معترضاً على كحل العيون وأحمر الشفاه. لكن المسألة أننا نعيش على كوكب في الفضاء. التفكير في هذا الأمر أشبه بالجنون. بل ومن الخَبَل التفكير بوجود فضاء على الإطلاق. لكن بعض الصبايا غير قادرات على أن يظهرن في هذا الكون شيئاً آخر غير "كحل الجفون"، ومِن المؤكد أن من الشباب مَن لا يرى في الأفق سوى كرة قدم. شتان ما بين مِرآة الماكياج الصغيرة ومنظارٍ يحمل مرآةً حقيقية! أعتقد أن ذلك هو ما يدعى بـ "انزلاق الأبعاد". وربما استطعنا أن نتحدث أيضاً عن "إدراك حدسي". لم يفتِ الوقتُ بعدُ لكي نحصل على إدراك حدسي. لكن ما أكثر الذين يقضون حياتهم بأسرها دون أن يدركوا أنهم يحلقون في فراغ الفضاء.

ليس لنا انتماءٌ لغير هذا الكوكب. وليس لحديثي نية التشكيك في

ذلك. نحن جزء من حياة الطبيعة على هذا الكوكب. هنا تعلّمنا من القردة ومن الزواحف كيف ننجب ونتكاثر، ولا اعتراض عندي على ذلك. لو كنا في طبيعة مختلفة لكانت أمورنا فيها مختلفة حتماً، لكننا هنا وليس هناك. وأعيد وأقول: لستُ ناكراً، لكنني أريد التأكيد أن لا شيء من ذلك يمنعنا من أن ننظر أبعد قليلا من أنوفنا.

"تليسكوب" يعني شيئاً أقرب في المعنى إلى النظر نحو ما هو بعيد جداً. لكنّ هل لهذه القصة التي تقطع الأنفاس "قصة فتاة البرتقال" صلة من الصلات مع المنظار المداري؟

من البديهي أنّ تنصيب منظارٍ في الفضاء لا يفي بهدف التقرّب أكثر من النجوم ومن الكواكب موضع المشاهدة. فالعملية في هذه الحالة لا تقل حماقةً عن الارتفاع على رأس القدمين للتطلّع إلى فوهات براكين القمر. ليس للمنظار من فوائد يقدّمها لنا سوى دراسة الفضاء انطلاقاً من نقطةٍ تقع خارج الغلاف الجوي المحيط بالأرض.

يعتقد الكثير بأن النجوم تسطع في السماء وهي ليست كذلك بأي حال. إن اختلال الغلاف الجوي هو الذي يعطينا ذلك الانطباع مثلما توحي لنا صفحة ماءٍ غير مسطحة أن حجارة البِركة تتأرجح وترتد. ويمكننا أن نأخذ الصورة المعاكسة: فمِن قاع المسبح لا نستطيع أن نحدّد بوضوحٍ ما الذي يتحرك على حافة الحوض.

لا يتوفر على الأرض منظارٌ واحد قادر على إنتاج صورٍ عن الفضاء غاية في الدقة والوضوح. فمنظار هوبل الفضائي هو القادر الوحيد على

ذلك فعلا. ولذلك فهو يستطيع أن يزوّدنا بمعلومات لا حصر لها عن ذلك الفضاء، متفوقاً على مناظير الأرض كلها مجتمعة.

هناك من الناس من يعاني قصر النظر، بحيث لا يميز ما بين حصان وبقرة، أو إنْ شئتَ ما بين فرس النهر وحمار وحشي. فهم في حاجة لنظارات لكي ينظروا جيداً.

في مقام سابق كتبتُ أن العلماء سرعان ما اكتشفوا في المرآة الرئيسية للمنظار هوبل عطباً خطيراً في جهاز التجنيب، وبأن طاقم انديفاوار قد أصلح العيبَ في شهر كانون أول من العام ١٩٩٣. فالواقع أنه لم يمسَّ المرآة بل وضع فيها نظارات ليس إلا. هذه النظارات تتكون من عشر مرايا صغيرة وتُدعى كوستار COSTAR أو
Corrective Optics Space Telescope Axial Replacement
لكن لا. لم أكن قد فهمت بعدُ أيَّ علاقة للمنظار المداري بـ "فتاة البرتقال". لكني فهمتُ تلك العلاقة الآن، في "اللحظة التي أكتب فيها" وذلك فقط لأنني انتهيتُ منذ وقت طويل من قراءة الرسالة الطويلة التي كتبها لي والدي خلال الأسابيع التي سبقت وفاته. وقد قرأتها أربع مرات، لكنني بالتأكيد لن أكشف منها شيئاً لقرائها الجدد.

هيا! احِك أيها الأب! احِك القصة للذين يقرأون هذا الكتاب الآن.

في المرة التالية التي رأيتُ فيها فتاة البرتقال كانت ليلة عيد الميلاد. وفي هذه المرة كلّمتها حقاً. أو بالأحرى قل إننا تبادلنا بعض الحديث.

كنت حينئذ أسكن شقة صغيرة في أدمستوين مع طالب يدعى غونار. لكني أردت أن أقضي ليلة عيد الميلاد مع العائلة في هومليفاي.

لم يكن هناك سوى أمي وأبي وأخي، أي العم اينار. إينار أصغر مني بأربع سنوات وكان في تلك الأيام في سنته الدراسية الأخيرة بالمرحلة المتوسطة. كان ذلك قبل أن ترحل جدتي وجدي إلى تونسبورغ بكثير.

كدتُ أعدلُ عن رؤية فتاة البرتقال. كانت تراودني أسئلة كثيرة محيّرة، عن هُوية ذلك الشخص صاحب التويوتا البيضاء. ثم خطر لي فجأة أن أذهب للمرة الأولى على الأقل إلى موعظة ليلة عيد الميلاد قبل أن أتوجه إلى هومليفاي. كنت ما أزال ثملا نشْواناً بتلك الفتاة الغريبة حتى أنني تصورتُ أنها ستحضر هي الأخرى لقداس عيد الميلاد قبل أن تلتقي بالذين ستشاركهم سهرة الميلاد (مَن هم هؤلاء.. أجل مَن هؤلاء؟) وقلتُ لنفسي أرجح بأنني سألتقي بها في الكاتدرائية، أو بالأحرى أن عدم التقائي بها هو الأرجح.

وأعتقد أنه، احتياطاً واحتراساً، لا بدّ لي من توضيح أنه لا شيء متعلقاً بفتاة البرتقال مما رويته مُخترعٌ مني لأهداف روائية. إن الأشباح لا تكذب. فلن يكسبوا من وراء الكذب شيئاً. لكن صحيح أيضاً أنني لا أحكي كل شيء. تُرى من يجرؤ على المغامرة بمثل هذه التجربة التي لا طائل من ورائها؟

لا حاجة لي لأن أحصي كل المحاولات اليائسة في السعي للالتقاء بفتاة البرتقال ثانية. أيام وأسابيع عديدة كنت أمضيها في حي فروغنر أبحث عنها بحثاً دقيقاً، لكنني سأحجم عن الحديث عنها، وإلا لصارت القصة طويلة جداً ومفصّلة كثيراً. أربع مرات على الأقل في كل أسبوع كنت أتجوّل في حديقة فروغنر، وأكثر من مرة خيّل لي بأنني

لمحتها على الجسر الكبير أمام باركافي، أو هناك في القمة عند المسلة الحجريّة المنحوتة من صخر واحدٍ، ولكن في كل مرة لم تكن هي. بل وقد تماديت في البحث عنها بالذهاب إلى السينما علني أصادفها، فلا أشاهد الفيلم بالضرورة. وكنت أغادر القاعة أحياناً عند نهاية الإعلان، كلما فقدت الأمل في رؤية فتاة البرتقال. وأصبحت بارعاً في تحديد الأفلام التي كنت أتصور أنها مولعة بها، كان عنوان أحدها "منعطف الحياة"، وكان فيلم آخر وهو سويسري يحمل عنوان: "صانعة الدانتيلا". لكنْ لنكفَّ عن التطريز في هذا النوع من المشاهد.

ليس في هذه القصة يا جورج سوى خيط أحمر وحيد، وهي المرة التي التقيتُ فيها بفتاة البرتقال. ودعنا من المرات الكثيرة التي لم أرها فيها. لأن الحديث فيها لا يختلف عن شرح أوراق اليانصيب الخاسرة، هل حدث لك أن سمعت مثل هذه القصة؟ متى كانت آخر مرة تقرأ فيها صحيفة يومية أو أسبوعية تتحدث عن رجل لم يحوّله ورق اليانصيب إلى رجل غنيّ؟ الأمر نفسه يتكرر الآن تماماً. قصة فتاة البرتقال مثل قصة يانصيب عملاقة لا تظهر فيها سوى الأوراق الرابحة. تأملْ فقط أوراق اليانصيب التي تُملأ في أسبوع واحد. تخيلها في غرفة واحدة، ربما احتجت لذلك إلى ملعب رياضي كامل. ثم تأتي الحركة السحرية الرشيقة التي تُقصي كل الأوراق التي يقل الربح فيها عن مليون. الأوراق التي ستظل في الملعب الكبير يا جورج غير كثيرة. وتلك الأوراق وحدها هي التي تتحدث عنها الصحف!

نحن الآن، إذاً، نتعقبُ أثر فتاة البرتقال، فهي التي استقطبت عنايتنا،

وهي وحدها المعنية بالأمر في هذه القصة. كل ما تبقى نستطيع في هذه المرة أن نهمله، ونشطب كل أشخاص المدينة الآخرين، ونضع كل النساء الأخريات ما بين قوسين. ليس الأمر أصعب من ذلك!

لم أرها من قبلُ تدخل إلى الكاتدرائية، ولكنني ما لبثت أن لمحتها فجأة بينما كان عازف الأورغ يعزف مقدّمةً لِباخ. وأثلجني ذلك وأصابني بالحمّى في آن واحد.

كانت الفتاة على الجانب الآخر من جناح الكنيسة الرئيسي. لا يمكن أن تكون واحدة غيرها. عند إحدى لحظات القداس التفتتْ وألقتْ نظرة سريعة على الكورس الذي كان ينشد زبوراً من زوابير عيد الميلاد. أراها اليوم لا تحمل ممطرها البرتقالي ولا كيس البرتقال على ركبتيها. نحن في ليلة عيد الميلاد بالطبع وهي ترتدي معطفاً أسود اللون، أما شعرها فتجمّع عند مؤخّرة عنقها وقد شدّته بملقط شعر متين، وقد بدا ذلك الملقط من فضّة بل قل من فضة الأساطير الخالصة. تُرى هل الأقزام السبعة التي ما فتئت تنقذ حياة الثلجة البيضاء هي التي صنعت ذلك الملقط؟

لكنْ مَن ذا الذي يرافقها؟ إنني أرى رجلا يجلس إلى جانبها، لكنهما لم يميلا أحدهما على الآخر في أي لحظة خلال الموعظة. بل على عكس ذلك فما كاد القداس ينتهي حتى رأيتُ الرجل الجالس إلى يمين فتاة البرتقال يميل نحو امرأة أخرى إلى يمينه ويوشوش شيئاً في أذنها. إنني أذكر ذلك كما أذكر أي حركة جميلة. لأيِّ رجل بطبيعة الحال الحقُّ

في أن يميل على يمينه أو على يساره، كيفما طاب له، فالأمر مرهون به وحده، لكنّ هذا الرجل تحديداً التفتَ يميناً أو قل بالأحرى في الاتجاه السليم. يراودني إحساسٌ غريب أنّ مَن يقرر الاتجاه الذي ينبغي أن يلتفت إليه هذا الرجل هو أنا.

إلى يسار فتاة البرتقال جلستْ امرأة ممتلئة، ولا شيء يوحي أنهما تعرفان إحداهما الأخرى، لكن لعلهما التقيتا يوماً في يونغستورغيت، لأن هيئة هذه السيدة الكبيرة توحي بما لا يدع مجالا للشك بأنها من رواد الأسواق، ولعلهما وطدتا هذا التقليد الودود بالحضور معاً إلى قداس ليلة عيد الميلاد. ولِم لا يا جورج؟ ما الذي يمنعهما من ذلك؟ فلعل فتاة البرتقال أفضل زبونة عند امرأة الأسواق هذه، بل أفضل الزبائن حقاً. لذلك فهي تحصل منها على الخصم الملائم. سبعُ كورونات فقط للكيلو الواحد من البرتقال في المغرب، لكن فتاة البرتقال تحصل عليها بستة كورونات حتى وإن أنفقتْ ما يقرب من نصف ساعة في ملء كيسها من هذه التشكيلة المتناسقة من النماذج المختلفة .

لا أسمع ما يقوله القسّ لكنّني أرجّحُ أنه يتحدث عن مريم ويوسف والطفل يسوع أيضاً ؟ إنه يخاطب الأطفال، شيء لطيف! إنه يومهم على أي حال! لكنني أنتظر نهاية القداس. وها هو الوعظ ينتهي وينبعثُ ضجيجُ الكنيسة من المقاعد. عليّ أن أسعى بأي ثمن، لأن تخرج فتاة البرتقال قبلي. إنها تمرّ الآن أمام مقعدي. هل أحسّتْ

بوجودي؟ لكنها وحيدة. إنها أجمل مما صوّرتها مخيلتي، وكأنّ أشعة عيد الميلاد جميعها تكثفت في امرأةٍ واحدة!

ها! لا أحد غيري يعرف أن هذه المرأة الشابة هي فتاة البرتقال غزير العصارة التي لفّتها أسرارٌ أخّاذة. إني أعلم أنها قادمة من أسطورة أخرى لا تحكمها قوانين كالقوانين السائدة هنا. وأعلم كذلك بأنها جاءت لتتجسّس على واقعنا. ها هي الآن تقف في الكاتدرائية كأنها واحدة منا وتبتهج كما نبتهج بميلاد منقذنا. يا لها من لفتة طيبة من فتاة نبيلة شهمة.

تعقّبتُ خطاها خارج الكنيسة التي تريّثَ فيها بضعة أشخاص حتى يهنىء أحدهم الآخر بعيد الميلاد السعيد. وظلت عيناي معلقتين بملقط شعرها الفضي الساحر. لا وجودَ في العالم بأسره إلا لفتاة برتقالٍ واحدة. لأنها الوحيدة القادمة إلينا من الواقع الآخر. إنها تسير الآن في اتجاه غرنسين، ولا يفصلني عنها سوى بضعة أمتار تحت الثلج الذي بدأ الآن يسقط في شكل ندفٍ جامدة ترقص في الجو رقصاً، لكنني لا أراه إلا في البلّورات الرطبة التي استقرتْ على شعر فتاة البرتقال الداكن. قلتُ لنفسي: سيبتلّ شعرُها. آهٍ لو كنتُ أحضرتُ مظلتي أو حتى جريدةً أقي بها رأس هذه الفتاة الرائعة.

يا له من جنون! لا، إنني يقظٌ بما فيه الكفاية كي أدرك أن الأمر أشبه بالجنون فعلا. لكنها ليلةُ عيد الميلاد. فإذا كان زمن المعجزات قد ولّى فسيبقى لنا يومٌ سحري يمكن لكل شيء أن يحدث فيه. أجل كل شيء! في ذلك اليوم تهبط كل الملائكة خلسةً من السماء، وفي طرفة

عين تغزو فتياتُ البرتقال الشوارعَ والطرقات .

ولحِقتُ بها على مشارف أوفر سلوتسغيت وتجاوزتها خطوةً ثم التفتُّ إليها وقلت لها في جذل: "عيد ميلاد سعيدا"

هل أصيبتْ بالذهول، أم أنها تظاهرتْ بذلك ليس إلا؟ لا حيلة لنا في معرفة مثل هذه الأشياء. ثم ابتسمتْ ابتسامةً خافتة. لا شيء فيها يوحي بأنها جاسوسة، بل فتاة لن أتردّد في دفع أي شيء حتى أعرفها أكثر. ثم أجابتْ "عيد ميلاد سعيدا"

والآن أراها تبتسم لي ابتسامة عريضة لا تَكَلُّفَ فيها. ونُتابع المسيرَ معاً. لا أظن أنها ستترعج من أن أُسايرها. لستُ على يقين من ذلك. لكنني أخال أن الأمر قد طاب لها فعلا. ألمحُ الآن صفحةَ برتقالتين وقد تراءتا من تحت معطفها واعتدلتا حجماً واستدارة. وما لبثتْ رؤيةُ هذين البرتقالتين أن هيّجتْ أعصابي وملأتني خجلا. هكذا بدأتْ حساسيتي للأشكال المستديرة .

أحسستُ بالرغبة في أن أضيف شيئاً، وإلا لما بقي لي سوى أن أستأذنها بالانصراف متحجّجاً بأني على عجل. لكنْ لِمَ العجلة وأنا أملك من الوقت ما لم أملك مثله يوماً؟ فقد صرتُ مصدراً للزمن بعد أن فشلتُ دوماً في اتجاه كل الأزمنة. يذكرني هذا ببيتٍ للشاعر الدنمركي "بييتْ هاين" يقول: " مَن لا يعيش زمانه فلن يعيش في أي زمن. وأنت ماذا تفعلْ؟"

إنني أنعم بالحياة الآن وقد آن الأوان، لأنني لم أعشْ من قبل قط.

شيء في نفسي يبتهج ويهلّل، ومِن حيث لا أدري أفكر وأقول " أأنتِ إذاً، ألا تذهبين إلى غرينلاند؟ "

سؤال سخيف بالتأكيد. وترِفّ عيناها وتجيب "لستُ أسكن في غرينلاند".

وفجأة أذكر أن حيّاً من أحياء أوسلو يُدعى غرينلاند.

فأرتبكُ لجوابها أيما ارتباكٍ، لكنني أرى أن لا مخرج لي سوى الاستمرارِ في ذلك الاندفاع، فقلتُ لها:

"أقصد صحراء غرينلاند الجليدية، على مركبة جليد تجرّها ثمانية كلاب وتحمل على متنها عشرة كيلوغرامات من البرتقال".

هل ابتسمتْ لذلك أم لم تبتسم؟

في هذه اللحظة فقط أدركتُ بأنها ربما لا تتذكرني بعد تلك الرحلة في قطار فروغنر الكهربائي. وشعرتُ بالخيبة وأحسستُ كأنني فقدتُ توازني. لكنني ما لبثتُ أن أحسستُ أن في الأمر بعضَ العزاء. ألم يمر شهرٌ كامل ونصفُ شهر على ذلك اليوم الذي قلَبْتُ فيه كيسَ البرتقال الكبير ؟ ناهيك عن أننا لم نلتقِ من قبله قط. ثم لا تنسَ أن تلك المسرحية لم تدمْ إلا ثوانٍ معدودة.

لكنها تذكر على الأقل لقاءنا بمقهى كارل جوهان. أم أنها تقضي وقتها في ذلك المقهى الذي لا تتوقف فيه عن مسك أيادي الغرباء؟ كم تزعجني هذه الفكرة التي تجعلها موضعَ شُبهة. حتى فتاة البرتقال الحقيقية ينبغي أن تتفادى توزيع الكثير من البركات من حولها.

وردّدتْ قائلة: "برتقال؟" وابتسمتْ ابتسامة حارةً أشبه بحرارة ريـــح الصحراء الجنوبية.

"أجل برتقال، وبالقدر الذي يكفي رحلةَ اثنين في مركبة جليد، عـــبر غرينلاند".

وتوقفتْ فجأة. لست أدري إنْ كانت ترغـــب في مواصلـــة هـــذا الحديث. لستُ أعلم إنْ فهمتْ مني أنني قصدتُ دعوتها لمغامرةٍ تزلجيـــة عبر غرينلاند. ونظرتْ إليّ من جديد وطافتْ عيناها القاتمتان في عيـــنيّ وهي تسألني "أهو أنتَ، أليس كذلك؟"

فقلتُ لها أجلْ، رغم أنني لا أعرفُ على وجه اليقين ما الذي ســـألتني عنه، لأنه يستحيل أن أكون أنا وحدي من رآها تحمِل برتقـــالا مِـــلْءَ ذراعيها. لكنها ما لبثتْ أن أضافتْ وكأنها تذكرتْ شيئاً جديـــداً: " أنتَ الذي دفعتني في قطار فروغنر، أليس كذلك؟

و لم أجد بدّاً من الاعتراف. فقالت:

"يا لك من شخص نبيه!"

وأجبتها "والآن ها هو هذا الشخص النبيه يسعى لأن يعتـــذر منـــك بسبب البرتقال الذي أضاعه منك".

وضحكتْ عن طيب قلب، وكأن البرتقال هو آخر شيء تفكر فيـه. ثم أطرقت رأسها وهي تقول: "إنسَ هذا! كم كنتَ ظريفـــاً في ذلـــك اليوم!"

وهنا أستسمحُك يا جورج في أن أتوقف قليلا. أراني مضطراً مـــرة

أخرى لأن أطلب منك إنْ كنتَ تستطيع مساعدتي على فك هذا اللغز. فلعلك لاحظتَ في القصة شيئاً من خللٍ: حدّقتْ فيَّ فتاةُ البرتقال بعينين مليئتين بالتحدي أثناء تلك الرحلة المشؤومة في القطار الكهربائي حتى كادت تختلس مني نظري. كأنها اختارتني من بين كل ركاب القطار المكتظ، إنْ لمْ يكن من بين كل سكان الأرض. ثم إذَا بها بعد أسبوع واحد تسمح لي بالجلوس إلى طاولتها في تلك المقهى. وقد أمضتْ دقيقة كاملة تحدّق في عينيّ قبل أن تضع في يدي يدها التي انبعثتْ منها جرعةٌ سحرية من المشاعر اللذيذة. ثم بعد ذلك يجمعنا لقاءٌ لا يدوم سوى دقائق معدودة قبل أن يدُقَّ عيدُ الميلاد أجراسه. أَيُعقل أن تنساني فتاة البرتقال بعد كل هذا؟

ثم هل نسينا أنها قادمة من أسطورة غير أسطورتنا؟ من أسطورة تحكمها قواعدُ غير قواعدنا؟ هناك بالتأكيد واقعان متوازيان: واقعٌ مع الشمس والقمر، ثم الواقع الآخر أو بالأحرى واقع أسطورة الفتاة المغلقة التي بدأت فتاة البرتقال تفتح لنا أبوابها. ومع ذلك لم أجد أمامي يا جورج سوى احتمالين: من المؤكد أنها تعرّفت عليّ على إثر هذين المشهدين، وربما أيضاً في أعقاب يونغستورجيت، لكنها مع ذلك تدّعي أنها لا تتذكرني وتتظاهر بأنها نسيتني. هذا هو احتمالي الأول. أما الاحتمال الثاني فهو الذي أخشاه. ركّزْ معي. هذه الفتاة لا تتمتع بكامل عافيتها، إنها لا تنعم بكامل رشدها. إنها على أي حال تعاني من خلل في الذاكرة، بل قلْ لعلها عاجزةٌ عن تذكرِ أيّ شيء ما بين لحظة ولحظة. وذاك على الأرجح ما يعاني منه كل السناجب. يكفي

السنجابَ أن يكون في العالم، تارةً هنا وتارة هناك، لأن "من لا يعيش زمانه لن يعيش في أيّ زمان. وأنتَ ماذا تفعل؟" إنّ لعبة الحياة المضطربة لا مكان فيها للذكريات والتأمل. إنها تكفي نفسها بنفسها. هكذا كان العرف في الأسطورة التي انبعثتْ منها فتاة البرتقال. وتراني قد صرتُ أعرفُ الآن عنوان هذه الأسطورة: "تعال لتعيش في حلمي!"

لكن من ناحية أخرى عليّ يا جورج أنْ أواجه نفسي بالكيفية التي تحسّني بها فتاةُ البرتقال حقاً. فقد أمسكتُ يدَها أيضاً ونظرتُ في أعماق عينيها. لكنْ ما الذي فعلتُه حين عدنا من قُدّاس عيد الميلاد؟ قلتُ لها "عيد ميلاد سعيد" وهذا أمرٌ معقول، ولكنني لم أقل "لقد أمضيتُ معك وقتاً طيباً في ذاك اليوم". لا، بل وسألتها إنْ كانت في طريقها إلى غرينلاند، صحراء الجليد الغرينلاندي، أقصد بواسطة مركبة جليد تجرها ثمانية كلاب وعلى متنها عشرة كيلوغرامات من البرتقال. تُرى ما الذي تظنُّه بي فتاةُ البرتقال؟ لعلها تعتقد بأني أعاني انفصاماً في شخصيتي . الحاصل أننا كلانا كنا نتحدث في وقت واحد، حيث دخلنا في لعبة كرة معقدة وغنيّة بالقواعد. ورحنا نقذف ونقذف الكرات ولكنها لم تصبْ أي هدف من الأهداف.

وهنا يا جورج أطلّتْ علينا فجأة من إحدى منعطفات أكرسغاتا سيارةُ أجرة، فلوّحتْ فتاة البرتقال لها بيدها اليمنى، وتوقفت السيارة فأسرعتْ في اتجاهها.

وتذكرتُ سندريلا التي لم تَجِدْ بُدّاً من مغادرة حفلة الرقص في القصر على وجه السرعة، قبل أن يحين منتصفُ الليل، وحتى لا تنقطع

عنها فتنتها، وفكّرتُ في الأمير الذي ظل وحيداً في شرفة القصر حزيناً كئيباً.

لكن لماذا غاب عني أنّ ما حدث كان متوقعاً؟ من البديهي أن تعود فتاة البرتقال إلى حال سبيلها قبل أن يدقّ عيدُ الميلاد أجراسه. هذه هي عادة الأشياء. إن فتياتِ البرتقال لا يستدرن كثيراً حول أنفسهن بعد أن تدوّي أجراسُ أعياد الميلاد، وإلا ما جدوى أجراس أعياد الميلاد؟ أليست مهمة أجراس الكنائس وقاية الشباب من الوقوع في سحر إحدى فتيات البرتقال؟ كانت الساعة قد أدركتْ الخامسةَ إلا ربعاً. بعد برهةٍ سأجدني وحيداً في هذا الجزء من أُوفَرْ سلوتسغيت المغضوب عليه من الرب.

واستغرقتُ في تأملٍ سريع. لم يبق أمامي سوى ثانيةٍ لكي أتصرف أو أقول لفتاة البرتقال شيئاً رائعاً لن تنساني بعده أبداً.

هل أسألها أين تسكن؟ أم أعرف منها إنْ كان طريقنا في اتجاهٍ واحد؟ أم أبادر بإخراج مائة كورونة، ثمن كيلوغرامات البرتقال العشرة التي أضعتها منها، بما فيها ثلاثون كورونة تعويضاً عن الضرر المعنوي الذي اقترفتُه في حقها؟ لا أعلم إنْ كانت تحصل على برتقالها بسعر أقل، وحتى أهدّىء من فضولي يمكنني على الأقل أن أسألها عن سبب تخزينها لمثل هذا الكمّ من البرتقال. لا لأن تخزين البرتقال أمرٌ لافت أو غير عادي ولكن لماذا البرتقال بالذات؟ لماذا لا نخزّن التفاح أو الموز مثلاً؟

وفي بحر هذه الثانية الوحيدة التي بقيتْ لي فكرتُ مرة أخرى في

عبور الفتاة لغرينلاند على متن مركبة الجليد، وفي أسرتها الكبيرة، وفي فروغنر، وفي حفلة نهاية الفصل، وفي وفرة مُحلياتها من البرتقال، وفي الرضيع الصغير، الطفلة رانفيغ التي هي الآن في حضن ذلك الرجل القويّ البنية وقد صار لها بمثابة الأب، هذا الذي أنهى قبل أسابيع دراساته في كلية الاقتصاد، ناهيك عن أنه انتخِب قبل شهرٍ رئيساً لنادي"الأولاد الودودون". لا أظنني أملكُ القوّة لزيارة روضة الأطفال من جديد هذه المرة. فكل هؤلاء الأطفال يثيرون أعصابي.

لكنني لا أهتدي يا جورج إلى الكلمات اللائقة، إنها تتدافع في ذهني ولا أعرف أي كلمةٍ أختار منها. وما إن رأيتها تتأهب للصعود داخل السيارة حتى صرختُ فيها: "أعتقد أنني أحبك!"

كانت كلماتي صادقةً، لكن ليتَ لساني لم ينطق بحرف واحد منها .

وانطلقتْ سيارةُ الأجرة، لكنّ الفتاةَ ما لبثت أن غيّرت رأيها فعادت للرصيف متباطئة. وبدافع لطفِ إرادتها راحت يدُها تمسك بيدي - بقوةٍ كأننا لم نفعل على مدى خمس سنوات شيئاً آخر غير التماسك بالأيدي – وهزّت رأسها موحية أننا نستطيع استئناف المسير. ثمّ ما لبثت أن حدّقتْ في وقالت: "لو جاءت سيارة أجرة أخرى فقد أضطر لركوبها، هناك من ينتظرني!"

قلت لنفسي: " بالطبع إنه زوجها الفظ ورضيعها الفتان، أو أبوها وأمها، أبوها القسّ - فلعلّه هو الذي أشرف على ذلك القدّاس قبل قليل – وأربعةُ أخوات وأخوان اثنان، ثم ذلك الجرو الصغير الذي

يعيش معهم في الشقة بمثابة الأخ الصغير. فهو الذي يدعى بيتر الـــذي ألحتْ كثيراً حتى تحصل عليه. أم أن الـــذي ينتظرهـــا واحـــدٌ مـــن مستكشفي غرينلاند، جاف الطبع، غريب الأطوار، أراه وقد وضـــع تحت شجرة عيد الميلاد رزمةً محكمة الغلقِ احتوتْ قفـــازات وبـــزّات ونعال الجليـــــد وشـــحم النعـــال وقاموســـاً دنمركيـــاً / إنويـــت، وإنويت/دنمركياً. هذا المساء لن تذهب فتاة البرتقال بالطبع إلى حفلـــة نهاية الفصل، ولا هي تعمل أيضاً في روضة أطفال.

قلت لها "أجراسُ عيد الميلاد سَتَدُقُّ بعد قليل أليس كذلـــك؟ لـــن تستطيعي البقاءَ في المدينة بعد ذلك".

لم تقل شيئاً واكتفتْ بالشد على يدي في قوة وحنانٍ كأننا نسبح في الفضاء بعيداً عن جاذبية الأرض، وكأننا ارتوينا من لبن المجرات وصـــار الكون كله ملكاً لنا وحدنا.

تجاوزنا متحفَ التاريخ ووصلنا إلى حدائق القصر الملكـــــي، إنـــي أعرف أن سيارةَ أجرةٍ يمكن أن تطل علينا في أي لحظة. أعرف ذلـــك. وبعد قليل ستدق الكنائس أجراسها معلنةً بدءَ احتفالات أعياد الميلاد. وتوقفت ووقفت قبالتها وداعبتُ بلطفٍ شعرها المبلّل وتركتُ يـــدي تستقر فوق مؤخرة عنقها على ملقط شعرها الفضي.

ثم سألتها "متى سنلتقي؟"

وظلّتْ تنظر إلى الجادة المعبّدة قبل أن ترفع عينيها نحـــوي. ولمحـــتُ جفنيها يرقصان رقصة مضطربة، وخيل إليّ أن شفتيها ترتعشان وهـــي

تلقي إليّ بلغزٍ سأظل أتأمله طويلا. فقد سألتني "إلى متى تستطيع الانتظار؟"

ماذا عساي أجيب يا جورج؟ هل هي أُحبولة تريد فتاة البرتقال أن توقعني فيها؟ لو قلت لها " يومان أو ثلاثة " لأشعرتها بمدى تلهّفي إليها. ولو قلتُ لها "العمر كله" لاعتقدتْ أنني غير صادق في حبها. لذلك وجدتني أبحث عن مخرجٍ بين بين.

وأجبتها "أستطيع أن أنتظرك حتى يترفَ قلبي حزناً وكَمَداً!"

فابتسمتْ اِبتسامةً متردّدة، ثم مسحتْ بإصبعها على شفتيّ وهي تقول "وكم يستغرق ذلك؟"

وهززتُ رأسي مثبطَ الهمة واخترتُ أن أُصارحها الحقيقةَ غير ناقصةٍ "خمس دقائق ربما".

فاطمأنّت لما قلتُه لها، ولكنها ما لبثت أن أجابتْ في همسٍ: "والأجمل لك أن تتحمل الانتظار وقتاً أطول من ذلك قليلا!"

وجاء دوري في التماس الردّ منها "كمْ من وقتٍ تُرى؟"

"عليكَ أن تتحمل انتظاري ستة أشهر كاملة، فإنْ أبديتَ صبراً حقاً فسوف نلتقي حتماً!"

وخِلْتني أتصبّب عرقاً "لماذا كل هذه المدّة؟"

وتقطّب وجهُ فتاة البرتقال كأنها تهيأت لهجوم عنيف "لأنه الزمن الذي ينبغي أن تنتظره بالتحديد!"

ورأتِ الفتاةُ الخيبةَ تنقضّ عليَّ انقضاضاً، ولعل ذلك ما جعلها تضيف:

"لكنْ إذا صبرتَ وصابرت فسوف نقضي كل يوم من أيام الفصل القادم معاً".

ودقّتْ أجراسُ الكنائس ودوّتْ. وفي هذه اللحظة سحبتُ يدي من شعرها المبلّل وملقطِه الفضيّ. وفي اللحظة ذاتها أطلتْ سيارةُ أجرة من ويرجيلاندسفين. وكان ذلك متوقعاً.

وتطلعتْ إلى عينيّ كأنها تطلب شيئاً أو تلتمس مني عذراً، متضرعةً إلى ملكاتي وما أوتيتُ من عقل ومن قوّة. وامتلأتْ عيناها بالدموع من جديد ثم غمغمتْ "عيدُ ميلادٍ سعيد إذاً، يا جورج أولاف!"

ثم اندفعتْ نحو الشارع ونادتْ التاكسي من بعيد. ثم ركبت وهي تلوّح بيد مرحة. وما لبث الجوّ أن أصبح مشبعاً بروح القدر. فحين انطلقتْ السيارة، وقبل أن تختفي انتظرتُ التفاتتها، لكنها لم تفعل، فأدركتُ أنّ البكاء قد صدّها عن الالتفات صدّاً.

وأصبح حالي يا جورج لا يطاق، وأحسستني تحت الصدمة. لقد كسبتُ مليوناً في اليانصيب لكنّ الفرحة لم تستغرقني سوى دقائق محدودة. فقد ظهر خطأ في النشرة تعذر معه تسديد المكافأة ولو إلى حين.

تُرى مَن هي فتاة البرتقال فوق الطبيعية هذه؟ سؤالٌ طرحتُه على نفسي مراراً، لكنّ سؤالا جديداً آخر ما يزال يُلِحّ عليّ أيضاً: كيف تسنى لهذه الفتاة أن تعرف اسمي؟

وتواصل قرعُ الأجراس، أجراسِ الكاتدرائية وأجراس بقية كنائس

المدينة. إنها تُعْلِنُ بَدْءَ احتفالات أعياد ليلة الميلاد.

وخَلَتْ شوارع المدينة من روّادها، فلعلني لذلك صرتُ أصرخ وأصرخ ملءَ حنجرتي في هواء كانون الأول البارد، حتى صار صراخي أشبه بأغنيةٍ أردّد فيها: "كيف عرفتْ فتاة البرتقال اسمي؟" ثمّ سُرعان ما ألحّ عليّ سؤالٌ آخر جديد "لماذا الانتظار ستة شهور كاملة حتى نلتقي؟"

إني أملك الآن من الوقت ما يكفي لأن أفكر في المسألة مليّاً. فها هي الأيام تمرّ وتمرّ ولا تحمل في إجاباتها العديدة واحدةً تشفي غليلي. فأنا أملك من الدلائل التي أستمسك بها سوى بضعةِ أعراضٍ، فقد كنتُ في تلك الفترة بطلا في تفسير الرموز والإشارات، أي خبيراً في التشخيص، بل ربما توغّلت في ذلك أكثر مما كان يحق لي، لذلك أبدعتُ كثيراً من النظريات المتوازية.

أحياناً أخال فتاة البرتقال مصابة بمرض خطير. فلعل أحداً نصحها بأن تتّبع حِمْية صارمة قوامها البرتقال حتى تتعافى من ذلك الداء. ولعلها ستُخضِع نفسَها لعلاجٍ طبيّ قاسٍ في أميركا أو في سويسرا، لأن لا أحد عندنا يستطيع أن يقدّم لها شفاءً. أعلمُ على أي حال أن عينيها كانتا دوماً مليئتين بالدموع ولا سيما في كل مرّة تفارقني فيها. لكنها قالت أيضاً إننا سنلتقي في كل يوم من أيام باقي السنة، أي من تموزَ إلى كانون الأول. لا أملك بدايةً سوى أن أنتظر فتاة البرتقال ستة شهور، وبعدها سأكون إلى جانبها كل يوم من أيام الشهور القادمة. هذا التفاؤل يغمرني فرحاً. الحقيقة أن هذا العقد ليس بأي حال سيئاً، ومن

هنا لا أرى داعياً للشكوى. هذا يعني أننا سنلتقي كثيراً خلال السنة القادمة، مرة كل يومين. فذاك خير لنا مِن أن نلتقي كل يوم على مدى ستة شهور كاملة ثم لا يرى أحدنا الآخر بعد ذلك أبداَ.

كنتُ ساعتها قد شرعتُ لتوّي في دراساتي الطبية. من المعروف أن حماسةَ طلبة الطب لتفسير الإشارات ومَيْلهم – الذي لا يكاد يختلف عن مَيْلِ رجال التحري المتخصصين – لإجراء التشخيصات الطبية كثيراً ما يصيبهم بوسواس المرض إزاء أنفسهم وإزاء الآخرين أيضاً. كما أنه ليس من النادر أن يُصاب طلبة اللاهوت بوسواسِ الشكِ في عقيدتهم الدينية، أو أن يقف طلبة الحقوق موقف نقد وانتقادٍ تجاه حقوقِ بلادهم وقوانينها. وفي اندفاعٍ من الانضباط الذاتي الصارم سعيتُ إلى التخلص من فكرة مرض فتاة البرتقال وتهيّئها للعلاج في الخارج. فقد صار عندي أكثر من أثرٍ يمكنني اقتفاءه. فمهما بلغت فتلة البرتقال من مرض، ومهما فقدت من رشد فإن ذلك لا يبرّر بأي حال سرَّ معرفتها لاسمي. ثم هناك شيءٌ آخر: لماذا تشرع فتاة البرتقال بالبكاء كلما رأتني؟ هل صرتُ أنا مصدرَ حزنِها الذي لا ينتهي؟ يمكنني هنا أن أخوض في قصةٍ أطلقُ فيها العنانَ لكل ما جنح به خيالي خلال الأيام التي أعقبتْ أعياد الميلاد. يمكنني مثلا أن أضع بين يديكَ كل ما نسجته مخيلتي عن عائلة فروغنر الغنيّة، أو أنطلق في سردِ قائمة كاملة بكل الإجابات التي خطرتْ لي عن سبب تعذر اللقاء بفتاة البرتقال قبل ستة شهور. فمن هذه الأجوبة ومن أكثرها تميزًا أن فتاة البرتقال أطيب من أن يكون هذا العالم أهلاً لها بأيّ حالٍ، لذلك

سافرَتْ في سرّيةٍ إلى إفريقيا حتى تُهرّبَ الغذاءَ والأدوية لأكثر سكان القارة فقراً وعوزاً، ولا سيما في المناطق التي تلتهمها الملاريا وأمراضٌ خبيثة أخرى كثيرة. لكنّ هذه الإجابة لا تسعفني بأي حال في حل لغز البرتقال. لكنْ لِمَ لا ؟ فلعل فتاة البرتقال تحمل البرتقال إلى إفريقيا فعلا. كيف لم أفكر في هذا الأمر حقاً؟ بل لعلها أنفقتْ، في سبيل ذلك، كل ما تملك من مالٍ لاستئجار طائرة عملاقة!

لكنني أحب أن أذكرك يا جورج أننا اتفقنا على أننا لا نقتفي سوى الآثار الحقيقية التي تؤدي بنا إلى فتاة البرتقال. فلو كنتُ أردتُ أن أشاطرك كل الأفكار التي خطرتْ بشأنها لكنتُ أمضيتُ عاماً كاملا أمام الحاسوب، ولكنني لا أملك هذا الوقت، وهذا ببساطة كل ما في الأمر، وكم يؤلمني التفكير في ذلك!

لكنْ لماذا الإطالة والإستغراق في كل هذه التأملات؟ فإذا استثنينا المرات العديدة التي نظرتْ فيها فتاةُ البرتقال في عينيّ، والمرّتين اللتين أمسكتني فيهما من يدي، والمرّة التي داعب فيها إصبعُها شفتِي فلن يبقى لي، في حقيقة الأمر، سوى تلك الكلمات المحدودة التي تبادلناها. لذلك من المهم أن أرتّبَ ما جرى بيننا من حديث. وهكذا أعددتُ للتو قائمةً بالإجابات، بعد أن أغلقتُ أمام عقلي كل منافذ التفسير والتأويل.

وأنتَ يا جورج؟ هل تستطيع، أوّلا، أن تفسّر لي سببَ شرائها البرتقال؟ وثانياً أن تقول لي لماذا أغرقتْ نظرَها في نظري وأمسكتْ

بيدي في تلك المقهى و لم تنطق بكلمة واحدة؟ وثالثاً أن تجيب عن سبب فحصها الدقيق لكل برتقالة كانت تشتريها في يونغستورغيت وهي تحرص على ألا تتشابه فيها اثنتان. ورابعاً أن تكشف لي عن إشارةٍ واحدة ترشدني إلى السبب الذي يجعلنا لا نفكر في اللقاء من جديد إلا بعد مرور ستة شهور؟ وخامساً أن تفكّ لي أكبر الألغاز جميعاً وتقول لي كيف عرفتْ فتاة البرتقال اسمي؟

لو أفلحتَ في حل هذا اللغز الرمزي لاهتديت على الأرجح إلى سبيل الإجابة عن أكثر الأسئلة تعقيداً: مَن هي فتاة البرتقال؟ أهي واحدةٌ من كائناتنا؟ أم هي قادمة من حقيقة أخرى؟ أو ربما من عالم آخر قد تمضي فية ستة شهور قبل أن تعود إلينا لكي تقيم معنا من جديد.

إني لم أوفّق في تفسير الإشارات يا جورج. لمْ أنجح في التشخيص!

بعد ذهاب فتاة البرتقال بقليل أقبلتْ سيارةُ أجرة أخرى فناديتها من بعيد وعدتُ إلى الأهل في هومليفاي أحتفلُ معهم بعيد الميلاد المجيد.

في ذلك الشتاء لم يكن لـ إينار من ولعٍ فريد سوى ممارسة التزلّج الميداني على الجليد في تريفانسكليفا. لقد أحضرتُ له قُفازي تزلّج أنيقيْن، وسعِدتُ أيما سعادة حين فكَكْتُ بعد عشاء عيد الميلاد الطردَ الذي لفّهما. وقد اشتريتُ لقِطّه علبةَ عصيدة من النوع الفاخر. وتلقّتْ والدتي ديوانَ شعرٍ باللغة السويدية من تأليف مارتا تيكانين عنوانه "قصص حبّ العصر". أما والدي فقد اقتنيتُ له رواية جديدةً للكاتب

ايرلنغ غيلسفيك، تدور أحداثها في إسبانيا، كنت قرأتها من عهدٍ قريب ورأيتُ أنها قد ترُوقُ لأبي كما راقتْ لي. لكنّ هناك شيئاً آخر: كنتُ، في تلك الفترة، أمنّي نفسي بأن أكتب شيئاً يوماً، فلعل في ذلك سببَ اهتمامي بإهدائه هذا الكتاب من مؤلفٍ شابٌ مغمور.

في تلك الفترة كنتُ أنام في الغرفة الصغيرة الواقعة عند نهاية الصالون. أما اليوم فقد صارتْ غرفتَك، على الأقل في اللحظة التي أكتب فيها إليك، لأنني لا أعرف شيئاً عن اللحظة التي تقرأني فيها.

لن أقصّ عليك تفاصيل سهرة ليلة عيد الميلاد في تلك السنة، عملا بالخطوط العريضة التي رسمناها معاً، لكنني لا أخفيك فقط أن عينيّ لم تذقا طعم النوم طوال الليلة ... ليلة عيد الميلاد.

حتى تلك اللحظة لم أكن قرأتُ من رسالة والدي إلا نصفَها، ولكني أشعر الآن بالحاجة للذهاب إلى الحمّام. الخطأ خطئي على أي حال، بسبب ذلك الكمّ من الكوكا الذي شربته.

صه! قلتُ لنفسي. كان عليّ أن أعْبر الصالون ثم الغرفة الخلفية فمدخل البيت مع ما ينتظرني من أنظار فضولية ستصوَّب نحوي من كل النواحي. ذلك في ظني ما يسمى بـ "اجتياز القضبان" لكن لا حيلة لي في كل ذلك.

وفتحتُ البابَ وتركتُ النصَّ فوق سريري، وأغلقتُ الغرفة ودسستُ المفتاحَ في جيبي.

وأقبل الجميع نحوي، ولكني تظاهرت باللامبالاة أمام كل هذه الأنظار الحائرة.

فتحرت أمي:

"أأنهيت القراءة بهذه السرعة؟" وبدت كأنها استحالت إلى نقطة استفهام كبيرة. "ترى ما الذي قرأته إذا؟"

وأضاف جورجن:

" هل في القصة شيء من حزن؟" إنه دائما يسعى لأن يبدي نوعا من الإشفاق علي، لأنني يتيم الأب، حتى وإن سعى لأن يحل محله دوما. لكن في الوقت نفسه لا يمكن أن يشفق جورجن على أمي التي فقدت زوجها ويأخذ مكان هذا الزوج، ناهيك عن فراشه. ظني أن جورجن، في حقيقة أمره، كان سعيدا بموت والدي، وإلا لما تزوج بأمي، وإلا لما أنجب مريام أيضا، وما دام الأمر كذلك، لما كنت أنا له أيضا. في هذه الدنيا هناك شيء يقول: "مصائب قوم عند قوم فوائد!" فقد لمحته وقد تناول كأسا كبيرة من الويسكي. فمن عادته أن يشرب كأسا منها من حين لآخر، ولكن في أيام الجمعة أو السبت، ونحن للعلم يوم اثنين.

ولا أظنه تضايق بشدة وهو يقف على هذا النحو في الصالون مع تلك الخمرة القوية، وعلى أي حال ليس هذا الموقف هو الذي يذكرني به، بل لعله تبرم مني بعض التبرم لأني أغلقت على نفسي داخل غرفتي لأقرأ نصا كتبه لي والدي قبل وفاته بقليل، وقبل أن يكون لجورجن حضور في بيتنا بكثير، فقد كنت، وأنا طفل صغير، أحب أن أصف

جورجن بـ "المهاجر" ومن المؤكد أن هذا التصرّف كـــان تصرفـاً صبيانياً، وما كان قصدي منه سوى المشاكسة والمناكدة.

وسألني جدي وقد أشعل سيجاراً:

"أو ربما بقي لك من القراءة الشيء الكثير؟"

كان جدي قد فهم كل شيء.

"لم أقرأ من القصة إلا نصفها، لا بدّ أن أذهب إلى الحمّام".

وما لبثت جدتي أن سألت في إلحاح:

"هل راق لك ما قرأت"؟

فأعلنتُ:

"بدون تعليق". هكذا يقول السياسيون للصحافيين كلما شاءوا التهرب من سؤال عويص.

القاسم المشترك ما بين الصحافيين والآباء هو الفضـــول، والقاســـم المشترك ما بين السياسيين والأطفال أنهم يتلقون بلا انقطاع أسئلة ليـس من السهل أن يجيبوا عنها في الأحوال كلّها.

لعل الوقت حان لكي أعرّفِكم بالمزيد عن الأشخاص الذين كـــانت لهم محطات في هذه القصة، وأحبذ أن تكون البداية بـــأمي لأن أمـــي أقرب الناس إلى معرفتي.

جاوزت أمي الأربعين قليلا، وأراها امرأة ناضجة ومستقلة أيضـــاً. فهي، على أي حال، لا تخشى الإفصاح عن رأيها من لومة لائم، وهـــي إلى ذلك امرأة "عطوف"، لكنني هنا لا أفكر فقط في الكيفية التي تعامل بها مِريام. فهي تفرط في تدليلي أنا أيضاً، بل وتخاطبني أحياناً وكـــأن

عمري صار أقل عامين أو ثلاثة عن عمري الحقيقي. إني بوجه عام أكتفي بتجاوز الأمر، ولكنّ تصرفها يحزنني أحياناً أيما حزن حين أعود من المدرسة ومعي بعض أصحابي. كأنما تريد أن تثبت لرفاقي أنني طفلها الصغير، على الرغم من أن طولي يجاوز قامتها بضعة سنتيمترات.

وبينما كنت ذات يوم ألعب الشطرنج مع صديقي مارتين إذا بها تدخل علينا بفرشاة شعر، وتتجه نحو الكنبة، وتشرع في تهذيب شعري. لكنني عند هذا الحدّ لم أتردد في أن أعبّر لها عن رأيي في وضوح. إني لا أحب أن أثور على أمي - لم أكن هذه المرة غاضباً بل في قمة الحُنق - ولكن كان عليّ أن أحسب لوجود مارتين حسابه وأن أثبت له أني قادر على وضع الحدود. وما لبثت أمي أن أسرعت إلى المطبخ لكنها عادت إلينا بعد عشرين دقيقة وقد أحضرتْ قطعاً من الشوكولاتة الساخنة والفطائر المحشوة بالعنب والفواكه المعلّبة. وأقبل مارتين على الأكل في حماسة، غير أني، بعد كل ما حدث وجدت بعض الحرج أن تقدّم لنا الأكل على ذلك النحو. وأوشكت أن أطير إلى المطبخ ألتمس في ثلاجته شيئاً من بيرة وأنا أقول لنفسي إني سأهتدي لزجاجة جورجن من الويسكي إنْ خلت الثلاجة من تلك البيرة. ومن حسن الحظ أن مارتين كان فكِهاً وقد تحدثنا فيما بعد عن ذلك المشهد بطبيعة الحال.

وظني أنّ احترامه لأمي ما لبث أن توطد قليلا، حين أخبرتُه أن والدتي تكسب قوتها من التدريس في الأكاديمية الوطنية للفنون الجميلة، وشرحت له ذلك: إذا سمعتَ عن بيكاسو جديد فستعرف منْ صاحب

الفضل عليه" . لقد كان من صالحي بعد الذي حدث، أن أعيد لأمـــي شيئاً من اعتبارها.

من الصعوبة بمكان أن يصف الواحدُ منا والدته ولا سيما فيما يتصل بأذواقها ونزواتها ومنها، بالمناسبة، تلك التروة التي تميزت بها تميزاً لافتاً، فهي مدمنة على عِرْق السوس، سائر أنواع عِرْق السوس. فـــلا يخلـــو مكان في البيت من أصناف الملبسات المختثرة بعِرْق السوس وعلب فازر FAZER والحلويات الإنجليزية. وقد صارت منذ حين تتخفّى في تنـاول عرق السوس لأنني وجورجن، تنبّهنا للأمر، فصرنا نواجهها بهذه العادة السيئة.

ويرى جورجن أن في أكل عرق السوق حافزاً على زيادة الضغــط، وأرى في ذلك بعض المبالغة، لكن الأمر وصل أبعد من ذلـــك حـــين صارت أمي تجعلني أقطَعُ لها العهد بأن لا أُخبِرَ جورجن كلما قصدنـــا إلى المدينة واشترت علبةً من الملبسات المختثرة بعـــرق الســـوس ، أو مقداراً من الحلويات الإنجليزية.

إنْ شئتَ أن أصف نقطة قوّة أمي في كلمتين قلت: "طيبة المـــزاج" . لكن لو شئت في الوقت ذاته أن أحدّد نقطة الضعف فيها لقلت: "سيئة المزاج" . من النادر أن أميّز الفروقات الدقيقة ما بين النقيضـــين، لكـــن يمكنني القول بوجه عام أن أمي طيبة المزاج حقاً لكنها تنقلب أحيانـــاً شَكِسَة متذمرة، وبذلك فهي امرأة مزاجية ولا سبيل لها لأن تكون بـين

بين. وأحَبّ الجمل إلى أمي: "سنلعب الآن الورق قليلاً قبل أن نذهب الى النوم".

نأتي الآن للحديث عن جورجن الذي لا يزيد طوله عن متر وسبعين سنتيمتراً، أي طول والدتي تماماً، وبالقياس إلى قامة الرجال ليس جورجن على الإطلاق طويل القامة. وإذا كان الكثير من الناس يرون في تلك القامة عيباً، فإنها ليست عيبه الوحيد، فهو بالإضافة الى ذلك رجل أحمر الشعر شاحبَ السحنة ولا تضفي أشعة الصيف عليه لونَها البرونزي بأي حال فيستحيل وردي اللون حين يتعرّض لضربات الشمس، حتى ذراعا هذا الرجل كساهما الشعر الأحمر. وقد قلت في مقام آخر إنه مُدمن موضة. فليس ثمة رجلٌ يملك على طاولة حمّامة ثلاثة مزيلات للروائح وأربعة معطرات ما بعد الحلاقة. ولا من الرجال من تجرأ على السير في المدينة مرتدياً وشاحاً حريرياً أسود، وسترةً من وبر الجمال لونها بيج. أجل هذا هو مظهر جورجن، لكنّ الأدهى من ذلك أنّ هذا المظهر لائق عليه.

وعلى الرغم من كل هذا يعمل جورجن في "كريبوس" الشرطة الجنائية، ولكنه لا يفتأ يذكرنا بالتزامه بـ "واجب التحفظ،" ومع ذلك لا يفلِح أحياناً في أن يُمسك عنه لسانه. فقد وسعني مرة أو مرتين أن أطلّع منه على بعض الجوانب المهمة من قضية جنائية كبيرة حتى قبل أن تنشُرَ الجرائد تفاصيلَها. إنه يثق بي وتلك صفة أشهد له بها. فجورجن يعرف أني لا أنشر أسرار الشرطة على الملأ.

جورجن رجل من النوع الذي يعتقد أنه أدرى بكلّ شيء، لكن

رأيه لا يثبت دائماً. قبل فترة توجهنا الى محلات "ايكيا" Ikea لشراء خزانة جديدة لغرفتي (فكم تذمّر أهلي من تناثر أشيائي في كل أنحاء الغرفة واشتكوا من تعثرهم الدائم فيها، لكنّ في الأمر مبالغة، حيث ليس لي وجود في الطابق الأول على الإطلاق، وليس لي فيه حتى زوج من الجوراب).

وقد استغرق تركيبُ الخزانة المساء كله، وأمضينا بعد ذلك فترة المساء كاملة في اختيار المكان المناسب لها. فقد أراد جورجن أن تكون الخزانة ملتصقة بالجدار خلف الباب، وكنت أرفض ذلك رفضاً قاطعاً، لأنني رغبت في أن تكون الخزانة إلى جانب النافذة حتى وإنْ لم يفصلها عن النافذة سوى نصف سنتمتر.

وقد ذكّرته بأنني عشتُ في هذا البيت زمناً أطول بكثير من إقامته فيه، وبأنني لا أرى أهمية في خزانة لا يمكن فتحها إلا حين إغلاق باب الصالون. ولم أستسلم للإضطراب والحيرة، وهاهي الخزانة حيث أردت لها أن تكون، لكنّ جورجن ما لبث أن قاطعني ولم يوجه لي كلمة واحدة إلا بعد مرور يوم كامل. وحين كلّمني لم يكلّمني إلا على مضضٍ.

أما أهم نقطة قوة في جورجن بلا شك، أنه لا يبخل بكل ما لديه من وقت فراغ حتى يُحبِّبَ لي فنون الرياضة، إذ كثيراً ما يقول لي: كل الناس يُولدون بعضلات لكنّ العضلات لم تُخلق إلا للإستعمال. غير أن نقطة ضعفه العظمى أنه لا يقبل مني أي مشروع آخر غير مشروعه الرياضي. وأظن أنه أكثر من ذلك لا يستسيغ مني أن أواصل التدريب

على سوناتة "ضوء القمر"، وردّه المفضل على ذلك بلا أدنى شك أن "الأمر مرهون بالطريقة التي ينظر بها كل واحد إلى الأشياء"!

وقبل الحديث عن أي شيء فيما يتصل بجدتي وجدي لا بد لي من الإشارة إلى أنني أعرفهما حق المعرفة، على نحو ما أعرف جورجن، ذلك لأني أمضيت في بيتهما في تونسبورغ الكثير من الوقت على مر الأيام.

فقد زرت جدتي وجدي ولا سيما في الوقت الذي تعرّف فيه جورجن على أمي وصارا يخرجان معاً في كثير من الأوقات. كان عمري آنذاك عشر سنوات، وظني أنهما ما كانا لينجحا في توطيد حبهما لو لم تُتَحْ لهما إمكانية إبعادي خارج البيت لبضعة أيام بل حتى لبضعة أسابيع أحياناً.

أنا لا أقول هذا تذمرًا بل لقد كنت على العكس أحبذ دائماً الذهاب إلى تونسبورغ. وأنا، فضلا عن ذلك، أغبط نفسي أن تكون أمي وجورجن قد تنبها إلى إعفائي من المرحلة الأولى من تعارفهما ألا وهي مرحلة "المغازلة" . فقد كانت أمامي أشياء كثيرة لم يكن لي مفرّ من أن أوطّن عليها نفسي. فبينما صعدت إلى الطابق العلوي ذات يوم لأهنّئهما بليلة سعيدة إذا بي أفاجئهما متعانقين تحت الغطاء. وقد انزعجت لذلك ورجعت أدراجي متسللا عبر درُجات السلم، ولعلي كنت تصرفت على نحو مختلف لو كان جورجن والدي الحقيقي. بل وربما لا . والواقع أنني لم أر في عناقهما أي باعث على التقزز، ولكنْ ألم يكن خليقاً بهما أن يغلقا باب الغرفة عليهما؟ فقد كان يسعهما أن

يخطراني بأهما سيصعدان للنوم. ولو فعلا ذلك، لوفّرا عليّ الحرج ولكانا جنّباني الإحساس بالوحدة أيضاً.

أما جدتي فقد شارفت السبعين، وقد كانت أستاذة للغناء، أنفقتْ فيه عمرها. فهي تعشق كل أصناف الموسيقى. لكن بوتشيني يظل أقرب الموسيقيين إلى نفسها. وفوق ذلك تعتقد جدتي أن مهمتها في الحياة أن تحبذ لي منه أوبرا "لا بوهيم". لكنني بكل صدق أقول إنني أجد الأوبرا الإيطالية مفرطة في "عذوبتها" ولا تشكل "لا بوهيم"، هذا المزيج الحقيقي من الحبّ وداءِ السّل، أيّ استثناء عن القاعدة. ناهيك عن أن جدتي عاشقة كبيرة للطبيعة ولا سيما الطيور فيها، بل وكانت تحب إعداد وجبات السمك المختلفة، وقد أبدعت في إعداد سلَطتها الخاصة أسمتها "سلطة تونسبورغ" (الجمبري لحم السرطان وكريات السمك في تركيبة أصلية). وهي تصطحبني عند كل خريف إلى جزيرة "تجوم" لأقطف الفطر. أما نقطة قوة جدتي فهي معرفتها لأسماء الطيور كلها، وتعرف بالتحديد أين تبني هذه الطيور أعشاشها.

وأما نقطة ضعفها،(وأسفاه) أن الطبخ لا يستقيم في يدها إلا إذا أرفقته بلحن من الحان بوتشيني. لم أحاول يوماً أن أصرفها عن هذه العادة. وبكل صدق أقول إنني لم أجرؤ على هذه المخاطرة، لأن جدتي ماهرة في الطبخ. وكم تحبذ أن تقول لي: "تعال واجلس يا جورج لنتحدث معاً قليلا!".

أما جدي فقد كان قبل التقاعد عن العمل عاملا مختصاً في الأرصاد

الجوية، ولكنه لم يُدِرْ ظهره نهائياً لموضوع اهتمامه هذا، فهو يشتري كل يوم صحيفة حتى يعلق فقط على ما فيها من توقعات جوية. وهو يدخن السيجار ولكن في المناسبات الكبرى فقط، كما يقول.

فهو في الظاهر يعتبِر كل زيارة من زياراتنا إلى تونسبورغ، وكل جولة من جولاتنا في الباخرة مناسبة كبرى. فهو رجلُ دعابة ومزاح حتى لا أقول رجلا متوقداً، وهو لا يخشى أن يقول ما يفكر به، فإن وجد تسريحة جدتي غير لائقة لا يتردّد في أن ينبهها إلى ذلك. وإن وجدها لائقة لا يتردّد في أن يصارحها بذلك أيضاً. ويُنفِق جدي نصف الفصل الجميل على قاربه الآلي، وينفق الباقي مستغرقاً في جرائده. وهو يكتب أحياناً وقائع في صحيفة يومية. وقد يوصف في تونسبورغ بالكاتب ذائع الصيت. أروعُ ما في جدي أنه لا يخشى ركوب البحر، وظني أن نقطة الضعف فيه، إيمانه أنه صار سيد تونسبورغ في بعض الأحيان. وكم يحلو لجدي أن يردد من حين لآخر: "نحن الأغنياء نعيش عيشة سهلة رغدة!"

أما العم إينار فقد ورد ذكره في القصة مرة أو مرتين. ومن الطريف الإشارة إلى أنه كان في مثل عمري حين روى والدي قصته مع فتاة البرتقال. فهو الآن ضابط بحري على إحدى سفن الشحن، لم يتزوج إلى الآن، لكن الأخبار تشيع أن له في كل ميناء من الموانئ خطيبة (بل وقد اشتبهتُ في وقت من الأوقات أنه على صلة حب مع واحدة على ظهر سفينة تدعى "اينغريد"، ظلت تبحر معه قرابة ستة شهور قبل أن تغادر السفينة فجأة). وقد وعدني إينار مرات عديدة بأن يصطحبني

معه إلى الخارج على سفينته، لكن وعوده لم تكن سوى كلامٍ في الهواء، لأنه لم يكن ذا شأن يوماً.

من مزاياه أنه العم المفضل في النرويج، لكن أسوأ ما فيه أنه لم يفِ بوعده يوماً. وكان يحب أن يردّد لي كثيراً: "أيها الرجل إنك لا تعرف شيئاً عن البحر."

لم يبق لي سوى شخص واحد لم أصفه بعدُ وهو أصعب الشخصيات بالتأكيد، لأنه جورج رويد. طوله مائة وأربعة وسبعون سنتمتراً، أي بزيادة أربع سنتمترات عن قامة جورجن. لا أظن أنه يغتبط بذلك كثيراً، لكني أتصور أنه يتعالى عن ذلك !

فأنا في داخل هذا الغلام، ولذلك لا يسعني أن أراه وهو يتحرك في الفضاء. لكن قد يحدث أن أراه وجهاً لوجه وتحديداً في المرات النادرة التي أمر فيها أمام المرآة. قد يبدو أمري غير عادي، لكنني أقرّ بانتمائي لهذا الجزء من الناس الراضين عن مظهرهم تقريباً. لا أدعي أني وسيم ولكنني لست بأي حال دميماً. ويجدر في هذا الصدد أن نكون متنبهين للأمر، لأنني قرأت في مكان مَا أن أكثر من عشرين بالمائة من النساء يعتقدن أنهن يقعْن ضمن نسبة أجمل نساء البلاد البالغة ثلاثة بالمائة ليس إلا.

وهذا الحساب، في رأيي، حساب خاطىء لا يقوم على أساس. لست أعرف عدد الأشخاص الذين يقدّرون أنهم ينتمون إلى الثلاثة بالمائة من أكثر الناس دمامةً وقبحاً، ولكن أي فظاعة سيشعُر بها مَن

كان غير راض عن صورة يعلم أنها ستلازمه طوال العمر ولا حيلة له فيها. إني لآمل أن لا يضيع جورجن وقته تحسّراً على قِصَر قامته التي لم تزد عن مائة وسبعين سنتمتراً من القدمين إلى الرأس. لقد سألت نفسي في أمره ذاك أحياناً ولكنني لم أجرؤ على مواجهته بالسؤال يوماً.

إنّ أقرب ما أعرفه في مجال الإنشغال بالمظهر أني بدأت ألحظ بثرات معيبة على الجبين ولا يخفّف من خوفي منها إن عرفتُ أنها ستزول بعد أربعة أعوام أو ثمانية، بل يؤكد جورجن أنها قد تختفي بعد بعض تمارين العدو معه، ولكنني لا أصدّق هذه الحكاية. بل من السخافة أن يقول لي هذا، لأنني لا أنوي العدو معه، فقد يظن جورجن أني انطلقت في العدو حتى أتخلص من بثراتي المزعجة.

لقد ورثتُ عن والدي عينين زرقاوين، وأنا أصهب اللون، وبشرتي جد فاتحة، وتصبح شديدة السمرة صيفاً. من مزايا جورج رويد أنه ينتمي إلى هذا الجزء من سكان العالم الذين أدركوا أننا نعيش على كوكب من كواكب درب التبانة، وحسبه من عيب أنه يتقن اصطياد الإناث، لكن ما كنت لأنزعج منه لو أنه كان أجرأ في هذا الجانب. وكان أحب الردود إليه: "نعم، شكراً للاثنين."

بعد قضاء حاجتي بالحمّام عدت لأعبر الصالون من جديد، لكنّ أحداً من الكبار لم ينبسْ ببنت شفة. فقد اتفقوا على ما يبدو على أن لا يقاطعني أحد منهم بكلمة. وفتحتُ باب تلك الغرفة التي كانت غرفة والدي يوماً وأغلقتها بالمفتاح وارتميتُ على سريري. فقد أوشكت أن أعرف سرّ فتاة البرتقال، تلك الغريبة، شريطة أن يراها والدي مرة

أخرى. من يدري، لعلها كانت ساحرة. فقد نجحت، على أي حال، في أن تفتن والدي. ولعلهما كانا سيخوضان معاً بعض تجربة خطيرة حقاً. وعلى أي حال فلا بد من سبب مهمّ يُلح على والدي كل هذا الإلحاح في أن يحدثني عنها. ففي الظاهر أن في القصة أمراً لا غنى لي عنه، أمراً لا يجد أبي بُدّاً من أن يخبرني به، بأي ثمن قبل أن يموت.

لم أكن قد استغنيت عن ذلك الشعور بأن لفتاة البرتقال صلةً بشكل أو بآخر بالمنظار هوبل، أو بالأحرى بالكون والفضاء جميعاً، فقد كتب والدي كلاماً فيه شيء من غرابة ما لبث أن أثار في خاطري هذه الأفكار. وقلبت الصفحات إلى الوراء وقرأت مرة أُخرى: "اكتفت بالشد على يدي بقوّة وحنان وكأننا نسبح في مجال انعدام الوزن في الفضاء الخارجي، وكأننا ارتوينا من لبن المجرّات حتى صار الكون بكامله ملكاً لنا وحدنا."

هل جاءت فتاة البرتقال من كوكب آخر؟ فقد ألمح والدي على أي حال أنها قدمت من عالم آخر. أم أنها جاءت من صحن طائر مجهول الهوية؟ بالتأكيد لا. إنني لا أصدق هذه الحكايات، وأبي بالتأكيد لا يصدقها. لكن الأسوأ أن تصدّق هي ذلك.

ينجز هوبل دورته حول الأرض في سبع وتسعين دقيقة بسرعة ثمانية وعشرين ألف كيلومتر في الساعة. وللمقارنة كان أول قطار بخاري ربط ما بين كريستيانا وإيدسفول يمضي ساعتين ونصف الساعة لقطع هذه المسافة التي لا تزيد عن ثمانية وستين كيلومتراً. فقد قدرتُ أن

متوسط سرعة القطار كانت في حدود ثمانية وعشرين كيلو متراً في الساعة. ويعني ذلك أن هوبل أسرع ألف مرة من أول قطار في النرويج (لقد وجد أستاذي هذه المقارنة مذهلة!).

أجل، ثمانية وعشرون ألف كيلومتر في الساعة! هنا يمكننا الحديث عن التحليق في مجال انعدام الوزن الفضائي! وربما يمكننا الحديث أيضاً عن الإقتنات بـ"حليب ما بين المجرات"، ولا سيما عندما تُلتقط في كل وقت صور لمجرات تبعد ملايين السنين الضوئية عن درب التبانة.

لقد زُوِّد هوبل بجناحين اثنين يحملان ألواحاً شمسية، طول كل جناح اثنا عشر مترًا وعرضه متران ونصف المتر، وتغذيان القمر الإصطناعي بثلاثة آلاف واط، لكنّ عاشقي الكاتدرائية الفتّيين لم يكن كل منهما على جناح من جناحي هوبل ليحتضنا الكون بمفردهما قبل أن يجاوزا متحف التاريخ ويصلا إلى حدائق القصر الملكي، لكن من يدري فلعلهما اختفيا؟

وأمسكتُ كومة الورق واستأنفت القراءة.

لم أسعَ للعثور على فتاة البرتقال ما بين أعياد الميلاد والعام الجديد. فقد كانت إجازة صانعي الحلويات، لكن ما إن حل شهر كانون الثاني حتى عدتُ لتحرياتي الكثيفة من جديد. وقد كنت ساعتها في كامل قواي الحيوية.

لقد بادرتُ إلى مئات عديدة من المحاولات، علّني أعثر على أثر من آثار هذه الفتاة العجيبة، ولكن سرعان ما ذهب جهدي سدى، ولذلك

إذاً ليس عندي من شيء جديد أقصه عليك، ويقيني أنك اعتــدت الآن على وتيرة هذه القصة ومنطقها.

لكنني مع ذلك سأستثني شيئاً يتصل بجانب مهمّ فاتني أن أذكّرك بــه في قائمة الألغاز التي ناشدتك فكّها...إنه الممطر القديم يــا جــورج! أتذكره؟ لقد كان هذا الممطر من بين أشياء عديدة أخرى هــي الــتي أوحت لي بتلك الفكرة المنهكة عن رحلة التزلج إلى غرينلاند. وكــان ذلك الممطر ما جعلني أفكر سريعاً أن فتاة البرتقال ربما تكــون فقــيرة جداً، لكن من الطبيعي أن يكون الممطر قبل كل شيء دليلا على حبِّ الفتاة للعيش في الهواء الطلق.

كانت نزهاتي التزلجيّة كثيرة في ذلك الشتاء، ولعل كل هذا الــتزلج السريع في الريف وفي غابة أوسلوماركة، وفي الجبل، هو الذي أســهم في إبعاد هذا المرض العدائي عن جسمي لبضعة شهور، لن أحدثــك في هذا المقام عن هذه الترهات. لأنني لم أصادف فتاة البرتقال في الغابــة، ولا على مسارات الســباق، ولا في محطــات اســتراحة كيكــوت وستريكين أو هارستوا. لكن مع بداية آذار ما لبثت مناسبة يوم أحَــدِ هولمنكولّن أن أصبحت وشيكة، وما لبث سباق القفز بالتزلج أن أفعمني بالفرحة. وكأن كل القطع المفكّكة وجدت مكانها، وكــأن عنــاصر الأحجية المبعثرة تكاملت. وكأنني وجدتُ كــل النتــائج الجيــدة في اليانصيب الرياضي، بعد أن علّمت المربعات الرابحة فيه.

يوم الأحد هذا في هولمنكولّن مناسبة رياضية يلتقي فيها أكثر مــن خمسين ألف شخص، إذا كان الطقس فيها جميلا. وتلك نســبة ذات

دلالة من سكان أوسلو الذين يتوجهون إلى القمم في ذلك اليوم.

لكن ما هي في رأيك هذه النسبة من السكان الذين يحملون باستمرار ممطرات قديمة؟ لسنا بعيدين، إن شئت رأيي، عن المائة بالمائة.

توجهتُ إذاً إلى هولمنكولّن في ذلك الأحد. كان الطقس مقبولا وكان خط ورقة يانصيبي قد امتلأ بعلامتين اثنتين. وكنت أملك أكثر من خمسين ألف من الحظ في لقاء فتاة البرتقال، ويمكنني أن أؤكد لك أن الممطرات القديمة كانت كثيرة على سقف أوسلو في ذلك الأحد من آذار.

فقد حضرت جميعها الى هناك. فالأحد في هولمنكولن أشبه بحديقة غناء للممطرات القديمة حيث تراها منتشرة بكل ألوان مجموعة سلسلة الألوان الشاحبة. فلم أعر إذاً أي طرفة عين للمقفز، وقد انشغلت أكثر بفحص كل تلك السترات الرياضية المقلسنة، ولمحت فتاة البرتقال مرات عديدة، وفي كل مرة يتفجر كان هدير هولمنكولّن في صدري، ولكن في كل مرة لم تكن هي. وقد رأيت أيضاً مرة أو مرتين ملقط الشعر السحري، لكنه لم يكن ملقطها.

لم تكنْ هناك يا جورج! وهذه حقيقة كحقيقة اثنين زائد اثنين يساوي أربعة. وتلك هي الحقيقة الوحيدة التي لاحظتها. لم أعرف حتى من أخذها معه! و لم يلفت نظري في أحَدِ هولمنكولن ذاك شيءٌ آخر غير غياب فتاة البرتقال. لم أكن أرى في ذلك اليوم سوى ما لم يكن موجوداً.

ومنذ ذلك الوقت لم أقصد الى هولمنكولن سوى مرة واحدة ولست

أعلم إن كان هذا يذكرك بشيء ما، فهل أتوقع منك ولو ذكرى مبهمة عما عشناه معاً حين كان عمرك ثلاثة أعوام ونصف العام ؟.

في تلك السنة كنا أنا وأنت في أسفل القمة نشاهد القافزين المتزلجين، كان الطقس متميزاً في ذلك اليوم من آذار، فقد هبت على البلاد ريح "الفونة" الحارة، النادرة عادةً في أصقاعنا، حاملة معها درجات من الحرارة أشبه بحرارة الصيف. وقد جُرفت كلُّ ثلوج القفز عبر نصف أراضي النرويج لتعويض الثلج الذائب عن منصة القفز، انطلاقاً من جبل فينس الشاهق تحديداً. كان"جيتر ويسفلوج" في تلك السنة هو الفائز بالميدالية الذهبية. وقد كانت الخيبة كبيرة عند جمهور النرويج، لكن هذا الفوز لم يكن مفاجأة كبرى لأن الفائز كان انتزع الانتصار في السنة الماضية.

دعني أبوح لك بسر صغير. عندما كنا نحن الاثنين في هولمنكولن في ذلك اليوم اللطيف من آذار، قبل ما يقرب من ستة شهور فوجئت بنفسي تبحث عن فتاة البرتقال. أكثر من عشر سنوات كانت قد مرّت، ورغم ذلك كانت خيبة الأمل قد توطدت في أعماقي.

إنني الآن، يا بني، على عجل من أمري، لكن ليس هذا هو السبب الوحيد الذي يجعلني أقفز على بضعة أسابيع، بل السبب هو أنني إن لم أفعل فلن أجد شيئاً مما سأقصه عليك.

عند نهاية نيسان وجدت فجأة في صندوق بريدي بطاقة بريدية. كان ذلك يوم سبت عند زيارتي لأمي وأبي في هومليفاي. لم تُرسلْ

الرسالة إلى آدمستوين حيث أقيم مع غونار منذ بضعة شهور، ولكنها كانت موجهة إلي على أي حال.
ركز معي: على ظهر البطاقة صورة مزرعة ساحرة لأشجار البرتقال، كُتب عليها بالأحرف الكبيرة، PATIO DE LOS NARANJOS أي "بستان برتقال". لقد وسعني أن أفهم هذا القليل من الإسبانية. ألم أقل لك من قبل أنني بارع في تفسير الإشارات.

بستان البرتقال! وهو ما جعل صدري يخفق في توتر. هذا التوتر يمكن أن يرتفع فجأة في الأوضاع القصوى، لكن لا تدع هذه الظاهرة تبعدك عن الفرص الكبرى والأحاسيس القوية. إنها بالفعل حالة هينة، لكنني آمل، أن تتفادى الطيران الشراعي الفردي أو القفز بالمظلات. تجنب على أي حال القفز المطاطي! وقلبت الصورة. كان الختم من إشبيليا، والنص الوحيد: لقد فكرت فيك، أتستطيع الصبر قليلاً؟ ولا شيء أكثر من ذلك. لا إسم ولا عنوان المرسِل أيضاً. لكن على البطاقة ظهرَ رسمُ وجهٍ، وكان وجهها هي يا جورج، وجهها السنجابي اللطيف. كان الرسم بريشة فنان على ما يبدو بل وفنان كبير.
في واقع الأمر لم أندهش لذلك كثيراً. بالطبع كانت فتاة البرتقال في مزرعة البرتقال. هيهات أن تكون في غير ذلك المكان، فقد توجهت بكل بساطة إلى مملكتها الخاصة، إلى بلاد البرتقال ذاتها. لم يتوافق ذلك توافقاً كاملا مع تصوراتي. ألم يعدْ الطفل يسوع إلى المعبد ليكون في بيت والده؟

لم يعد هناك شيء يصعب عليّ فهمه. فقد فُكّت كل الألغاز. وكان الصبر مفتاح الفرج. هناك تستطيع فتاة البرتقال أن تتنفس طوال ستة شهور، وأن تنمّي الأهمية التي كانت توليها لتنوع البرتقال قبل أن تصبح، كما أتمنى، قادرة على التحرر وعلى الوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسها برؤيتي كل يوم من أيام باقي السنة. وبعد ذلك قد تعود من جديد لكي تتنفس، لكن تلك قضية أخرى.

وفرحت لذلك وجذلت وصار دماغي يُفرط في إفراز مادة نسميها نحن طلبة الطب بـ الإندورفين Endorphine تلك هي الحالة النفسية التي وجدتني فيها. وقد جعلني ذلك أُسرع إلى حديقتنا الشتوية لألحق بأمي وأبي. فكانت هي في الكرسي الهزاز الأخضر، وكان هو على الكرسي الطويل القديم غارقاً في جريدة يوم السبت. واندفعت إلى الغرفة وأعلنت لهما أني قررت الزواج قريباً. أجل، هذا ما قلته لهما، وشرحت لهما أنني نويت الزواج فعلا. كان علي أن أُمسك لساني عن ذلك، لأني، بعد ذلك بربع ساعة، بدأت ثورتي تهدأ شيئاً فشيئاً. وتوقف دماغي عن إنتاج الإندرفينات نهائياً. وتلاشت بذلك نشوتي، ولم أعد أفهم شيئاً. بل صرت أفهم أقل مما كنت أفهم دوماً.

لقد كشفت لي فتاة البرتقال يوماً عن أنها تعرف اسمي، وقد بدا لي الآن أنها تعرف اسم عائلتي أيضاً. بل أكثر من ذلك يا جورج، أكثر! ففي بلاد البرتقال حصلت أيضاً على عنوان بيتنا القديم في هومليفاي. ماذا تقول في هذا، هل تصدق ذلك؟ شيء جميل.. جميل فعلا أن أفكر في الموضوع بشكل ما، أياً كان تفسير هذا اللغز. لكن أليس من المحزن

أيضاً أن تسافر إلى أسبانيا دون أن تكلف نفسها الإشارة إلى ذلك أثناء تلك اللحظات الساحرة التي مشينا فيها يداً بيد نحو حدائق القصر الملكي، قبل أن تدق أعياد الميلاد أجراسها، وقبل أن تندفع سندريلا في عربتها قبل ثوان من تحولها إلى يقطينة؟

كان ذلك قبل ثلاثة شهور ونصف الشهر من الآن، أو قل على الأقل قبل خمس وعشرين جولة بالتزلج. ناهيك عن عمليات البحث. أم أن فتاة البرتقال سافرت إلى المغرب أو كاليفورنيا أو البرتغال؟ لقد أضحت البرتقالة اليوم نباتاً امتدت منفعته للكون بأسره. ولو شئت رأيي في الموضوع يا جورج، كان يجدر من زمن طويل أن يُقدّس البرتقال تقديساً كأهم فاكهة في الطبيعة. ولعل فتاة البرتقال كانت في كامل السرية عوناً من أعوان مفتشيّة البرتقال في منظمة الأمم المتحدة (أونيو). فعلى أي حال لم يظهر أي مرض جديد وخطير من أمراض البرتقال، هل هذا هو السبب الذي يجعلها تتردد باستمرار على يونغستورغيت حتى تفحص حالة البرتقال الصحية؟ وهل ذلك هو دافعها في اقتطاع عيّناها الأسبوعية من البرتقال؟

بل ولعلها ذهبت أبعد من ذلك لغاية الصين، فقد اكتشفتُ منذ زمن بعيد أن البرتقال كان في الأصل "برتقال الصين"، فمن هذا البلد جاء البرتقال أصلا.

لكن إذا كانت فتاة البرتقال قد قصدت الحج إلى الصين التي تفتحت فيها ذات يوم أول زهرة برتقال، لما وسعني أن أرسل اليها بطاقة

وعليها هذا العنوان: "إلى فتاة البرتقال، الصين " لـــو فعلـــت لكنـــت جعلت موزع البريد الصيني يعاني في التعرف عليها ما بين مليار مــــن البشر، لو كنت أنا موزع ذلك البريد لتعرفت عليها بكل تأكيد، لكـن مَن يضمن لي أن موظف البريد الصيني سيؤدي تلك الخدمـــة بـــالقدر نفسه من الحماسة والاندفاع؟

حسناً جورج، لنواصل!

وانسحبت من دراستي لبضعة أيام وحصلت علـــى قـــرض بـــألف كورونة من أبي وأمي، ودبرت تذكرة طائرة بسعر معقول لمدريد. عند الوصول أمضيت الليل عند عمّ أحد زملاء الصف. وفي صبيحة اليـــوم التالي أخذت طائرة أخرى قاصداً اشبيليا.

لم أكن علي يقين تام بأنني ســـأعثر عليـــها، ولكنـــي قـــدرت أن احتمالات الالتقاء بها كانت لا تقل عن احتمالاتي بذلـــك اللقـــاء في هولمنكولن، ثم هنالك شيء آخر وهو أنني لن ألتقي بها في إشبيليا وجهاً لوجه، بل سأعلم على أي حال أنها مرت من هناك قبل أن تســـتأنف طريقها نحو المغرب مثلا. على أي حال هي فرصة لكـــي أزور بـــلاد البرتقال، واستنشق قدراً من ذلك الهواء المفعم بقليل من الحموضة الذي استنشقته، وأن أسير في الشوارع نفسها التي مرت بها، وأجلس ربمـــا على المقاعد نفسها أيضاً، كان ذلك سبباً كافياً لكي أذهـــب هنـــاك، وفضلا عن ذلك لم يكن من غير المعقول أن أهتدي إلى بعض الآثـــار المهمة في قلب بستان البرتقال مثـــلا، لكـــن بشـــرط أن يســـمح لي بالدخول. وتصورت بالفعل أن مكاناً بهذه القداسة لا بدّ وأنه محـــاط

بالخنادق، وتحرسه كلاب شرسة وحراس يخفرون المكان عن كثب.

لكن بعد هبوطي في إشبيليا بنصف ساعة كاملة دخلت المكلن دون أن يعترضني أي عارض. ووجدت بستان البرتقال المُسيّج الذي التصق بالكاتدرائية الكبرى جميلا حقاً، كان أشبه بأي حديقة كلاسيكية، فقد انتصبت على مدى مساحته صفوفٌ من أشجار البرتقال امتلأت بفواكه أكثر من يانعة.

حاولت أن أفكر بعقل وتدبر، وسعيت لإقناع نفسي بأنني لا أستطيع الاعتماد على مجرد التفكير بلقاء فتاة البرتقال حالاً، بل وربما حتى في الأيام الأولى. ولذلك لم أقض أكثر من ساعات ثلاث في ذلك البستان، لكنني من باب الحيطة تركت لها عند المغادرة رسالة مختصرة على منهل ماء قديم عند وسط بستان البرتقال كتبت فيها "أنا أيضاً فكرت فيك، لا! لا أستطيع أن أنتظرك أكثر مما انتظرت"، ووضعت حجراً صغيراً على الرسالة.

لم أُوقّعْها بأيّ اسم، و لم أكتب عليها حتى اسم الشخص المقصود بالرسالة. لكنني أضفت إليها رسماً بالعيدان يمثل صورة لوجهي، رسم لا يشبهه بأي حال لكنني كنت موقناً أن فتاة البرتقال ستدرك الشخص المقصود بذلك الرسم حين عثورها على الرسالة، فمن المؤكد أنها لن تتأخر في الوصول إلى البستان. فهي بلا شك مضطرة لأن تمر من حين لآخر لتستلم ما يصلها من بريد.

لم تمر سوى ساعة واحدة فقط على وضع تلك الرسالة تحت ذلك

الحجر حتى وجدتني بعد عودتي إلى المدينة بكثير أفكر في وجوم أنني ربما ارتكبت خطأً فادحاً.

لقد قالت لي: عليك أن تتحمّل الانتظار ستة شهور كاملة، فإن وُفّقت إلى انتظاري كل هذه المدة فسوف نستطيع أن نلتقي من جديد. ثم سألتها لماذا أنتظرها كل هذه المدة فكانت إجابة فتاة البرتقال واضحة ودقيقة: لأنه بالتحديد الزمن الذي ينبغي أن تنتظَره. وإن نجحتَ في ذلك فسوف نقضي معاً كل يوم من أيام الفصل القادم.

هل تفهمني يا جورج! لم أحترم القواعد. و لم أنجح في انتظارها ستة شهور ولذلك فقدت وعدَها لي بأن نلتقي كل يوم من أيام الفصل التالي.

هذا الوعد الرسمي الذي عقدناه كان واضحاً غاية الوضوح، لكن الالتزام به كان مستعصياً.

كلّ الأساطير لها قواعدها الخاصة، بل لعل هذه القواعد بالتحديد هي التي تميز بعضها عن الآخر. ليس من الضروري أبداً فهم هذه القواعد، ويكفي فقط التقيد بها. وإلا نقضت وعودها نقضاً!

أفهمتَ يا جورج!

لماذا يجب على سندريلا أن تغادر الحفل الراقص في القصر قبل منتصف الليل؟ ليس عندي أي فكرة، وبالتأكيد لا علم لسندريلا بذلك هي الأخرى، لكن لا يحق لنا أن نسأل مثل هذا السؤال عندما نكون قد استسلمنا لفتنة أكثر مملكات الحلم إعجازاً. لذلك، إذاً،

حسبُنا أن نقبل بالشروط مهما بلغته من غموض وإبهام. فلكي تحصل سندريلا على فتى أحلامها عليها أن تجتهد في مغادرة الحفلة الراقصة قبل أن تنطلق أجراس منتصف الليل.

الأمر بهذه البساطة، والحديث واضح. عليها أن تحترم القواعد وإلا فقدت فستان حفلة الرقص وتحولت عربتها الفاخرة إلى يقطينة، لذلك فهي تحرص على أن تعود إلى بيتها قبل منتصف الليل، وكادت ألا تفلح في ذلك ففقدت فردة من خفيها وهي عائدة، ومن الطريف أن هذه الفردة هي التي أتاحت للأمير أن يعثر عليها. فبنات حماتها هن اللواتي لم يحترمن القواعد، ولذلك لم يلقين سوى سوء المصير.

لكن أسطورتنا تخضع لقواعد أخرى هي السائدة، آهٍ لو وسعني فقط أن أرى فتاة البرتقال ثلاث مرات على التوالي وهي تحمل كيساً من البرتقال، لأصبحت ملكاً لي. وكان عليّ بالطبع أيضاً أن أرسم لنفسي لمحة عن فتاة البرتقال قبل ليلة عيد الميلاد، وربما كان عليّ أكثر من ذلك أن أسعى للنظر في عينيها حين تدق أجراس عيد الميلاد وأنا أُمسك بملقط شعرها الفضي الساحر. ولم يبق لي بعد ذلك سوى اختبار واحد، وهو أن أوطّن نفسي على ألا أراها قبل ستة شهور. لا تسألني عن الأسباب يا جورج.

هكذا شاءت القواعد. وإن لم أنجح في هذا الاختبار الأخير الحاسم، وهو أن أظل بعيداً عن فتاة البرتقال لنصف سنة كاملة، فسوف تستحيل جهودي السابقة إلى عدمٍ، وسوف يضيع مني كل شيء.

وهرولت إلى بستان أشجار البرتقال، لكنني لم أجد للرسالة أثراً.

فكيف لي أن أوقن أن لا أحد أخذها غيرها. فلعل سائحاً من سوّاح النرويج اختلسها.

وفي اللحظة التي لمحت فيها ذلك الحجر الذي وضعته على رسالتي- التي اختفت- إذا بفكرة جديدة تجول بخاطري. فكرةٌ أيقظتْ في نفسي بعض الأمل رغم خرقي للقواعد. ما رأيك يا جورج؟ لقد أرسلتْ إليّ فتاة البرتقال بطاقةً أوّلا، لأنها تملك عنواني. ثم كتبت لها أنا رسالة مماثلة، لكنني لم أكنْ أعرف عنواناً أرسلها عليه، فوجدتُني مضطراً لأن ألعب دور الساعي الجوّال فنقلت الرسالة إلى بستان البرتقال الذي أرسلتْ هي منه تحياتها.

ألسنا يا جورج متساويين الواحد منا بالآخر على نحو من الأنحاء؟ ألم تنتهك وتخالف بعض القواعد هي الأخرى؟
ما رأيك في هذا يا جورج؟ فأنت لا تقل عني شأناً لتفسير قواعد هذه الأسطورة.

لكنها، من ناحيةٍ، إلتمست مني، على نحو من الأنحاء، أن أصابر في انتظارها مزيداً من الوقت. و لم يكن ذلك في واقع الأمر سوى تجديدٍ للعقد، وفي ذلك أجبتها أني غير قادر على الوفاء بالشروط، أي أنني لا أملك إرادة الالتزام بالقواعد.

فقد كتبتْ: لقد فكرت فيك. هل لك أن تنتظر مزيداً من الوقت؟

لكن يا جورج: لو كان ردّي على ذاك السؤال أنني غير قادر على الانتظار فما الذي كانت فتاة البرتقال ستُقدّر أني فاعله؟

لا، لم أكن أقدر على مثل ذلك الرد. فقد كانت ورطتي أكبر من

ذلك. ولذا لم يكن أمامي سوى العثور على تلك الفتاة.

لم أكن قد ذهبت إلى إشبيليا من قبلُ، ولا كنت رأيت إسبانيا قــط. ولكنني ما لبثت أن تعقّبتُ السائحين لغاية الحي اليهودي القديم. يدعى المكان سانتا كروز. إنه لا يذكّرك إلا بمعبد واحد فريد يُخلّد البرتقــال فيه كنبات للزراعة. ناهيك عن أن كل المساحات قد زرعت بأشــجار البرتقال.

بعد أن سرت من الساحة إلى السوق دون أن أعثر لفتاة البرتقـــال على أثر، انتهى بي المسير إلى إحدى المقاهي حيث دخلتُ فوجـــدت كرسياً شاغراً تظلّله شجرة برتقال غناء. فقد رأيت كـــل ســاحات سانتا كروز وخلصت إلى أن هذه الساحة أجمــل الســاحات علــى الإطلاق. وكانت تدعى ساحة أليترا.

ومكثت أقلّبُ الأمر في نفسي: إذا كنا نبحث عن شخص في مدينــة كبيرة ولا نعرف أين نبحث ولا أين نحن، هل الأفضل لنا أن نحلّـــق كالفراشة من مكان إلى آخر، أم أننا سنكون أوفر حظاً في العثور علــى ذلك الشخص لو جلسنا إلى مكان مركزي ننتظر إطلالته المفاجئة علينا من تلقاء نفسه؟

إقرأ يا جورج هذه الجملة الأخيرة مرتين قبل أن تقرر. أما أنا فقــد خلصت إلى هذه النتيجة: إنّ أرقى حيّ في إشبيليا يسمى سانتا كــروز، وأجمل ساحة فيه هي ساحة أليترا.

وإذا كانت فتاة البرتقال تشبهني قليلا فسوف تظهر عاجلا أم آجلا،

وبالتحديد في المكان الذي أتواجد فيه. فقد سبق والتقينا في مقهى من مقاهي أوسلو، والتقينا في الكاتدرائية أيضاً. فإذا كان من شيء قوي فينا فسوف يقع كل منا على الآخر بالصدفة حتماً.

وقررت أن أمكث في تلك المقهى. لم تكن الساعة قد جاوزت الثالثة عصراً. كان يسعدني أن أبقى في ساحة أليترا ثماني ساعات كاملة، و لم يبدُ لي وقت الإنتظار هذا طويلا. كنت قبل السفر من أوسلو قد حجزت غرفة في فندق صغير يقع إلى جوار الساحة، أخطروني فيه بألا أتأخر في الدخول قبل منتصف الليل، موعد إغلاق الأبواب (حتى الفنادق الإسبانية ملتزمة بهذا النوع من القواعد!) فإذا لم تظهر فتاة البرتقال قبل منتصف الليل إلا عشراً في هذا المساء الأول فسأعود في اليوم التالي للجلوس في هذا المكان، وساعتها يمكنني انتظارها من الشروق إلى الغروب.

ورحت أنتظر وأنتظر. ومكثت أنظر للمارة المقبلين المدبرين على ساحة بلازا، من سكان محليين ومسافرين، وكم راقني جمال الناس. وما لبث أن غمرني شعور بالنشوة منبثق من كل ما كان يحيط بي. فمَنْ نحن تُرى، نحن الذين نحيا هنا؟ في هذه الساحة كان كل واحد أشبه بصندوق كنزٍ امتلأ تأملات وذكريات وأحلاماً ورغبات. كنت أُحسني في قلب حياتي على هذه الأرض، وكان ذلك أيضاً إحساس كل رواد الساحة. خذ النادل مثلا. مهمة هذا الرجل أن يخدم كل الذين جلسوا في هذه المقهى. فحين طلبت فنجاني الرابع من القهوة أحسست منه انزعاجاً من بقائي طويلا على هذه الطاولة، فقد مر على

جلوسي فيها ثلاث ساعات أو أربع. وحين أنهيت قـهوتي الرابعـة لم يتأخر عن سؤالي في أدب إن كنت أرغب في الدفع فوراً، لكنني كنـت غير راغب في الذهاب، حتى أنتظر فتاة البرتقال، فطلبت مـن بـاب الحيطة قطعة من التاباز Tapas وقنينة كولا. لا بيرة ولا خمر قبـل أن تصل فتاة البرتقال. هكذا قلت لنفسي. فلن نشرب الشمبانيا إلا معـاً، لكن لم تبدُ في الأفق أي فتاة برتقال.

دقت السابعة أجراسها فأحسست بأن الوقت حـان لكـي أدفـع الحساب. وما لبثت أن أدركت كم كنت ساذجاً! فقد مضـت أيـام عديدة منذ أن وجدتُ بطاقتها في صندوق بريد هومليفـاي. ولعلـها استغرقت من الوقت الزمن نفسه على الأقل قبل أن تصل إلي.

يبدو أن لقاء فتاة البرتقال قد أضحى لا يقل تعذراً عما كـان عليـه سابقاً، فقد صار لديها من الشؤون ما يشغلها عن ممارسة لعبة القـط والفأر معي كما كنا. ولعلها كانت تدرس الإسبانية في سالامنك أو في مدريد. ودفعت حسابي في تلك المقهى، وتهيأت للذهاب، فقد أحبطني ضعف قدرتي على الحكم فانعقد حلقي وقررت أن أعود إلى الـنرويج في صباح اليوم التالي.

لست أعلم إن كنتَ شعرتَ يوماً بشعور حاد لأنك قمت بعمـل غير مجدٍ. فلعلك مشيت يوماً في الثلج والوحل من البيـت إلى المدينـة لشراء شيء كنت في أمس الحاجة إليه. وحـين وصلـتَ أخـيراً إلى الدكان وجدتَه مغلقاً منذ دقيقتين. كم هي مزعجة هذه الأشياء، لكـن ألا نتزعج أكثر حين تكون هذه الأشياء من صنع حماقتنا؟

لقد صار الآن يملؤني ذلك الشعور الذي أكاد أخجل منـــه بـــأنني سافرت عبثاً، و لم أرض حتى بركوب القطار الكهربائي إلى المدينة. فقد قطعت كل المسافة لغاية إشبيليا وليس لي دليل أهتدي به غير بطاقـــة بريدية. لم أكن أعرف أحداً، وسرعان ما وجدتني أدخـــل في فنـــدق بائسٍ، زدْ على ذلك أنني لم أكن أعرف الإسبانية. ووددت أن ألطـــم وجهي لطماً، ولكنني لو فعلت لكان مظهري من الحمق مـــا يجعـــل شعوري بالخزي يزداد عمقاً. وعاهدت نفسي، مـــع ذلـــك، بـــأنني سأعاقبها بشكل من الأشكال، وكانت خياراتي في ذلك عديدة، كـــأن أوطّن نفسي على ألا أُعنّى بفتاة البرتقال هذه مهما حدث.

ولكنها وصلت يا جورج! كانت الساعة السابعة والنصـــف حـــين أطلت فجأة على ساحة أليترا.

فبعد مرور أربع ساعات ونصف الساعة تحت ظل شجرة برتقـــال قدمت فتاة البرتقال مرفرفة كالطير على سوق البرتقال. بالطبع لم تـــأت بسترتها الرياضية، لأن الطقس شبه مـــداري في الأندلـــس، ولكنـــها اكتست بفستان صيفي خارق، أحمر اللون، وهّاجاً كوهـــج نبـــات الجهنميّة الذي أراه متسلقاً ذلك الجدار الذي ظللت أتطلـــع إليـــه في خلفية ذلك المكان، فلعلها استعارت ذلك الفستان من جميلـــة الغابـــة النائمة. هكذا قلت لنفسي، أو نشلته من إحدى الحوريات.

لكنها لم تلمحني، وبدأ الليل يسدل ستائره شيئاً فشيئاً. وكان الجـــو حاراً للغاية، ولكنني كنت أشعر بالبرد وصار جسمي يرتعد ارتعاداً.

هكذا يا جورج، ولكنني لا أستطيع أن أوفر عنك مما رأيته شـــيئاً. فقد أدركت أن بصحبتها شاباً في الخامسة والعشرين تقريبـــاً، يبـــدو طويل القامة وسيماً ذو لحية كثيفة صهباء. وهو يشبه إلى حد اللَّبْـــس أحد مستكشفي القطب. لكنّ ما أغاظني منه أكثر أنه لم يبدُ لي سَمْـــح الطبع بأي حال.

لقد خسرتُ إذاً. إن الخطأ في ذلك خطئي، لأنني لم أحترم القواعـد. فقد نقضت وعداً رسمياً. وقد دخلت في أمر لا يهمني، في أســـطورة لا تشاطرني قواعدها. ألم تقل لي "عليك أن تتحمل انتظار ستة شـــــهور كاملة"، "وإن نجحت في انتظاري كل هذه المدة فسنلتقي بعد ذلـــــك حتماً!"

وفي اللحظة التي لحاني توقعت أن مظهري قد أصبح مثل المدفئة الـــتي كانت سندريلا تفرغها من رمادها قبل أن يأتي الأمير ليخلصـــها مـــن وطأة حماها ومن أخواها الشريرات.

فقلت لنفسي: "لقد رآني،" لأن الذي رآني أوّلا ليس فتاة البرتقـــال، بل ذلك الرجل الملتحي الذي لاحظ وجودي (هل فهمت شـــيئاً يـــا جورج؟ لأني كنت عاجزاً عن فهم أي شيء). فقد أمسك ذراع فتـــاة البرتقال ولوّح لي، ثم صاح بي صيحة كانت من القوة والتمـــيز مـــا جعلها تصل إلى آذان جميع رواد تلـــك الســـاحة: "جـــون أولاف!" وأدركت من لكنته أنه دانمركي. لم أرَ هذا الرجل من قبل قط.

إن ما حدث الآن لم يدم سوى لحظات، لكنني أخالك تســـتطيع أن

تتخيل ما حدث. فقد لمحتني فتاة البرتقال تحت شجرة البرتقال وظلت لثانيةٍ من الزمن أو ما يقارب الثانيتين تحدق فيّ عند منهل الماء الكبير المنتصب في وسط تلك الساحة، لكنني أراها جامدة لا تحرك ساكناً حتى بدت بعد الثانية الأولى كأنها تسمّرت في ذلك الوضع قبل ساعة أو ساعتين حتى صارت لا تقدر على التخلص من ذلك الجمود. لكنها ما لبثت أن تحررت منه أخيرا. لقد نامت جميلة الغابة مائة عام بلا توقف وها هي الآن تستيقظ للحياة من جديد وكأنها لم تستغرق في النوم سوى نصف ثانية. وتهرول نحوي وتعانقني ولا تفتأ تكرر ما قاله الدانمركي لي: "جون أولاف!" ثم كان دور ذلك الدانمركي يا جورج، فقد أقبل على طاولتي فاترا لا مباليا ومدّ لي يدا قوية مصافحا قائلاً بود: "ما أطرف أن أراك حقيقة مجسدة يا جون أولاف!" كانت فتاة البرتقال قد اتخذت لنفسها مقعداً، في حين راح الدانمركي يلاطف كتفي قائلا: "طيب لم يبق لي الآن سوى الانصراف" ثم عاد إلى الوراء وأطلق ساقيه للريح وقطع الساحة وهو يجر رجليه جراً عائداً من الطريق نفسها التي جاء منها.

لقد ذهب ذلك الدانمركي وأراحنا منه. جميل! فقد صارت كل الطيبات من الحوريات يباركنني.

إنها تجلس الآن على الجانب الآخر من الطاولة. وقد سرّبتْ كلتا يديها إلى يديّ. ما أحر ابتسامتها! ابتسامة ربما انطوت على شك منهمك بأمر ما، ولكنها ابتسامة حارة على أي حال.

وقالت:

"إنك لم تصل الى النهاية. و لم تفلح في انتظاري!".

و لم أجد بدا من الإقرار:

"لا!" لأن قلبي الآن صار يترف حزنا.

ونظرت إليها ووجدت الابتسامة لم تفارقها. وحاولت الابتسام أنـــا أيضا ولكن لم أجد إلى ذلك سبيلا.

وأضفْتُ:

«فقدتُ الرهان، إذاً،"

وفكرتْ قليلا ثم قالت: "في الحياة أوقات نادرة يجب أن نعرف فيها كيف نعذب الآخرين قليلا. وقد كتبتُ لك. كنتُ أحاول أن أمنحـك القوة حتى تتحمل الهجر قليلا."

وسرتْ رعدة في كتفي ورددتُ قائلا:

"لقد خسرتُ إذاً"

"لقد كنتَ على أي حال عاصياً متمرداً." كان ابتسامها واضحاً جليـاً.

"لكن لعل الوقت لم يفت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه!".

"كيف؟"

"مثلما كان الأمر منذ البداية. والأمر مرهون بصبرك أولا!".

"لستُ أفهم شيئاً!"

وضغطت على يدي بحنو. ثم سألتني ببساطة وهي همس بالسؤال أو قل تزفر زفيرا:

"ما الذي لم تفهمْهُ يا جون أولاف؟"

"القواعد. إنني لا أفهمُ القواعد!".

على هذا النحو بدأ الحديث بيننا طويلاً.

لا جدوى يا جورج من أن أُقرب إليك كل الكلمات التي تبادلناها في ذلك المساء وفي تلك الليلة. فلا يسعني بأي حال أن أذكر كل شيء. ثم إنني أعرف بأنك تريد مساءلتي في أشياء كثيرة، تتوق إلى معرفة الإجابة عنها ما وسعك ذلك.

من ناحيتي كانت إحدى أولى التفسيرات التي تمنيتها من فتاة البرتقال أن تقول لي كيف عرفت اسمي وكيف اهتدت إلى حيث يسكن أبي وأمي. فقد كان لذلك صلة بتلك البطاقة البريدية القادمة من إشبيليا والتي كانت آخر عهدي بها.

ومكثت حائراً مستفهما. ثم ما لبثت أن قالت في هدوء: "جون أولاف.. ألا تتذكرني حقاً؟".

ورحت أرصدها محاولاً النظر فيها كأنها المرة الأولى التي ألتقي بها. لم أكتف بالاستغراق في عينيها القاتمتين، و لم أمتنع عن دراسة وجهها الماكر، بل رحتُ أرمق كتفيها العاريتين فلم أر منها حرجاً ولا مانعا. ثم ما لبثت عيناي أن مالتا على فستانها الرشيق، لم يكن من السهولة بمكان أن أستعيد ذكرها في سياق آخر غير الذي التقينا فيه خارج أعياد الميلاد. فان كنت التقيت فتاة البرتقال في حياة سابقة، فلا سبيل لي الآن أن أذكر من تلك الحياة شيئا، لأنني وقد انتهيت إلى ما انتهيت إليه لا يسعني أن أفكر مليا في شيء آخر غير جمالها الفتان، وقلت لنفسي إنها لا محالة من صنع ربي، أو أنّ بغماليون بطل الأساطير

اليونانية هو الذي نحت فتاة أحلامه على الرخام قبل ان ترأف بها آلهة الجمال وتنفخ الحياة في هذه المرأة المنحوتة نحتا. في آخر مرة رأيتها كانت فتاة البرتقال متدثرة بمعطف أسود اللون، أما الآن فهي لا تحمل من الملابس إلا أنعمها وأرقها، فخشيت أن أدنوَ منها أكثر مما يحق لي، ومع ذلك بل وقل، بسبب ذلك تحديدا، لم أكن قادراً على التعرف عليها.

ورددتْ قائلة: "ألا تستطيع أن تتذكرني؟ كم أحب ان تتذكرني فعلا!".

ورجوتها:

"ألا أعطيتنِي بعض الإشارات!"

"هومليفاي يا أبله!"

هومليفاي لقد نشأت في هومليفاي وولدت فيها. لقد عشت حياتي كلها في هومليفاي. و لم أقم في آدمستوين إلا منذ ستة شهور ليس إلا.

"أو ايريسفاي!"

كانت هذه في الحيّ نفسه. هومليفاي في الأصل هي ايريسفاي!

"كليفرفاي إذاً!".

كان هذا الشارع هو الآخر يقع في المحيط المجاور. فعندما كنت طفلاً كثيراً ما كنت ألعب على مساحة الأرض الواسعة ما بين البيوت الفاخرة في كليفرفاي. كان المكان عبارة عن كتلة كبيرة من الدغل والأشجار. وظني أن المكان قد حوى أيضاً حوضا للرمل وأرجوحة قلابة، كما نُصبت بالمكان قبل بضع سنوات مقاعد للجلوس.

وتطلعت لفتاة البرتقال من جديد. وإذا بهزة تملأ كياني أشبه بما نُحسّ به حين نفيق من حالة تنويم عميق. ورحت أشدّ على يدها بقوة وأُلحّ في الشدّ حتى أوشكتُ أن أنفجر شهيقا، ثم صرخت فيها بلا تردد: "فيرونيكا!".

وملأت شفتيها ابتسامة عريضة، وقلت إن بعض الدمع قد سكن عند طرفي عينيها.

ومكثت غارقاً في عينيها لا تعرف عيناي ترنُّحاً ولا تردداً. لا شيء أصبح يردّني عنها. ونسيت وجلي وحيائي. وفي لحظة تجرأت فتعريت أمامها. وتجرّأت فسلّمت أمري لفتاة البرتقال بلا أي قيد. وكان عزائي في ذلك كبيرا.

ومما لا شك فيه أن لا وجود لألفة أشبه بنظرات شخصين تلتقي في حزم وإصرار وترفض في تلقائية فك ذلك التماسك الحميمي الوثيق.

لقد عاشت هذه الفتاة صاحبة العينين البنيتين في ايريسفاي، حيث كنا نلتقي كل يوم منذ أن خُلقنا أو بالأحرى منذ أن درجنا على النطق. كنا في بداية المرحلة الإعدادية في الصف نفسه، لكن ما لبثت فيرونيكا بعد أعياد الميلاد ان رحلت عن المدينة مع أسرها. حينها كان عمرها سبع سنوات وكان ذلك قبل اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة. ولم يرَ أحدنا الآخر بعد ذلك.

كنا دائما نلعب معاً على تلّة كليفرفاي الكبرى ما بين الأحراج والأزهار وما بين المقاعد والأشجار. ففي تلك الفترة عشنا معا حياة

السناجب بل حياة سناجب بكاملها. لكن حتى لو بقيتْ فيرونيكا في ايريسفاي لكانت طفولتنا البريئة انتهت حتما. فكم من مرة عاتبني الرفاق في فناء المدرسة على ذلك الميل للعب مع البنات.

وما لبثت إحدى الأغنيات ان جالت بخاطري فقد سمعها أحدنا في البيت فرحنا نردّدها في كل وقت حين نلتقي للعب في الخارج.

هل ثمة طفل جميل يريد اللعب مع طفلة جميلة؟ تعال نلعب طول النهار في مملكتنا العجيبة!

إنها الآن تقول لي "لكنك لم تتعرف إليّ. لم يكن لي من بدّ أن أسمعها تردّد عليّ خيبتها بل واستياءها تقريباً. فجأة أحسست بأن التي تخاطبني صبية في السابعة من العمر وليست امرأة ناضجة في العشرين".

ونظرت إليها من جديد فوجدت فستانها فاتنا مثيراً.. إلى حدّ يفوق الوصف حقاً. ورأيت جسمها يتنفس من خلال فستانها.. يتحرك صعوداً ونزولا ثم صعوداً فنزولا أشبه بموجة بحرية تتكسر على شاطىء جميل. كان فستانها ذلك الشاطىء الجميل.

وتطلعت إلى السماء فإذا بي ألمح فراشة صفراء تطير ما بين أوراق شجرة برتقال. لم تكن الفراشة الوحيدة التي رأيتها، فقد شاهدت منها كثيرا.

وأشرت إلى تلك الفراشة سائلا: "كيف لي أن أتعرف على يرقة صغيرة وقد مرّ زمن طويل على تحولها الى فراشة!".

وصارت لهجتها عنيفة

"جون أولاف"

و لم نقل أكثر من ذلك عن قصة تحول الطفلة إلى امرأة.

لكنّ جزءاً من أسئلتي ظل حائرا.

كاد لقائي بفتاة البرتقال أن يفقدني صوابي. فقد قَلبتْ كياني كله رأسا على عقب، و لم أجد بدا من أن أقتحم الأمر اقتحاما. قلت لها: "كان لقاؤنا في أوسلو. هناك التقينا ثلاث مرات و لم أفكر منذ ذلك الحين في شيء آخر تقريبا. فقد اختفيتِ فجأة وتبخرتِ مثل الدخان. وكان أسهل عليّ أن أمسك فراشة بيدي من أن أحتفظ بك. لكن ما الذي دعاك لأن تقيديني ستة شهور كاملة قبل أن نعود للقاء من جديد؟" لأنها بالطبع كانت مضطرة للذهاب إلى اشبيليا. كل هذا كنت قادرا على إدراكه. لكن هل كان قضاؤها ستة شهور بإسبانيا محتوما إلى هذا الحد؟ هل كان بسبب ذلك الدانمركي؟ ربما!

لعلك حزرت يا جورج ما قالته لي في هذا الشأن. لم يكن يسعني أن أعرف ذلك. لكنك تعرف ما يشغل أمك في الحياة. فمنذ أن بدأتُ في كتابة هذه الرسالة إليك وأنا اسأل نفسي إن كانت لوحة أشجار البرتقال الكبيرة ما تزال معلقة في الغرفة الخلفية. فقد تعودت أمك القول إن الزمن ما فتئ يغيرها حتى أفقدها اهتمامها بتلك اللوحة.

بل وأسأل نفسي حتى اللحظة التي أكتب فيها، ولكنني أتمنى لأجلك أنت ألا تكون أمك قد تخلصت من تلك اللوحة أو أودعتها سدة البيت. إن كان الأمر كذلك، فإنني أرى أن تسألها عن مصير تلك

اللوحة.وشرحت لي قائلة:

"قُبلت في مدرسة فنية، أو بالأحرى مدرسة للرسم تحديدا. لقد كنت مصرّة كل الإصرار على متابعة هذا الدراسة. وكان الأمر بالنسبة لي غاية في الأهمية".

"مدرسة للرسم؟" إنها تخادعني ."لكن لماذا لم تخبريني بذلك ليلة أعياد الميلاد؟".

وتباطأت في الإجابة فاسترسلتُ في الحديث:

"أتذكرين يومها سقوط الثلج ؟ أتذكرين مداعبتي لشعرك؟" "هل تذكرين رنين الأجراس حين وصول سيارة الأجرة؟ ثم اختفيتِ!"

"إنني أذكر كل شيء. أذكر ذلك كما اذكر فيلما سينمائيا. أذكره كما أذكر المشاهد الأولى من فيلم رومانسي.. جدا!".

قلتُ معترضا:

"لذلك لا أعرف ما الذي دعاك لأن تثيري كل هذا القدر من الأحجيات والألغاز الغامضة العجيبة!"

وكسا وجهَها خِمارٌ من وقار وقالتْ:

"ظني منذ لقائنا بقطار فروغنر الكهربائي أنني لم أفقد الحس بجاذبيتك وإغرائك. بل يمكنك القول إنني أحسست بذلك من جديد، ولكن بكيفية مختلفة كل الاختلاف هذه المرة. ثم التقينا بعد ذلك بعض المرات، لكنني اعتقدت أننا نستطيع تحمل الفراق لستة شهور، وظننت أننا قد نكون في حاجة إلى ذلك الفِراق. كان الواحد منا ونحن طفلين أقْرب إلى الآخر ولكننا اليوم لم نعد طفلين صغيرين. بل لعلنا الآن في

حاجة إلى بعض الوهن والضنى. أقصد حتى لا نعود للعب معـا بقـوة العادة وحدها. فقد أردتُ منكَ أن تكتشفني من جديـد، وأردتُ أن تتعرف عليّ كما تعرفتُ عليك. ولذلك السبب سعيتُ لأن أريك مـن أنا."

لست أذكر ما قلتُه لها على وجه التحقيق، ولا أذكر أيضـا كـل كلمات فتاة البرتقال. فما أكثر ما كنا، ونحن نتقدم في الحديث، نقفـز من موضوع إلى موضوع، ومن واقعة إلى أخرى!

وما إن واتتني الفرصة حتى سألتها: "وذاك الدانمركي؟".

شعرتُ كأنني أتوسل إليها أن تقول لي شيئا. فما أحمق السؤال. وكـم أحسستني دنيئا حقيرا!

وفي شبه قساوة جاء ردُّها مقتضباً: "إنه يدعى موجنس وهو بمدرسة الرسم أيضا. إنه طالب موهوب. من المؤنس أن تكون مع اسـكندنافي آخر."

وأصابني الدوار: "ولكن كيف تسنى له أن يعرف اسمي؟"

وتساءلت لِمَ لَمْ يحمرَّ وجهها في تلك اللحظة بـالذات، ولكـني لم أعرف ذلك. فلعل الأمر ليس بهذه السهولة بسبب فستانها الأحمـر، ثم أقبل الليل وغشى كل شيء، ولم يبق سوى بريق ذهبي تشعه بضعـة مصابيح من الحديد المطرّق على تلك الساحة الخالية. كان كل واحـد منا يمسك بيده كأسا من النبيذ الأحمر التي طلبنا منها زجاجـة قبـل قليل. وأجابتْ "لقد رسمت صورة لك، من وحي الذاكرة فقط ولكـن الصورة قريبة الشّبه بك. وقد راقت لموجنس. وسوف أريـك إياهـا

يوما. لقد أسميتها ببساطة: "جون اولاف".

فقد كانت فيرونيكا، إذاً، هي التي رسمت صورة وجهها على تلك البطاقة البريدية. لم أكن في حاجة لأن أسألها حول ذلك. لكنّ سؤالا ما فتئ يلحّ عليّ: "إذاً ليس موجنس هو الذي كان في سيارة التويوتا؟".

وضحكتْ، وبدت كأنها تحاول تغيير موضوع الحديث: "لأنك ما كنت تصدّق، على أي حال، بأنني لم أرك في يويغستورغيت في ذلك اليوم، فقد حضرتُ إلى هناك من أجلك أنت!".

لم أفهم منها شيئاً فقد كان حديثها أشبه بالألغاز. ولكنها استرسلت في الحديث قائلة:

"بدايةً كان لقاؤنا في قطار فروغنر الكهربائي. ثم تسكّعتُ قليلا في المدينة وعرفت المقهى الذي كنتَ تتردّد عليه.

لم أكن قد دخلت ذلك المقهى من قبل قط، لكن قصدت إليها ذات يوم بعد أن اشتريت كتابا للرسم المنسوخ للفنان فيلاسكيز. ومكثت هناك أتصفحه.. وأنتظر".

"هل أنا الذي كنت تنتظرين؟".

سؤال سخيف، كنت أعرف ذلك، وكادت تجيب في غضب: "أتدّعي أنك كنت وحدك تفتش في كل مكان؟ فأنا أيضاً جزء من هذه القصة وبالتأكيد لستُ مجرد فراشة تسعى أنت للإمساك بها!".

لم أجرؤ على التوغل في أعماق هذه الأسئلة أكثر مما توغلت. فهي

الآن من الخطورة بمكان، إلى درجة اكتفيت فيها بالقول: "ولكن مـــاذا عن يونغستروغيت؟".

"لا تكن سخيفاً إلى هذا الحد يا جون أولاف، مع ذلك فقد قلت لـــك ذلك من قبل. فقد كنت أسأل نفسي: أيـــن جـــون أولاف؟ وأيـــن سيذهب لكي يجدني، إن كان يرغب حقا في إيجادي، مثـــلا بعـــد ان رآني مرتين مع كيسي الكبير من البرتقال؟ لم أكن على يقـــين تـــام، ولكني تصورت أنك قد تذهب إلى سوق الفواكه الكبـــير في المدينـــة لعلك تراني. فقد توجهت أنا أيضا لتلك السوق عساني أراك، لكـــني ذهبت إلى أماكنَ أخرى أيضا. فقد ذهبت الى كليفرفاي وذهبـــت الى هومليفاي. ومررت ذات يوم ببيتكَ لأحيي أبويك ولكنني ما لبثـــتُ أن شعرت ببعض الندامة حتى فُتح البابُ لي ولكن بعد فوات الأوان. فقـــد غمغمت ببعض الكلمات حين تذكرت البيت الـــذي أمضيـــت فيـــه طفولتي وعدت إلى آثار الماضي. و لم أجد حاجة لأن أقـــدم نفســـي. سجل عندك ذلك إن شئتَ، فقد تعرّف عليّ أبواك للتـــــو ودعـــواني للدخول. ولكني قلت لهما إني على عجل. وقد أخبرتهما أني ســـألتحق بمدرسة للرسم في اشبيليا."

لم أكن على يقين من أني صدقتُ حديثها: "ولكن لم يقولا لي عـــن ذلك شيئا!".

وتباهى وجهها بابتسامة عريضة، ورأيت أنها تشبه الجوكندا قليـــلا ربما لأنني أذكر دوما انها تخرجت من مدرسة للرسم، ردت قائلة: "لقـد

رجوهما ألا يخبراك بمجيئي وقد اضطررت لاختلاق مـــبرر حـــتى لا يطلعك أحد على تلك الزيارة."

كنت منذهلا قبل ذلك بأيام قليلة، كان لا بد أن أعـــرض علـــى والديّ تلك الصورة التي تلقيتها من اشبيليا. لقد دخلت عليهما مسرعاً وأنبأهما بأنني سأتزوج قريباً. والآن فقط فهمت سرّ اندفاعهما لقرضي مبلغاً من المال لشراء تذكرة الطائرة، فلم يشككا حـــتى في جـــدوى السفر إلى إشبيليا في منتصف الفصل فقط لزيارة فتاة لم ألتق بها ســـوى مرتين أو ثلاث مرات في أوسلو.

وواصلت فتاة البرتقال حديثها قائلة:

"ليس من السهل دائما العثور على شخص معيّن في مدينة كبـــيرة ولا سيما الشخص الذي نكون قد التقينا به مصادفةً، اللـــهم إلا إذا كنـــا نتمنى ذلك، وأحيانا يكون ذلك تحديدا هو ما نتمناه. فقـــد ســـافرتُ لأدرس الرسم و لم يكن يسعني أن أرتبط بشخص وأنا على أُهبة ســـفر. لكن عندما يقضي شخصان معظم وقتهما في البحث كل منهما عـــن الآخر فليس في لقائهما بمحض الصدفة ما يثير الدهشة.

وإذا بي أغيّر الموضوع، أو بالأحرى حلقة الحديث:

"هل شهدتِ قداس ليلة أعياد الميلاد؟".

فهزت رأسها: "لا أبدا، وأنت؟"

وهززتُ رأسي: "ولا أنا أيضا!".

وراحت تشرح لي:

"ذهبتُ الى قداس الساعة الثانية، ثم تسكعتُ في الشوارع في انتظـــار

القُدّاس التالي. هذه المرة كان علي أن أظهر للناس. إنها أعياد الميلاد وكنت على وشك أن أغادر البلاد!"

ولا أظن أن الصمت لفنا طويلا. لكن بقي في الأمر نقطة حساسة لم أجد بدا من العودة إليها.

"اذاً ليس موجنس الذي كان بسيارة التويوتا؟".

فترددت قليلا قبل أن تجيب:

"لا أحد".

وسألتها ثانية:

"لا أحد؟".

"إنه صديق قديم. كنا ندرس معا في الصف نفسه في الثانوية.

وأظن أنني ابتسمت. لكنها ما لبثت أن أضافت:

"لا يستطيع أحدنا أن يمتلك ماضي الآخر يا جون أولاف. والمسألة كلها أن نعرف إن كنا نملك مستقبلا مشتركاً."

وقلت لها كلاما غاية في الرعونة لأنني بالتأكيد لم أجرؤ على الاعتقاد أن فتاة البرتقال وأنا قادران على أن نقتسم مستقبلا واحدا. فقلت لها:

To be two or not to be two, that is the question

وظني أنها وجدت هي الأخرى هذا التعليق سخيفا. وحتى ألطّفَ الجو بيننا تلطيفا كاملا رحت أغير الموضوع وصحت فيها: "ولكن ماذا عن كل تلك البرتقالات؟ ماذا عساك كنت ستفعلين بها؟ أجل ما الذي كنت تنوين فعله بهذه البرتقالات؟"

وضحكتْ عن طيب قلب ثم أجابتْ: "نعم لا شك في أن الموضوع يشغلك حقا. فبفضل كل هذه البرتقالات نجحت في استقطابك الى يونغستورغيت. فهذا البرتقال هو الذي جعلك تحدثني عن رحلة التزلج إلى غرينلاند مع ثمانية كلاب ومركبة الجليد وعشرة كيلوغرامات من البرتقال".

لم أجد في نفسي أي داعٍ لإنكار تلك الحقيقة. ولكنني سألتها ثانية: "ما الذي كنت تنوين فعله بكل تلك البرتقالات؟".

راحت تحدّق في عينيّ على نحو ما حدّقت في تلك المقهى بأوسلو. وتحدثت على مهل:

"كنت سأطليها بالألوان!"

"تطلينها بالألوان؟ إنها تخدعني "أتطلين كل البرتقال؟".

فهزت رأسها في غنج ودلال:

«كان عليّ أن أتدرب على طلي البرتقال بالألوان قبل التحاقي بمدرسة الرسم في اشبيليا."

"وكنتِ ستطلين كل هذا الكم؟".

"كان عليّ أن أطلي الكثير من البرتقال، هكذا كان التدريب!".

فهززتُ رأسي مترعجًا. هل تسخرين مني؟ "لكن ألم يكن يكفيكِ شراء برتقالة واحدة ومحاولة طليها مرات عديدة؟"

فأطرقت برأسها وهي تتظاهر بنفاد الصبر ورددت قائلة:

"ظني أننا لن نجد من المواضيع الكثير مما يمكننا الحديث فيه في الأوقات

القادمة، لأنني أخالك لا ترى إلا بعين واحدة."

"أيهما؟"

"لن تجد برتقالة واحدة تشبه الأخرى يا جون أولاف. بل ولن تجد ساقين من العشب متماثلين تماثلا كاملا. وهذا هو سبب وجودك هنا الآن."

هل أصابني حمق أو بله؟ لم أعد أفهم شيئًا مما تقول:

"أتقصدين أنه لا توجد برتقالتان متماثلتان؟".

قالت:

"أنت لم تقطع كل هذه المساحة الطويلة حتى اشبيليا لأنك ترغب في لقاء "امرأة". فلو كانت تلك رغبتك لكنتَ قطعت جداول كثيرة بحثًا عن الماء، لأنه ما أكثر النساء في أوروبا، ناهيك عن جداول الماء أيضا لكنك جئت لكي تراني، أنا بالذات، وليس مني سوى نسخة واحدة. مثلما لم أرسل بطاقة إلى رجل في أوسلو، بل أرسلتها إليك أنت. وقد رجوتك أن تتعلق بي، وتوسّلتُ إليك أن تثق بي قليلا."

ومكثنا نتحدث طويلاً بعد أن أغلق المقهى أبوابه. وحين استنفدنا الحديث قمنا من مجلسنا، وجذبتني جذبًا إلى جذع شجرة البرتقال التي كنا نجلس إليها، ولعلني أنا الذي دفعتها إلى ذلك الجذع دفعًا، فلستُ أذكر ذلك على وجه التحقيق. لكنها هي التي ما لبثت أن باحت:

"الآن يمكنك أن تقبّلني يا جون أولاف، لأنني الآن نجحت في أن أحتويك أخيراً!"

ووضعتُ يدي على عظام كتفيها وقبّلتُ فاهها في رفق. فقالت: "لا، أريدك أن تقبلني حقًا! ثم ضُمني إليك ضمًّا!"

فاستسلمت لما أمرت به فتاة البرتقال استسلاماً. فقد صارت هي التي تحدد القواعد. كان طعمها مثل طعم الفانيلا، وكان شعرها يفوح عطراً ندياً مثل رائحة الحمضيات الفضية الطرية.

وأحسست إحساسًا قوياً بأنّ سنجابين يضطربان على قمة شجرة البرتقال. لم أكن على يقين باللعبة التي كانا يلعباها، لكنها لعبة كانت تستغرقهما استغراقاً.

لن أكتبَ المزيد عن تلك السهرة يا جورج، فقد أعفيك من ذلك، لكنني أريدك أن تتحملني، وتسمع كيف انتهت تلك الليلة.

لم يسعني الوصول إلى الفندق قبل منتصف الليل. لكنّ فتاة البرتقال كانت تترل مع فتاة من "الكتشينات" في غرفة مأجورة عند إحدى السيدات. فقد زيّنت جدران تلك الغرفة برسوم مائية لأشجار من البرتقال المزهرة. وقد علقت في إحدى زواياها لوحة زيتية كبيرة تحمل صورتي. لم أعلّق على هذه اللوحة، ولا هي أيضاً. ولو بادرنا بأي تعليق لكنا لامسنا عن قرب سحر هذه الأسطورة، لأن لا سبيل لأنْ يُقالُ كلُّ شيء بالكلمات. هكذا كانت القواعد، لكنني ما لبثت أن لاحظتُ أن عينيّ قد التصقتا بذلك الرسم وقد صارتا أكبر وأكثر زرقة مما هما في الحقيقة، فكأنها اختصرت في عينيّ كلّ ما انطويْتُ عليه من شخصية وذاتية. وحتى ساعة متأخرة من الليل ما فتئت أقصّ على فرونيكا بعضًا من حكايات طويلة بتفاصيلها المسلية، فحدثتها عن فتلة

قسّ مريضة وأخواها الأربع وأخويها الاثنين، وعن كلب لابرادور كئيب. ورويت لها تلك القصة الطويلة عن تلك الرحلة المأساوية بالتزلج إلى غرينلاند مع ثمانية كلاب ومركبة جليد وعشرة كيلوغرامات من البرتقال. وحكيت لها عن تلك الفتاة النشطة التي كانت تعمل كرجل أمن بمفتشية البرتقال في منظمة الأمم المتحدة، وتخوض بمفردها معركة شجاعة ضد فيروس جديد أصاب البرتقال. وقصصْتُ عليها كل ما كنت أعرفه عن فتاة كانت تعمل في روضة أطفال وكان عليها أن تذهب إلى السوق كل يوم لشراء ست وثلاثين برتقالة متماثلة كل التماثل. وأفرغت ما في جعبتي عن فتاة شابة كانت تعِدّ محلياها من البرتقال لمائة من المدعوين في كلية الاقتصاد. فقد رويت لها حياة فتاة في التاسعة عشرة بكاملها، كانت متزوجة من أحد طلبة ذلك المعهد، وقد وسِعها أن تُنجب طفلا يراه الجميع منفرّاً مثيراً للاشمئزاز. ووصفتُ لها تلك الفتاة الشجاعة التي ما فتئت تضحي بنفسها حتى تُهرّب في كامل السرية الغذاء والأدوية إلى أطفال إفريقيا الفقراء.

وما لبثت فتاة البرتقال أن وافقتني على ذلك فراحت تذكرني بتجارب مشتركة من طفولتنا في هومليفاي وايريسفاي. من ناحيتي كنت قد نسيت كل ذلك تقريبًا، لكن قصتها ما لبثت أن أيقظت عندي شيئًا من ذكريات مبهمة.

حين صحونا من النوم كانت الشمس تسطع عالية في السماء، فقد سبقتني هي إلى الاستيقاظ، ولن أنسى ذلك الإحساس الذي شعرت به

حين جاءت توقظني، فلم أعرف في ذلك الإحساس ما كان منه واقعًا وما كان منه خيالا، بل ولعل هذا النمط من التمييز قد صار مُحالا، فلم أكن أعرف سوى أنني لم أعد أسعى لفتاة البرتقال سعياً بعد أن وجدها أخيراً.

وأنا أيضا صرت أعلم مَنْ هي فتاة البرتقال، لكنْ فاتني طويلا أن أعرف حقيقتها قبل أن أعرف أنّ اسمها فيرونيكا.

عند هذا الحد من القراءة تقريبًا طرقتْ أمي باب غرفتي من جديد.

"إنها العاشرة والنصف يا جورج. لقد أعددنا مائدة الطعام، هل بقي لك من القراءة الكثير!"

فأجبت بلهجة فيها شيء من تفخيم:

" عزيزتي فتاة البرتقال الصغيرة. لقد فكرت فيك. هل تستطيعين الانتظار قليلا؟" .

لم يسعني أن أراها على الجانب الآخر من الباب، ولكنني سمعتها وقد لفّها صمت كامل. وأضفت:

"هناك أوقات نادرة في الحياة يجب أن نذوق فيها الوهن والضنى."

وتعذر وصول الرد فأضفت:

" هل ثمة طفل جميل يريد... " وظل الصمت كاملا على الجانب الآخر من الباب، لكن ما لبثت أمي أن التصقت بالباب وهي تهمس:

" يريد اللعب مع طفلة جميلة..."

لم يسعها أن تدندن بأكثر من ذلك، فقد اختلط همسها بالبكاء.

وهمستُ أنا أيضاً:

"تعال نلعب طول النهار في مملكتنا الصغيرة العجيبة."

وتنهدّتْ بعمق ثم سألت وهي تشهق:

"هل حقاً: يتحدث عن هذا؟"

فصحّحت لها: "بل قولي كان يتحدث!".

لم ترد عليّ بكلمة ولكن رأيتها من مقبض الباب، وقد كانت تستند إليه استناداً.

"أنا قادم بعد قليل، لم يبق لي سوى خمس عشرة صفحة."

ولكن ما فتىء الصمت يلفها، فلعلها لم تقدر على الكلام، لم أكن أعي تماماً أي اثر بالغ أحدثته في نفسها حقًا.

قلت لنفسي: "مسكين أنت يا جورجن. لأول مرة أراك تنزل الى المرتبة الثانية من الأهمية. كانت مريام غارقة في النوم. الآن صار الحديث يدور بين أبي وأمي وأنا. كنا ذات يوم أسرة صغيرة في هومليفاي. وكان في الصالون جدتي وجدي أيضاً، فهما اللذان شيّدا هذا البيت قديماً. ساعتها لم يكن جورجن سوى زائر علينا."

وفكرت ملياً في كل ما قرأت، وتأكد لي أن شيئاً في القضية بات ثابتاً. فقد أيقنت بأن والدي لم يسخر مني يوماً، فهو لم يختلق هذه القصة عن فتاة البرتقال، فلعله لم يخبرني بكل شيء عنها، لكن ما حكاه كان صحيحاً.

صحيح أنني لا أذكر أني رأيت يوماً لوحة لأشجار برتقال في الغرفة

الخلفية، فأنا لا أذكر حتى مجرد برتقالة واحدة منها. فلم أر سوى بـلقي اللوحات التي كانت أمي قد رسمتها، فقد رأيت رسومها المائيـــة مـــن الليلك وكرز الحديقة.

مواضيع عديدة من هذا النوع كنت أود أن أسأل فيها أمـــي وإلا لم يبق لي سوى أن أتأكد بنفسي بالتحري في سدّة البيت. لكنني أعـــرف أن أمي كانت في صغرها تقيم في ايريسفاي، فقد ذهبتُ في أحد الأيـام إلى دارها الصفراء لأحمل إليها رسالة وصلتْ على عنواننا البريدي.

فلعلني سأكتشف المزيد عن لوحات أشجار البرتقال حين أواصل قـراءة قصة والدي. لكنّ سؤالا مُهِمّاً آخر ما يزال يحيّرني: هل كان والـــدي يكتب كثيراً عن المنظار هوبل؟

المنظار هوبل يحمل اسم الفلكي أدوين باول هوبل الذي أثبـــت أن الكون في حالة تمدّد، فقد اكتشف في البداية أن سديم أندوميد لم يكـن مجرد سحابة من الغبار والغاز في المجرة التي نسبح فيها، بل أنـــه مجـرة مستقلة بذاتها كلياً، خارج درب التبانة. ولقد بات هذا الاكتشاف بأن درب التبانة ليس سوى مجرة من بين مجرات عديدة كفيلا بأن يُحـدث ثورة في رؤية علماء الفلك للفضاء.

لعل أهم اكتشافات هوبل إثباته العام ١٩٩٩ أن المجـــرّات كلّمـــا بَعُدتْ عن درب التبانة ارتفعت سرعة تحركها في الفضاء. وتشـــكل هذه النظرية بحد ذاتها أساس ما ندعوه بنظرية الانفجار الأعظم (البيـــغ بانج) التي ترى – ويبدو أن كل الفلكيين قد اعتنقوا هذه النظريـــة – بأن الكون قد ولِد عن انفجار عظيم حدث قبل اثني عشر أو أربعـــة

عشر مليون سنة، كان ذلك قبل زمن بعيد.. بعيدٍ جدًا!

فإذا كان كل ما حدث في تاريخ الكون قد حدث في وقت وجيز لا يزيد عن أربع وعشرين ساعة فإن ظهور الأرض فيه لم يأت إلا عصْراً، وتكون الديناصورات قد ظهرت قبل منتصف الليل بقليل، ولم تشهد البشرية وجودَها إلا قبل ميلاد منتصف الليل بثانيتين اثنتين ليس إلا.

هل تفهم ما أقول يا جورج؟ ومن جديد جلستُ إلى الكمبيوتر بعد أن اصطحبتك إلى الروضة، كنا يومها ذات اثنين.

كنتَ في ذلك الصباح متأففاً متذمراً قليلا، فقسْتُ درجة حرارتك لكنك لم تكن محموماً. وفحصت حلقك وأذنيك، وفحصت غددك اللمفاوية، ولكنني لم أجد عندك شيئًا. فلعل بعض الزكام قد أصابك مع قليلٍ من إرهاقٍ بعد نزهة عطلة نهاية الأسبوع.

كدت أتمنى لو أصابك بعض الإعياء حتى تمكث معي بالبيت طول النهار، لكنني كنت مضطراً على أي حال لأنهي عمل الكتابة على أفضل ما يرام.

أمضينا عطلة ذلك الأسبوع في فجيلستون، ففي صباح يوم السبت الباكر انطلقتْ أمك مع دلو حليب قديم وعادت من نزهتها الطويلة بأربعة كيلوغرامات من التوت الشمالي، وقد حرنْتَ يا جورج قليلا وأصررت على قطف العِنبيّات من الجبل بنفسك، واستطعت في غضون تلك الظهيرة أن تجمع بمفردك رطلا كاملا من نبات الحجريات

السوداء، وظللنا بالطبع نرقبك عن كثب من بيتنا الريفي. بعد ذلك أعدّتْ لنا أمك خثيراً من الحجريات السوداء ما لبثنا أن أكلناه يوم الأحد. وظني أنك وجدتَ طعمها حامضًا بعض الشيء، لكن لم يكن لك بدّ من أكلها، لأنك أنت الذي قطفت تلك العنبيات.

ورأينا خلال ذلك الصيف الكثيرَ من حيوان اللاموس، فأتيح لك أن ترسم واحدة منها في دفتر يوميات العائلة، بقلم أصفر وآخر أسود. كان الرسم جميلا، ومن يُمْعِن النظر فيه يجد أن الحيوان الذي رسمتَه لاموسٌ حقًّ، وليس فيه من عيبٍ سوى أنك زينته بذنَبٍ أفرطتَ في طوله قليلا. وقد كتبتْ أمك على ذلك الرسم من باب الحيطة كلمة "لاموس" أضافت إليها "جورج ١٩٩٠/٩/١".

ظني أن دفتر اليوميات هذا ما يزال موجوداً! فهل هو موجودٌ فعلا يا جورج؟.

أمضيتُ أمسية ذلك اليوم بكاملها تقريباً في قراءة ذلك الدفتر من البداية إلى النهاية. كنتَ في سريرك. قرأته مرات عديدة، وما كدتُ أنتهي من القراءة، وألقي نظرة جديدة على رسمك فيه حتى عدت للقراءة فيه من البداية.

لم أتوقع أن تكون تلك الإقامة بالبيت الريفي هي آخر إقامة نقضيها معاً قبل أعياد الميلاد.

وما لبثتْ فيرونيكا أن أخذت الكتاب من يدي، ثم وضعته في أعلى الرف رغم أن مكانه دومًا كان على المدفأة. وقالت ببساطة:

"هيا لنشرب شيئاً من النبيذ!"

لكن لنعد إلى إسبانيا.

أمضيت يومين كاملين عند فيرونيكا في إشبيليا. ثم كان عليّ أن أعود من حيث أتيت، وشاطرتني فيرونيكا وصاحبة الشقة ذلك الرأي.

وكان عليّ أن أعوّد نفسي على انتظارها لثلاثة شهور أخرى حتى تتم دراستها في مدرسة الرسم. فقد وطّنت نفسي على حرقة الانتظار، وتعلمت كيف أثق بفتاة البرتقال.

ورأيت بالطبع أن أسألها إن كانت ما تزال وفيّة للوعد الذي قطعَتْه لي بأننا سنكون معاً في كل يوم من أيام الفصل القادم. لم أر ذلك بالطبع مكسباً، لأنني لم أُفلح بالتزامي بالقواعد. وأجابت فتاة البرتقال بعد تأمل طويل. ظني أنها كانت تفتش عن إجابة ذكية. فقد أعلنت باسمة: "سأكتفي على الأرجح بخَصْم اليومين اللذين سرقتَهما مني هنا!."

في طريقنا إلى المطار لمحنا حمامةً ميتةً في المجرى المائي، وفجأة توقفت فيرونيكا مرتعشة، فاستغربتُ لتأثرها لهذا الحدّ بعض الاستغراب. ثم التفتتْ إليّ ووضعت رأسها على عنقي وذرفت الدّمع في غزارة. كنا في عز الشباب، وكنا في أعماق قلب الأسطورة. لا أحد يصدق أن يرى طيراً ميتاً في المجرى المائي. فما بالك إذا كان هذا الطير حمامة؟ هكذا كانت القواعد، وبكينا كثيرًا. فقد كانت الحمامة البيضاء نذير شؤم علينا.

وما أن رجعتُ إلى أوسلو حتى عدت للتركيز في دراستي من جديد. كان عليّ أن أراجع كثيراً، لأنني غِبْتُ عن دروسٍ مهمة كثيرة خلال الأسبوع المنصرم. ثم كان عليّ أن أستدرك قليلا مما ضاع مني بسبب كل تلك النّزه التزلجية، وكل تسكعاتي في المدينة خلال الشهور الأخيرة، لكني صرت الآن أملك قدراً أكبر من الوقت، لأنني لم أعد في حاجة لأن أتحرى المدينة بحثاً عن فتاة البرتقال، ولم تعدْ بي حاجة لمحاولة البحث عن صديقة صغيرة أيضاً. إن العديد من زملائي ينفقون كثيراً من الوقت في مثل هذا النوع من النشاط.

لكنني ما أزال أنتفض أحياناً عند رؤية معطف نسوي أسود اللون، وفستانٍ أحمرَ في انتظار قدوم الأيام الجميلة. فما رأيت برتقالة إلا فكّرت في فيرونيكا. وحين أذهب للتسوّق في السوق أتوقف أحياناً عند صندوق برتقال الدكان. لقد صرت أدرك الآن أنْ لا وجود لبرتقالتين متماثلتين. وفي هدوء تام كنتُ أستعرض البرتقالة تلو البرتقالة، وإذا اشتريت منها اخترت أكثرها جمالاً، فأنفق في ذلك ما يقتضيه الاقتناءُ من وقت مهما طال، وكنت أحياناً أعصر تلك البرتقالات عصراً. وقد أعددتُ منها ذات يومٍ بعض المُحَليات وقدمتُ منها لغونار ولبعض الأصدقاء أيضاً. كان ذلك ذات مساء اجتمعنا فيه في شقتنا حول لعبة البريدج.

كان غونار في تلك الأثناء طالباً في السنة الثانية، في كلية العلوم السياسية. وكان هو الذي يطبخ لنا في العادة، وكان دوما يُعِدُّ لنا على نار خفيفة بعضَ القطع من لحم البقر أو وجبةٍ من سمك القادس. وحتى

وإن لم ينتظر مني يوماً أي شيء في المقابل، فقد كان مـــن المُمْتِـــع أن أفاجئه يوماً بطبق من مُحليات البرتقال. وقد أبدعت ما وسعني الإبداع في إعداد هذه المُحلّية، وكان لأمي، أو بالأحرى جـــدتي، الفضـــل في إيجاد طريقة الإعداد في كتاب قديم للطبخ. وأكثر مـــن ذلـــك فقـــد عرضتْ جدتي أن تحل محلي في إعداد تلك المُحليات، فلم يكن ليســـع جدتي أن تدرك أن سرّ المتعة الكاملة في ذلك الطبق أن أعِدّه بنفســـي. فظني أنها كانت أبعد ما يكون عن الاشتباه بصلة ذلك الطبق بالفتـــاة فيرونيكا.

ثم عادت يا جورج إلى النرويج، ففي منتصف شهر تمـــوز كـــانت عائدة من إشبيليا، وكنت في استقبالها بالمطار، وما أكثر مـــن كـــانوا شهوداً على لقائنا الكبير حين مرت بحاجز الجمارك بحقيبتين كبـــيرتين، حاملة لوحات ورسوماً كبيرة الحجم. وأمضينا نحو ثلاثين ثانية لم نُقْدِم فيها على حركة سوى تحديقِ كل منا بالآخر، كأننا أردنا أن نثبت أننـــا نملك من قوة الطبع ما يجعلنا نتحمل الانتظار مزيدًا مـــن الثـــواني. ثم امتزجنا في عناق حار فكان العناق ملتهباً حقاً رغم أن اللقـــاء لقـــاء مطار. ومررنا بالقرب من سيدة عجوز فصرختْ فينا: "ألا تستحيان!" فاكتفينا بالضحك لأننا لم نجد على الإطلاق ما يدعونا للخجـــل. ألم نحتمل الانتظار نصف عام؟

وفي رِواق الوصول بدأت فيرونيكا تعرض عليّ إبداعها من الرســـوم. وفي عجل استعرضتْ صورة "جون أولاف" فوسعني أن ألمحها وأســـحل

من جديد إضاءةً زرقاءَ حادة تشع من عينَي اللوحة. لم يكن في وسعي الحديث في ذلك، لكن فيرونيكا كانت مفعمة بالتعليقات المبتهجة فيما يخص اللوحات الأخرى. كانت تثرثر مثل الطاحونة، و لم تحاول أن تخفي اعتزازها باللوحات التي كانت تطل بها عليّ، و لم تخف عني أنها تعلمت الكثير أثناء الفصل المنصرم.

أمضينا باقي الصيف نتناجى في هديلٍ ونجوى، وذهبنا إلى جزر فجور في أوسلو، وإلى شمال البلاد، وإلى المتاحف والمعارض، وقضينا لساعات متأخرة من الليل أمتع السهرات وأغناها على دروب تياسين السكنية.

ليتك رأيتَها يا جورج! ليتك رأيتها وهي تتألق في المدينة. ليتك رأيت هيئتها المتأنقة الظريفة في المعارض، ليتك سمعت ضحكتها التي كانت تحثُّ ضِحْكتي حثاً إلى حدّ القهقهة أحياناً. لقد كان الضحك دوماً أكثر الأشياء عندي إثارة للعدوى.

وما لبث الضمير "نحن" أن أصبح في الغالب أكثر الضمائر المحببة إلينا. فبعد أن كان الواحد منا يقول "غداً سأفعل - أي"أنا"- كذا أو كذا "، أو يسأل أحدنا الآخر -أي "أنت"- أو -"أنت"- ماذا ستفعله -أو تفعلينه"- غداً، صرنا فجأة نقول في بداهة لا تَردّد فيها: "أنستطيع "نحن" أن نأخذ الباخرة ونذهب للسباحة؟" أو "أنمكث بالبيت ونطالع؟"، أو "هل أعجبتنا هذه المسرحية". إلى أن أصبحنا ذات يوم نقول: "نحن سعداء جداً!"

إننا حين نستعمل الضمير "نحن" نضع شخصين خلف عملٍ مشترك،

وكأن الشخصين معاً يشكلان كائناً واحداً مركّباً. ففي العديد من اللغات تجد عدداً مميزاً يُستخدَم للإشارة إلى شخصين اثنين، فقط اثنين، لا ثالث لهما، إنها صيغة المثنى أو ما هو مشترك ما بين اثنين، ورأيي أن الإشارة بهذه الصيغة مفيدة أيما إفادة، لأنك أحياناً لا تجد خلف الفعل لا شخصاً واحداً ولا عدداً من الأشخاص، فنكون "نحن الإثنين"، كأنّ "نحن" هذا شيءٌ لا يقبل الانفصامَ بأيِّ حال.

هكذا إذاً صارت القواعد الأسطورية تدخل في حياتنا من باب هذا العدد المفاجىء وكأنه بفعل سحر ساحر. "الآن نعد العشاء" "الآن نفتح زجاجة نبيذ" "لنذهبْ إلى النوم!" ألسنا نلامس السفاهة والصفاقة ونحن نتحدث على هذا النحو؟ الأمر على أي حال مختلف كل الاختلاف من أن نقول مثلا "لتذهب قبل فوات الأوان، إني أريد أن أنام!"

ولا شك أننا حين نلجأ للمثنى نكتشف قواعد جديدة كل الجِدّة "هيا بنا نقوم بجولة!". يا لها من جملة يسيرة يا جورج، أربع كلمات ليس إلا، ولكنها كلمات تخبرك بفعل مشبع بالدلالات يغوص في حياة شخصين على هذه الأرض. وفي هذا السياق لا يقتصر الحديث في اقتصاد الطاقة على عدد الكلمات المستثمرة في الحديث. فحين تدعوني فيرونيكا "لنستحم!" "لنأكل!" لنذهب إلى النوم!" لا حاجة لنا لأكثر من دشّ واحدٍ ولمطبخٍ واحدٍ ولسريرٍ واحد!

كان وقع هذا الضمير الجديد كالصدمة على نفسي، وصارت "نحن"

وكأن قرطاً تحلّق بعد شتاتٍ. وكأن العالم بأسره انصهر انصهاراً في وحدة كاملة لا تعدلها أي وحْدَة.

إنه الشباب يا جورج! طيش الشباب وخلوّ البال!

ولكن ما لبثت أن خطرتْ لي أيضاً ذكرى تلك الأمسية اللطيفة التي قصدنا فيها إلى شبه جزيرة "بغدوي" نتطلع منها إلى نهر "فيورد". فمن حيث لا أدري وعلى حين غرة مني باحت نفسي: "لم نأت إلى هذه الدنيا إلا لهذه المرة!"

وردت فيرونيكا وكأنها رأت في الذكرى ما يستحق الذكر "إننا الآن هنا!".

ورأيت أنّ في نفسها رغبة لِكَسْح ما سعت إليه نفسي فأضفت: "كم أحلم بأمسيات كمثل هذه، أعلم بأنني لن أعيشَ مثلها ما حييت!".

لم ينطق لساني بهذه الأبيات من قصيدة للشاعر أولاف بول إلا ليقيني بإن فيرونيكا تعرفها أيضاً. فقد قرأنا يوماً هذه القصيدة معاً.

والتفتت فيرونيكا إليّ فجأة وقرصت بين أصابعها شحمة أذني وهي تقول: "إن لم تكن هناك فسوف تكون هنا! يا فتىً يا محظوظ."

وأقبل الخريف والتحقتْ فيرونيكا بأكاديمية الفنون الجميلة، بينما استأنفت دراستي في الطب. وما إن انتهت الدورة الأولى حتى صارت المحاضرات أكثر فأكثر أهمية.

كنا نقضي معاً ساعات الزوال وما يليها من سهراتِ الليل كلما

وجدنا للقاء سبيلا، ونحرِص كل الحرص على أن يكون اللقاء يومياً. وأخيراً ما لبثت فتاة البرتقال أن أصرّت على استعادة اليومين اللذين كنت أُدين هما إليها، فتستغني عني فيهما. وظنّي أنها لم تقصد من ذلك غير المشاكسة، أو لعلها شاءت أن تكون مضرِباً للمثل. كان علينا أن نستمر في التمسك بالقواعد، لأن الأسطورة لم تنْتهِ بل كانت لا تزال على الأبواب. كانت هذه الأسطورة تتناهى من حولنا بلا انقطاع، وقواعدها تتضاعف من غير توقف.

هل تذكر يا جورج ما قلتُه لك يوماً في شأن هذا النوع من القواعد؟ إنها هذه الأشياء التي يجب إما أن نفعلها وإما أن نتخلى عنها من غير أن نسعى لفهمها بالضرورة. بل لسنا بحاجة للحديث عنها.

في أوسلو أيضاً استأجرت فيرونيكا غرفة مزوّدة بمطبخ صغير عند إحدى السيدات المسنات، لم يكن إيجارها يزيد عن جزّ العشب صيفاً وتنظيف الثلج شتاءً والتسوق لجلب الطعام مرتين في الأسبوع، وشراء زجاجة من النبيذ البرتغالي. لكنّ صاحبة الشقة السيدة موفينكل لم تر مانعاً من أن أُقدّم لها هذه الخدمات بنفسي من حين لآخر. وكان ذلك أمراً طيباً لأن سيدة البيت ما لبثت أن صارت يوماً بعد يومٍ ترحّب بأن أمضي الليل أحياناً بشقتها الصغيرة، مقابل دفع تلك الأجرة.

وحين جاءت أعياد الميلاد شهدنا القداس في الكاتدرائية من جديد من باب الواجب. كانت فيرونيكا تحمل المعطف الأسود نفسه والملقط الفضي ذاته. لقد أصبحتُ جزءً من الأسطورة ومن عالمها الصوفي نفسه الذي لفّه سرٌّ مغلق. تقاسمنا هذه السنة الكرسي الأبيض ذاته

بطبيعة الحال، و لم أجد في نفسي حاجة للانشغال بالاتجاه الذي يتحرك به الناس داخل الكنيسة، فقد كان لهم أن يلتفتوا ناحية فيرونيكا ولعلهم فعلوا ذلك بالفعل. بل لقد كان ذلك مثاراً لفخري واعتزازي، وفيرونيكا تشعّ سعادة وبهاءً. وكنت أنا سعيدٌ أيضاً، ولعلها كانت تشعر ببعض الفخر هي أيضاً.

بعد القداس سلكنا الطريق نفسه الذي سلكناه في العام الفائت، فقد تعودت نفسانا على طعم التقاليد. وفي صمت شبه مطبق صعدنا إلى غابة حدائق القصر الملكي. لكن هذا الصمت لم نترصّده ولكنه جاء من تلقاء نفسه.

وتشابكنا في عناقٍ طويل في المكان ذاته الذي ارتمتْ فيه داخل سيارة الأجرة قبل عامٍ، لأن سبلنا تفرقت هذا العام أيضاً، فقد التحقتْ فيرونيكا بوالديها عند إحدى العمّات في سكيلّبيك قبل أن ينتقلوا معاً إلى "أسكر" حيث بيت الأهل. وكان عليّ من ناحيتي أن أقضي أعياد الميلاد في هومليفاي إلى جانب أمي وأبي وإينار.

كان المشهد مثل مشهدنا قبل عام. كان على كل واحد منا أن يقول للآخر إلى اللقاء، في هذا المكان بالذات، في ويرغلاندفي، فما إن تتقدَّم سيارة أجرة منا حتى تثبَ فيرونيكا إلى داخلها. لكن ما الذي سيحدث حين قدوم تلك السيارة؟ هل ستنتهي الأسطورة؟ وهل سيبطل السحر على حين غرة؟ لم نسائل نفسيْنا في الأمر وهكذا انتهى الفصل الأول، لم نلتق في كل أيامه إلا يومي العقاب المشؤوميْن، فقد أوفت فتاة البرتقال بوعدها المَهيب. لكن أيّ قواعد جديدة ستغلُبُ

علينا في العام القادم؟

كانت أعياد الميلاد أشد برداً من سابقتها، وكانت فيرونونيكا ترتعد ارتعاداً، فأمسكتها من ذراعيْها وصرت أدعك ظهرها، ثم أخبرتها أن غونار يتهيأ للرحيل عن الشقة الصغيرة التي كنا نتقاسمها في بداية العام، وشرحت لها أنه يعدُّ نفسه لاستئناف الدراسة في برغين، وأضفت أن لا بد لي من طالب جديد يقاسمني إيجار تلك الشقة.

كم كنتُ جباناً يا جورج! ظني أن ذلك ما فكرت به فيرونيكا أيضاً. كادت تحتدّ لذلك، هكذا كان غونار سيرحل عن الشقة؟ وهكذا كنت سأبحث عن طالب جديد يشاركني السكن فيه؟ هل خطّطتُ لكلّ هذا حقاً دون أن أعنيها في ذلك ؟ كانت توشك أن تنفجر سخطاً وخشيتُ أن نفترق على عداوة في يوم عيد الميلاد هذا، لكنها أضافت قائلة:

"إذاً تريدني أن أقيم في شقتك، أهذا ما تريد؟ أقصد تريد أن نقيم معاً! أليس كذلك يا جون أولاف؟"

كان ذلك ما تمنيته تحديداً، لكني كنت أكثر جبناً منها، وانتابني خوف شديد من مخالفة القواعد التي بيننا.

لكن ما لبثنا وهي تشعّ كما تشعّ شجرة برتقال في ساحة أليترا أن اتفقنا على أن تأتي للإقامة في ادمستوين في بداية شهر كانون الثاني. ففي السنة القادمة لن نكتفي بأن نكون معاً كل يوم، بل سنكون معاً كل ليلة أيضاً. هكذا كانت القواعد الجديدة.

لكن سحابةً من الاضطراب ما لبثتْ أن غشتْ وجهها، فخِلتُ ذلك

تعبيراً عن قليل من الشك في ذلك الأمر، أو لعلها تريد أن تفصح عن بعض التحفظ. أم أن في نفسها رغبة تخشى البوح بها؟ قلت لها هامساً:

"ما الأمر، فيرونيكا؟" فقد صرت الآن أعرفها.

فقالت: "غرفة غونار! إذاً سوف تكون جاهزة"

فطمأنتها، ولكني كنت لا أفهم سبب إصرارها. ألم أقل لها إن غونار سيرحل حقاً؟ فأضافت:

"لأننا لن ننام كل واحد في غرفة!"

قلت لها مؤكداً:

"بالطبع لا!" لكنني لم أكن قد فهمت من قصدها شيئاً.

لم يعد الآن يساورها أيّ شك، فما لبثت أن أوضحت فكرتها بصراحة:

"إذاً أستطيع أن أحول غرفة غونار إلى ورشة"، ورمتني بنظرة خاطفة حتى ترى استجابتي لتلك الفكرة. واكتفيت بأن وضعت يدي على ملقط شعرها في مؤخرة عنقها، وأعلنت أن الفخر لي أن أعيش مع فنانة.

ولم تمر سوى دقيقة أو دقيقتين حتى أطلت علينا سيارة الأجرة، فأشارت إليها فيرونيكا من بعد، ثم صعدت في داخل السيارة ولم تبخل عليّ هذه السنة بما بخلت به في السنة الماضية، فلّوحت إليّ بملء يديْها في جذل وابتهاج. ما أسرع الأيام!.

اختفت السيارة ولم أجد حاجة للبحث عن فردة الخُفِّ الضائعة. ليس لهذه الأسطورة من عائق، ولم نعد خاضعين لقواعد غامضة تضعها

حوريات متعجرفة تحدّد ما هو مباحٌ وما هو محظور. فقد صارت السعادة من الآن مِلكاً لنا.

لكن ما هو الكائن البشري يا جورج؟ وكم يساوي هذا الكائن؟ ألسنا سوى دوّامة من الغبار في مهبٍّ الريح؟

في هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه الأسطر يدور المنظار هوبل في مداره حول الأرض. فهو هناك منذ أربعة شهور، وقد أرسل إلينا منذ شهر أيار الماضي العديدَ من الصور الثمينة عن الكون، أي هذا "الريف" الذي انبثقنا منه أصلا. لكن ما لبث العلماء أن اكتشفوا خللا تصنيعياً في المنظار، وقد سمعنا عن إرسال مكوك فضائي وطاقم لتصليحه، سعياً لفهم المزيد من أسرار الكون.

هل تعرف شيئاً عن حال المنظار هوبل؟ وهل سمعت عن تصليحه يوماً؟

أخال هذا المنظار أحياناً وكأنه عين الكون، لأن العين القادرة على رؤية الكون بكامله جديرة بأن تدعى عين الكون حقاً. هل فهمتَ قصدي يا جورج؟ فالكون ذاته هو الذي أنتج هذه الأداة الغريبة، ولذلك كان المنظار هوبل عضواً حسّاً كونياً.

تُرى أيّ مغامرة كبرى هذه التي نعيش فيها وليس لكل منا فيها سوى خبرة وجيزة لا تدوم إلاّ زمناً قصيراً؟ فلعل منظاراً مدارياً سيتيح لنا يوماً أن نعرف عن طبيعة هذه المغامرة أكثر ممّا عرفنا! هناك ما بين المجرات قد نجد الإجابة يوماً عن هذا الكائن الحي الذي أسميناه إنساناً!

ظني أن لفظ "اللغز" قد ورد في هذه الرسالة كثيراً. فمحاولة فهم الكون أشبه بالتأكيد بائتلافِ مجموع قطع أحجية كبيرة. وإنْ بدتْ هذه الأحجية مثل لغز ذهنيّ أو روحيّ فلا غرو إنْ وجدنا الإجابة عنه في داخلنا. لأننا في داخل هذا الكون، بل قلْ نحن هذا الكون!

من يدري، فلعل سيرورة الخَلق لم تُدرِك بعدُ نهايتَها. ولا شك أن نموّ الإنسان بدنياً يأتي طبيعياً قبل نموه نفسيّاً. ولعل الطبيعة الفيزيائية لهذا الكون ليست إلاّ شيئاً ظاهرياً.. مجرد مادة ضرورية لمعرفة ذاتنا الكامنة في الذات الكبرى.

عندي فكرة مجنونة: فجأة أدرك نيوتن أن للكون جاذبية شمولية. جميل! وفجأة أيضاً تصوّر داروين أنّ تطوراً بيولوجياً قد حدث على هذه البسيطة. أجل، ما أروع هذا التصور! ثم جاء اينشتاين واكتشف العلاقة ما بين الكتلة والطاقة، وما بين سرعة الضوء. رائع! وفي العام ١٩٥٣ أثبت كريك واتسن الكيفية التي بُنيتْ بها جُزيئة "DNA" أي القاعدة الوراثية للنبات والحيوان. بديع! لكن. لنا أن نتصور أيضاً يوماً -وأي يوم يا جورج!- تأتي فيه روحٌ متبصرة حكيمة تَفكّ خلاله في لحظة صفاءٍ ونفاذ بصيرةٍ سرَّ هذا الكون الخفيّ. (وكم أتمنى أن أكون في ذلك اليوم تحديداً رئيس تحرير في يومية كبرى).

لعلك تذكر أني بدأت هذه الرسالة بالقول إنني أريد أن أطرح عليك سؤالاً؟ إجابتك عن السؤال مهمة جدّاً. لكنّ في جعبتي شيئاً أريد أن أقصه عليك أيضاً.

سنعود للحديث عن المنظار هوبل في مقام آخر. لقد أيقنتُ أن السؤال الكبير الذي كان أبي يريد مني الإجابة عنه كان على صلة وثيقة بالكون حتماً.

نهضت من السرير ونظرت من النافذة، كان الثلج ما يزال يتساقط مدراراً، ولكنني قلت لنفسي أن ليس للأمر أي أهمية، فحتى وإن كانت الأرض تحت غطاء من السحب فإن بوسع المنظار هوبل أن يلتقط صوراً في غاية الوضوح والدقة لمجرات في درب التبانة على بعد مليارات عديدة من السنوات الضوئية. فهو يعمل على مدار ساعات اليوم، وسبق أن أعطانا مئات الآلاف من الصور وفحص أكثر من عشرة آلاف من الأجسام السماوية. فكل يوم يوفر لنا المنظار هوبل معطيات تكفي لملء حاسوب منزلي.

لكن ما الذي دعا والدي للكتابة من جديد عن هذا المنظار المداري؟ لم يسعني أن أدرك علاقة هذا المنظار بفتاة البرتقال. لم يعد ذلك مهماً، بل الأهم منه أن صار أبي يدرك أهميته بالنسبة للبشرية. وقد تأتى له ذلك قبل أن يصاب بالمرض ويرحل عن هذا العالم. كان المنظار هوبل واحداً من الأشياء الأخيرة التي انشغل بها أيما انشغال.

أجلْ عين الكون! لم أتوقّع هوبل بهذا القدر من الأهمية. فقد تصوّرته كنافذة للبشرية على الكون. لكن والحالُ هذه لا غرو أن يُوصف هذا المنظار المداري بـ "عين الكون" حقاً.

لعل الإقبال المنقطع النظير الذي كان القطار البخاري الأول ما بين

كريستينيا وإيدسفول سيثيره في الناس لم يكن في تلك الفترة سوى شيء صغير مبالغ فيه. ففي النرويج يعيش اليوم جزء من ألف من سكان العالم، وكان يعيش في العام ١٨٥٠ على الأرجح العشرُ من جزء الألف هذا ما بين كريستينيا وإيدسفول. فمع المنظار هوبل يستطيع جميع سكان العالم أن يسافروا عبر الكون بأسره. فقد بلغتْ تكلفته حين نُصّب في مداره حول الأرض قبل وفاة والدي بنحو ستة شهور ما لا يقل عن ٢,٢ ملياراً من الدولارات. وحسبتُ التكلفة عن كل نسمة في العالم فوجدتها لا تزيد عن أربع كورونات، وبهذا وجدتُ ثمن التذكرة رخيصاً، أي أن هناك إمكانية للسفر عبر الكون كله.

وإذا شئتَ المقارنة فإن سعر الرحلة ذهاباً وإياباً ما بين أوسلو وايدسفول في حدود مائتي كورونة. فالثمن إذاً غير رخيص. وإن كان الناس متّفقين معي في هذه النقطة عليهم التظلّم لدى الشركة النرويجية لسكّة الحديد. (لست أقصد التقليل من شأن الشركة النرويجية ولا من شأن ذلك القطار القزْم القديم ما بين كريستينيا وإيدسفول، لكنني قصدت القول إن المنظار هوبل أهم بكثير بالنظر إلى البشرية بما فيها ربما مزارعو رُوميريك أيضاً. بل ولن أكون مبالغاً إن وصفته بعين الكون. وكان ذلك على أي حال رأي والدي فيه أيضاً، رغم أن الزمن لم يمهله حتى يعرف أن المنظار قد زوّد بأعين جديدة!"

لقد كتب والدي في هذا الشأن يقول:" المنظار هوبل عضو حسيّ كوني"، وأخالني أدركتُ قصده من ذلك. ولعلنا نستطيع التأكيد أن

وضع هوبل في مداره حول الأرض كان خطوة صغيرة تخطوها البشرية بعد أن صرنا في العام ١٩٩٠ نملك الكثير من المناظِر التي لا تقل قوة عن أي مكوك فضائي. إنها وثبة قوية في الكون! فباسم الكون بكامله صار الناس يلحون في البحث عن إجابة شافية لسرّ هذا الكل الأعظم. لا أكثر ولا أقل! لقد أمضى الكون خمسة عشر ملياراً من السنين قبل أن يزرع الإنسان فيه عيناً عملاقة أتاحت له أن يرى نفسه بنفسه (لقد أمضيت ساعة كاملة في كتابة هذه الجملة ولذلك جاءت حروفها بالخط الغليظ).

قلت لنفسي... إنني اضطرم!

وأسرعت في مواصلة القراءة، وسرعان ما وجدتُني أشهد على ميلادي، فكان الميلاد رائعاً نادراً. لا يُولد كل الأطفال في حفلة كوكتيل.

اضْحكِ إذاً يا أبي اضْحكْ! لا أحب أن أقطع عنك الحديث. فأنت الذي سألتني عن حال ذلك المنظار وهأنذا أجبتك عن السؤال!

منذ الآن سيكون حديثي وجيزاً مختصراً، ولا حيلة لي في الأمر، لأن الوقت يمر بسرعة. وغداً أنا على موعد مهمّ، وأمك هي التي ستصحبك إلى الروضة.

وعشنا معاً في تلك الشقة الصغيرة في أدمستوين أربعة أعوام.

وحصلت فيرونيكا على دبلومها من أكاديمية الفنون الجميلة، واستمرت كما تعرف في الرسم. وشيئاً فشيئاً صارت تُدرّس فنّها كأستاذة للرسم في إحدى الثانويات، وأشرفتُ أنا على نهاية التكوين فصرت ما يُدعى الطبيب المعاون، وهو ما يلزمني بالعمل عامين كاملين في أحد المستشفيات.

لا شك أنك تعلم أن جدتي وجدي قد ولدا في تونسبرغ.

في تلك الفترة بالذات كانا يمنّيان النفس بتحقيق حلمهما القديم في العودة للعيش في ذلك المكان عند إحالتهما على التقاعد. وقد أعلنا يوماً شراءهما بيتاً رومانسيّاً صغيراً. وما لبث أخي إينار أن اختار الملاحة سبيلاً، فخاض غمار البحر هارباً في ظني من خيبة حبّ أليمة. وهكذا أتيح لي ولفيرونيكا أن نقيم في دار هومليفاي الكبيرة. لم نجد بدّاً من اقتراض كثيراً من مالٍ في سبيلها، لكن حالنا من الدخل اليوم صار أيسر كثيراً مما كان.

فما أكثر ما كنا خلال عامنا الأول في هومليفاي نرعى الحديقة أيّما رعاية فاحتفظنا بطبيعة الحال بشجرتي التفاح وشجرة الإجاص وشجرة الكرز التي لم تكن في حاجة لغير بعض القطم وقليلٍ من سماد. ولم نستغن أيضاً عن أشجار التوت المعمّرة، ولم يطب لنا أن نتخلص من أشجار عنب الديب ذات الزعانف، ومن الراوند وثمار الكشمشة. ولكننا زرعنا الليلك والغار وزهرة الأرطَنْسِيّة. كانت فيرونيكا صاحبة القرار في هذا الاختيار. فقد عشتُ في هذه الحديقة العمر كلّه لكن الحديقة صارت اليوم ملكاً لها، تُنصِّبُ فيها مرسمها كلما راقت الأيام

لرسم ما جادت به تلك الحديقة.

وبينما كنا ذات يوم نقطف بعض التوت إذا بطنّانة عملاقة تطير فجأة من إحدى أعشاب النّفل وتحلّق كالإعصار، فخطر لي أن الطنّانات تطير أسرع بكثير من طائرة الجامبو جيت بالقياس إلى حجمها الصغير، وأخطرت فيرونيكا بذلك وقمنا بحساب بسيط، فافترضنا أن وزن الطنانة نحو عشرين غراماً وأن سرعة تحليقها عشرة كيلومترات في الساعة على الأقل. أما الجامبو الجيت فهو يطير بسرعة ثمانمائة كيلومتر في الساعة، أي أسرع ثمانين مرة من الطنانة. لكن إذا ضاعفنا عشرين غراماً ثمانين ضعفاً فلن نحصل على أكثر من كيلوغرام واحد وستمائة غرام. واتفقنا فيرونيكا وأنا على القول أن البوينغ ٧٤٧ يزن أكثر من ذلك بكثير. فالطنانة، إذاً، أسرع بالنسبة لحجمها بآلاف عديدة من المرات من سرعة الطائرة. ناهيك عن أن البوينغ ٧٤٧ مزوّدة بأربعة محركات لم تُؤتَ للطنانة. فالطنانة مجرد صورة مصغرة لطائرة حلزونية! وضحكنا. ضحكنا على كل تلك السرعة، وضحكنا لأننا نسكن في هومليفاي، أي شارع الطنانات.

ما لبثت فيرونيكا تُرهف نظري لدقائق الطبيعة التي لا تعدّ ولا تحصى. كنا نقطف الشقّار الأزرق والبنفسج، ونقضي لحظات عديدة في دراسة هذه العجائب الصغيرة، فالعالم ليس أسطورة مذهلة واحدة!

كم يحزنني اليوم، أي في اللحظة التي أكتب فيها، ذكرى هروب تلك الطنانة خلال تلك اللحظات العابرة من تلك الظهيرة التي كنا نقضيها في قطف التوت في الحديقة. فقد كان استغراقنا كاملا يا جورج، وكنا

متفتحين لكل شيء غير مكترثين بأي شيء!

أملي أن تكون ورثتَ شيئاً من غريزة التفتّح على هذه العجائب الصغيرة. فهي لا تقل إثارة للتأمل من النجوم والمجرّات في السماء. وظني أن خلق طنانة أذكى بكثير من إحداث ثقب أسود في الفضاء.

كان هذا العالم يبدو لي دوماً ساحراً فاتناً، منذ طفولتي الأولى. حتى قبل أن أشرع في ملاحقة فتاة برتقالٍ في شوارع أوسلو. ولذلك أخالني قد رأيت ما لم يره أحد غيري. ليس من السهل أن أصف هذا الشعور بكلمات بسيطة، لكن تصوّر يا جورج هذا العالم قبل هذه السلسلة الحديثة المملة من قوانين الطبيعة من نظرية التطور والذرات وجزيئات "DNA" والكيمياء الحيوية والخلايا العصبية. أجل قبل أن تشرع هذه الكرة في الدوران، وتستحيل إلى "كوكب" في الفضاء، وقبل أن يتجزأ هذا الجسم البشري المزهو بنفسه إلى قلب ورئتين وكليتين وكبد ودماغ وجهاز دموي وعضلات. إني أصف مرحلة أصبح فيها الإنسان إنساناً، أي كائناً بشرياً كاملاً. لم يكن العالم غير أسطورة عجيبة!

فجأة أطل علينا يحمور من الغابة، وحدّق فينا طويلاً ثم اختفى. أيُّ روح تحرك هذا الطائر؟ أيُّ طاقة كامنة-لا حدّ لها-تزيّن الأرض أزهاراً بكل ألوان قوس قزح، وتجمّل السماء بدانتيلا فاخرة من النجوم المتلألئة؟

هذا الإحساسُ بالطبيعة العارية الصادقة تجده يا جورج في القصص الشعبية كقصص غريم مثلاً! اقرأها يا بنيّ! إقرأ الحكايات الميثولوجية الإسلندية. إقرأ الأساطير الإغريقية والاسكندنافية القديمة. إقرأ العهد

القديم أيضاً!

تأمّل العالم يا جورج، تأمله جيداً قبل أن تدرس كثيراً من علم الفيزيـاء والكيمياء!

في هذه اللحظة لمحنا قطعاناً كبيرة من الرنّات البرية تعدو على هضبة هردَنْجيرفيدا الواقعة في مهبّ الريـح. وفي كامـارغ سـترى آلاف الأسراب من طير النُحام المعشعش فـوق الأشـجار. نـاهيك عـن مجموعات الغزلان الرشيقة وهي تقفز في سحر في سهول إفريقيا الجافة، وآلاف مؤلفة من طير الطرسوح (الذي يشبه البطريق) تثرثر سـعيدة على شاطىء متجمد في القطب الجنوبي.

لكنّ الأشياء المهمة لا تقاس بكمّها وحده، فكم من طائر وحيد حـالمٍ أطلّ برأسه مندفعاً من غابات الصنوبر في أوستلانديت.

قبل عامٍ مضى خرج أحد الطير من مملكته تائهاً حتى هومليفاي. وحلّق لامُوسٌ مذعور ما بين أغصان محمية فجيلستون. وانزلقت فقمة ضخمة وغطست بين الجزر بالقرب من تونسبورغ.

لا تقل لي إن الطبيعة ليست معجزة من معجزات هذه الحياة، لا تقل لي إن العالم ليس أسطورة. فمن لم يفهم هذه الأسطورة لن يفهمها قبل أن توشك على النهاية. فما يزال بين أيدينا فرصة أخيرة لكـي نُزيـل الغمامة التي تحجب الحقائق عنّا، ونفرك أعيننا المنبهرة، ونستسـلم إلى هذه المعجزة التي نتهيّأ لأن نغادرها قريباً.

أسأل نفسي إنْ كنت تفهم يا جورج ما يجول بخـاطري وأسـعى

للإفصاح عنه. لا أحد ودّع في نحيبٍ مختنقٍ هندسة هيرقليد أو التصنيف الدّوري للعناصر. لا أحد أذرف الدّمع لأنه فُصِل عن الإنترنت أو جداول الضرب. إنه العالم الذي نستأذنه بالانصراف، إنه الحياة والأسطورة، ناهيك عن نخبة من أعز الناس إلينا نفارقها أيضاً.

كم من مرة تمنيتُ لو كنتُ عشتُ قبل اختراع جدول الضرب، أو على الأقل قبل ميلاد الفيزياء والكيمياء المعاصرة، أي قبل أن يصيبنا الغرور بأننا فهمنا كل شيء - أقصد العالم المفتون الحقيقي!- لكن هكذا بدت لي الحياة حقاً حين جلست إلى الكمبيوتر لأكتب إليك هذه الأسطر.

كنتُ دوماً رجل علم، ولا أرفض علماً من العلوم، غير أني أملك تصوّراً روحياً للحياة يكاد يكون إحيائيا. لم أدع يوما نيوتن أو داروين ينتصران على سرّ الحياة الخفي نفسه (انظر في أي موسوعة وقل لي إن لم تجد فيها بعض الألفاظ المبهمة. عندك منها واحدة حديثة في الغرفة الخلفية. هناك على أي حال موسوعة في اللحظة التي أكتب فيها، ولست أعلم إن كنت ستجدها حديثة فعلا؟).

دعني الآن أبحْ إليك بهذا السر: قبل أن أبدأ دراساتي في الطب كان أمامي بديلاً من خيارين، إما أن أصبح كاتباً أبجّل بالكلمات العالَم المفتون الذي نعيش فيه، وظني أني حدثتك في الأمر يوماً، وإما أن أصبح طبيباً، أي رجلاً يقدّم خدماته للحياة. وقد قرّرت من باب الحيطة أن أكون طبيباً أوّلاً!

لم تسعفني الأيام في أن أكون كاتباً، لكنّ الوقت أسعفني لأن أكتب إليك هذه الرسالة.

ما أروع أن أعود من عيادتي لفتاة برتقالٍ ترسم أزهار الكرز في حديقتها الغنّاءِ! إنه أعظم إنجاز في أكبر حلم في حياتي. فكم تأثرتُ ذات يومٍ حين رأيتها على تلك الصورة في الحديقة حيث وَجَدْتُني أحملها من حيث لا أدري وأنقلها توّاً إلى غرفة النوم. ثم نثرتها على السرير حيث أسرتها أسراً. لا أجد حرجاً في أن ألقّنكَ هذا الجانب أيضاً من السعادة التي نعيشها. و لم الحرج والخجل؟ هناك خيط أحمر في هذه القصة.

كان قرارنا الأول حين أقمنا في هذا البيت بعد بضعة شهور من أعمال التجديد ألا نُقدِم على أي فعل حتى لا نُنجب أيَّ طفلٍ، قررنا ذلك منذ الليلة الأولى التي قضيناها معاً، وقد بدأنا نخطط لقدومك منذ تلك الليلة.

هكذا يا جورج، ما إن مرت سنة ونصف السنة على إقامتنا في هومليفاي حتى جئت إلى الدنيا. فكم كنت فخوراً حين حملتك بين ذراعيّ لأول مرة. كنت ولداً، ولو كنت بنتا لربما أسميناك رانفيغ، لأنه الإسم الذي كانت تحمله طفلة فتاة البرتقال، تلك التي كانت هذه الفتاة أمَّها يوماً.

بعد ولادتك كانت فيرونيكا مجهدة شاحبة، لكنها سعيدة. كانت سعادتنا فوق كل سعادة. وهكذا بدأ فصل جديد.. بقواعد جديدة.

ولن أخفيك سرّا آخر أيضاً: أحد زملائي في الكلية يعمل في هذا المستشفى، فهو طبيب إذاً، جاء إلى قاعة العمل ليقدم الشمبانيا للنفساء وللأب الشاب. لم يكن ذلك مرخّصاً به، بل كان محظوراً حظراً قاطعاً. لكننا أسدلنا الستارة على النافذة المطلة على البهو ورفعنا نحنُ الثلاثة الكؤوس تحية لهذه الحياة التي بدأت تحياها. لم تحصل أنتَ بالطبع على شيء من تلك الشمبانيا، لكنّك ما لبثت أن نهلت خمرتك من ثدي فيرونيكا التي لم تشرب من الشمبانيا إلا جرعات قليلة.

هل تذكر حين رافقتني فتاة البرتقال إلى محطة إشبيليا، فقد رأينا يومها حمامة ميتة في المجرى المائي، وأحسسنا بذلك نذر شؤم ، لأنني ربما لم أستمسك بقواعد الأسطورة بحذافيرها.

هل تذكر حين ذهبنا إلى بيتنا الريفي في أعياد الفصح؟ كان عمرك ثلاثة أعوام ونصف العام تقريباً. من المؤكد أنك لا تذكر من ذلك شيئاً. مَن يدرس الطب يا ولدي يتعلم شيئاً من علم النفس أيضاً، لا شيء ننساه من ذكريات الحياة أكثر مما ننسى قبل سن الرابعة.

أذكر حين كنا ذات يوم متكئيْن إلى جدار البيت الريفي نتقاسم حبة من البرتقال. لم يفت فيرونيكا أن تصوّر ذلك المشهد كأنها حَدَسَتْ أنّ نهايةً من النهايات على وشك أن تحدث، ألا يمكنك يا جورج أن تسألها إنْ كانت تحتفظ بذلك الشريط؟ لا شك أن ذلك سيوقظ أحزانها، لكن لك أن تسألْها في الأمر، على أي حال.

بعد أعياد الفصح أدركتُ أنّي صرتُ بحقٍّ عليلاً. لم تصدّق فيرونيكا من ذلك المرض شيئاً، لكنّ يقيني به كان وطيداً، كنتُ بارعاً في تفسير

الإشارات وأتقن فن التشخيص أيضاً.

وقصدتُ أحد الزملاء وكان ذلك الطبيب الذي قدّم لنا الشمبانيا في المستشفى عند الولادة، فقام بسحب بعض الدم وأجرى عليّ فحصاً بالأشعة بواسطة ما يُدعى سي تي سكانيرCT Scanner ورأى الطبيب ما رأيت فتطابقت نتائجنا الطبية تطابقاً كاملاً.

وعلى هذا النحو وُلِدتْ وتيرةٌ جديدة في حياتنا. كان ذلك نكبة عليّ وعلى فيرونيكا، وقد سعينا للبقاء بعيداً عن منطقة النكبة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، ومرة أخرى فُرضِت علينا قواعد جديدة. وبذا لَمْ يعدْ لكلمات الأماني والصبر والشوق المعاني نفسها. ولم نعد نملك أن نمنّي أنفسنا بأن نكون معاً في كل يوم من أيام السنين القادمة. لم نعد قادرين على أن نعِد أنفسنا بأي شيء إطلاقاً. فقد صرنا بين عشية وضحاها حزينين عاريين، وتصدّع الضمير "نحن الإثنين" الذي ما فتئ يملأ قلبينا دفئاً. لم يعد لأيّ منا حاجة ملحة عند الآخر، ولم نعد قادرين على اقتسام آمالنا في ما يأتي من أيام.

الآن وقد قرأتَ هذه الأسطر صرت تعرف من حياتي قليلاً. وتعرف من أنا، وإنني لسعيد بذلك أيّما سعادة.

فأنت، على أي حال، تعرفني أكثر ممّا يَعْرِفني كثيرون، على الرغم من أن عيوننا الأربع لم تلتقِ في حديث مباشر إلاّ بعد أن صرتَ في الرابعة. فأنا لم أتواصل مع أشخاص آخرين بمثل ما تواصلتُ معك في هذه الرسالة، ولا شك أنك ستدرك أيضاً إلى أيّ حدّ صار تحمّلي للقواعد الجديدة عسيراً. كنتُ أعرف على الأرجح نهاية تلك الطريق،

ولم أجد بدّاً من أن أوّطن نفسي تدريجياً على أنّي لا محالة سأغادركما، أنتَ وفتاة البرتقال.

لكن بقي في نفسي شيء أحببت أن أسألك فيه، وأكادني لا أطيق الانتظار فيه. دعني فقط أقصّ عليك ما حدث هنا في هومليفاي قبل أسابيع قليلة.

كانت فيرونيكا تقضي الصباح في المدرسة، تُعلّم الشباب كيف يرسمون البرتقال، مُلبيّة بذلك رغبتي في ألا تلازمني طوال النهار. كنا نتقاسم الفطور قبل أن أصطحبك إلى الحضانة. بعد ذلك أقضي الساعات بمفردي أمام الكمبيوتر في الغرفة الخلفية، وأكتب عليه هذه الرسالة الطويلة. وما أكثر ما كنت أقطع الغرفة كالسائر على الحبل خشية أن تصطدم قدماي بقطارك الخشبي. وكم كنتَ نبيهاً في اكتشاف أي انحراف لأي قطعة من قطع ذلك القطار.

أحياناً كنتُ أنام قليلاً، حين يشتد بي الألم، ولأن عينيّ تأبيان النوم ليلاً، ولأن الليل موعدي مع الأفكار السوداء التي تداهمني رغم أنفي وتدمرني تدميراً، فلا أرى سوى تلك الألغاز المحيّرة في أسطورة خلتْ من الحوريات الطيبة، ولا تملؤها سوى نذائر الشؤم والأرواح الشريرة والعفاريت المخيفة. فخيرٌ لي أن أستغني عن نوم الليل بالنوم صباحاً على الكنبة عند طلوع النهار.

لا يشق عليّ كثيراً أن أظل يقظاً وأنا أعلم أنك وفيرونيكا في البيت

غارقين في النوم. ولا يشق على فيرونيكا أن تقوم معي كلما أيقظتها، فكم من مرّة أمضينا الليل يقظين، نتحدث قليلاً ونجلس معاً كثيراً، نحتسي الشاي ونأكل الخبز المطلي بالجبن. هكذا صار حالنا، وهكذا شاءت القواعد الجديدة.

كانت أيادينا تتماسك ساعات طويلة، وكنتُ أحياناً أرمق يدها فأراها ناعمة لطيفة، ثم أنظر إلى يدي أو بالأحرى إلى أصبع فيها، أو ظفر وأسأل نفسي هل سأنعم بهذا الظفر طويلاً؟ وكنت أحياناً أرفع يدها إلى فمي فأقبلها.

ظني أن هذه اليد التي أمسك بها ستظل في يدي إلى آخر رمق من عمري، قد يكون على سرير في المستشفى وربما لساعات وساعات، حتى اللحظة التي أُرخي فيها حبالَ الحياة ويُفلت منّي كلّ شيء، لقد اتفقنا على أن تجري الأمور على هذا النحو، وقد أعطتني فيرونيكا بذلك وعداً. لم يكن لنا في الأمر بد، وكم كان هذا الأمر حزيناً. فحين أنطلق الى الكون ستكون هذه اليد الحارة النابضة هي آخر شيء سأفارقه: يد فيرونيكا.

نصوّر يا جورج! تصور يداً يمكننا الإمساك بها في العالم الآخر أيضاً! لكنني لا أؤمن بعالم آخر، أكاد أجزم أن لا وجود لمثل ذلك العالم، لأنّ كل موجود لا يدوم إلا لحين انتهاء كل شيء. إن آخر شيء يمسك به الإنسان، في غالب الأحيان، يد إنسان. لقد قلتُ لك يوماً أن الضحك أكثر الأشياء انتقالاً بالعدوى، والحزن أيضاً يمكن أن يكون كذلك، إلا الخوف فيتحمله كل واحد فينا بمفرده تقريباً.

إني خائف يا جورج.. إني خائف أن أُدفع خارج هذا العالم دفعاً. أخاف من مساءات كهذا المساء الذي لن أعيش مثله كثيراً.

لكنك ذات ليلة ما لبثت أن صحوت من النوم، وهذا بالذات ما كنت أنوي أن أحدثك فيه، كنتُ ساعتها في حديقة الشتاء وفجأة لمحتُك تصل الى الصالون وتعدو إليه من غرفتك عدواً. وفركتَ عينيك ثم نظرت من حولك طويلاً. في العادة كنت تصعد لتوّك عبر السلم المؤدي إلى غرفتنا، لكنك في ذلك اليوم مكثتَ في الصالون، لأنك على الأرجح وجدت كل الأنوار مشتعلة، وبرحتُ حديقة الشتاء وأقبلتُ على الصالون وحملتُك بين ذراعيّ. يومها قلتَ لي إنك لا تستطيع النوم، لأنك سمعتنا يوماً نتحدثُ في أمر هذا النوم الذي كان عصيّاً عليّ أنا أيضاً.

لن أخفيك أني سرعان ما أحسستُ بسعادةٍ لا أجد لها وصفاً حين رأيتك صاحياً، فقد جئتَ يا ولدي في اللحظة التي كنت في أمس الحاجة إليك فيها، ولذلك لم أسعَ لأن أُعيدك للنوم الذي لم تجد إليه سبيلا.

أحببت كثيراً أن أحدثك في كل هذا، لكنني كنت أعرف أيضاً أنك كنت أصغر من أن تطيق مقاومة النوم طويلاً. لكن رغم ذلك كنت قد بلغت من العمر ما يجعلك أقدر على مواساتي في تلك الليلة، آهٍ لو كنت بقيتَ معي، فقد أحببتُ أن أقضي معك بعض ساعات ذلك الليل الذي كنتُ على الأرجح سأوقظ فيه فيرونيكا، لكنني لم أفسد عليها نومها.

كانت السماء في تلك الليلة صافية رائقة، فقد رأيتها من خلال الشرفة في ذلك النصف الآخير من آب الممتع. لم تكن رأيتَ من قبل سماءً كهذه مرصعة بالنجوم، ولا رأيتَها حتى في ذلك الصيف الرائق الراحل عنا قبل حين، ولا كان يسعُك أن تراها في العام الذي مضى، لأنك كنت صغيراً جداً. فقد ألبستُك كنزةً صوفية وسروالاً منسوجاً، وارتديتُ أنا قميصاً رياضياً، وجلسنا في الشرفة معاً بعد أن أُطفئت كل الأنوار، داخل البيت وخارجه أيضاً.

في البداية أمعنا النظر في قمرٍ دقيق رهيف مثل الخيط، كان يقيم في السماء شرقاً، كان ذلك الهلال يميل يميناً، هكذا عرّفتك بالقمر الذي لم يكن في تلك الليلة إلاّ هلالا.

وأجلستك على ركبتيّ فصرتَ تتشبّع بذلك الدفء الجمّ المنبثق من حول ذلك القمر، وشربت أنا من الدفء المتقطّر منك، ثم بدأت أصف لك كل النجوم والكواكب المتلألئة هناك في الأعلى، تحت قبة السماء، كم كنت أودّ أن أقص عليك كل هذا، كل هذه الأسطورة الكبرى التي ننتمي إليها، هذه الأحجية الهائلة التي نمثل أنا وأنت قطعاً دقيقة فيها. هذه الأسطورة تحكمها قوانين وقواعد لا يحق لنا إدراكها، إن شئنا أحببناها وإن شئنا كرهناها، لكن لا حول لنا فيها.

كنت أعلم يا بنيّ أنني سأفارقك قريباً، ولكنني آثرت أن لا أخبرك من أمر رحيلي شيئاً. كنت أعلم أنني على الأرجح على وشك الخروج من هذه الأسطورة الكبرى التي كنا نُشاهدها معاً، لكنْ لم يسعني أن

أبوح لك بذلك السر. بدلاً من ذلك كله بدأت أحدثك عن الكواكب أوّلاً، بالكلمات التي كنت تستطيع فهمها، ولكنني ما لبثت أن تحمّستُ واندفعتُ، وشيئاً فشيئاً انطلقت في الحديث عن الفضاء وكأنك كنت ابني الكبير.

ولم تقاطعني يا جورج، كنتَ تصغي إليّ وأنا أقصّ عليك كل تلك الألغاز، حتى وإن تعذر عليك فهمها جميعاً. بل لعلك كنت تفهم من حديثي أكثر مما تصورت. فأنت على أي حال لم تقاطعني قط، مثلما لم تقاطع النوم حين داهمك فجأة. فكأنك أدركت في تلك الليلة أنك لا تستطيع التخلي عني بأي حال من الأحوال. ولعلك شعرت أنني لست أنا الذي أرعاك بل أنت الذي صرت وليّ أمري. فقد شرحتُ لك أن الليل يأتي لأن الكرة الأرضية تدور حول محورها الخاص، وبأنها في تلك اللحظة كانت تدير ظهرها للشمس.

وأضفت أن لحظات شروق تلك الشمس وغروبها هي على وجه التحديد تلك الأوقات التي "نرى" فيها دوران الكرة الأرضية بوضوح. ولعلك فهمت هذا في يسرٍ حتى وإنْ كنا أحياناً ننشد هويدة مطلعها "الآن أغمضت الشمس عينها وبعد قليل سأغمض عيني أنا أيضا".. هل تذكر ذلك؟

ثم أشرت إلى الزهرة وشرحت لك أن هذا النجم كوكب يدور حول الشمس مثل الأرض تماماً. في تلك الفترة من السنة كان يمكننا أن نرى الزهرة منخفضة في شرق السماء، لأن الشمس تسطع عليها على نحو ما تسطع على الأرض. ثم بُحْتُ لك بسرّ آخرَ حيث أخبرتك

أني أفكر في فيرونيكا كلما تطلعت عيناي إلى هـــذا الكوكـــب، لأن الزهرة "فينوس" كانت تغني الحب قديماً.

وواصلت الحديث وشرحت لك أن النقاط المضيئة الـــتي نراهـــا في السماء نجوم حقيقية، لأن كل نجم من النجوم الصغـــيرة الســـاطعة في السماء هو بمثابة شمس محترقة. هل تعرف ما قلتَه لي في هذا الشـــأن؟ "لكن النجوم لا تلفحنا كما تلفحنا الشمس". كان الصيف يا جـــورج مشرقاً متألقاً. وقد طلينا جسمك كاملاً بمرهم شمسي قوي المفعـــول. وقد ضممتك إلى صدري وهمست فيك: "ذلك فقط لأنها بعيدة عنـــا.. بعيدة جداً."

أراك وأنا أكتب هذه الأسطر تتدحرج على يديك ورجليك ســـاعياً لإعادة ترتيب قطع قطارك الخشبي المبعثرة.

قلتُ لنفسي إنه دأبنا اليومي، إنه الواقع، لكني أرى بوابة الخروج من هذا الواقع قد صارت منفرجة قليلاً.

ما أكثر الأشياء التي نُكره على الابتعاد عنها كُرهاً. وما أكـــثر الـــتي نتركها وراءنا ولا نعود إليها بالمرة.

من زمن قريب جئتني ذات يومٍ وسألتني فيما كنت أكتب على ذلك الجهاز، فأجبتك بأنني أكتب رسالة إلى أعز صديق.

لا شك أنك لمست مسحة من حزن في نبرة صوتي حين أخـــبرتك أني أكتب رسالة لأعز صديق.

فسألت:

"هل هي لأمي؟"

هل هززت لك رأسي؟ لست أدري. قلتُ:

"أمك حبيبتي! شتان ما بين الصديق والحبيب!".

"إذاً هل هي لي؟"

لقد أوقعتني في الشَّرك. ورفعتك وأجلستك في حجري أمام الجهاز، وضممتك إلى صدري وقلت لك "أنت أعز صديق". من حسن الحظ أنك لم تُلحّ في السؤال فاكتفيتَ بذاك القدر. لم يخطر لك أن الرسالة إليك حقاً. وأغرب من ذلك أنني لم أتصور كثيراً أنك ستقرؤها يوماً.

الزمن يا جورج، تُرى ما هو الزمن؟

وتابعتُ وصف ذلك الفضاء رغم أنك لم تعد تستوعب تلك الأشياء.

قلتُ: عمر الفضاء قديم جداً.. خمسة عشر ملياراً من السنين تقريباً. ورغم هذا العمر المديد لا أحد استطاع أن يقول لنا كيف نشأ هذا الفضاء لأول مرة. إننا جميعاً نعيش مغامرة فريدة كبرى لا أحد يدرك سرّها. إننا نرقص ونلعب ونثرثر ونضحك في عالم لا قدرة لنا على فهم بداياته الأولى. ثم قلت: هذا الرقص وهذه اللعبة هما موسيقى الحياة.. تسمعها في كل مكان حيثما تجد الإنسان.. مثلما لا تخلو هواتف الدنيا من نغمات ورنّات. وأملتَ رأسك إلى الخلف لتراني أكثر. لا شك أنك فهمت قصة نغميّة هذه الهواتف. فكم كنتَ تحب رفع السماعة لسماع تلك النغمات.

ثم سألتك يا جورج سؤالا آخر وهو السؤال نفسه الذي أعود

لطرحه عليك الآن. فهذا السؤال بالذات هو الذي جعلني أقص عليك هذه القصة الطويلة عن فتاة البرتقال.

قلت: "تصوّر أنك عند نقطة من نقاط عتبات هذه الأسطورة، في زمنٍ مَا، قبل ملايين من السنين عديدة، حين بدأتْ كل الأشياء. حينها تستطيع أن تقرر إن كنتَ ترغب في الخروج يوماً للحياة على هذه الأرض. لن تعرف ساعتها متى ستعيش وكم سيطول بقاؤك، وإن بقيت فلن تبقى إلا زمناً محدوداً. لن تعرف أكثر من أنك إذا اخترت المجيء إلى هذا العالم يوماً عندما يحينُ الوقت، أو كما يُقال حين "يكتمل الزمان" فإنك لا محالة ستغادر ذلك العالم وتترك كل شيء فيه.

سوف يحزنك ذلك كثيراً، لأن الحياة في أعين الكثير أسطورة عجيبة لا يكادون يصدقون زوالها يوماً حتى تمتلىء عيونهم حزناً ودموعاً. كل شيء قد يكون في هذا العالم جميلاً، بل أجمل أحياناً من أن نتصور أنّ أياماً جديدة ستكفّ عن رؤية النور يوماً!"

وظللت هادئاً خافتاً، فسألتك: "ماذا كنت ستختار يا جورج لو أنّ قوةً خارقة وضعت بين يديك هذا الاختيار؟ فلعلنا نستطيع أن نتصور مثل هذه الخرافة الكونية في داخل هذه الأسطورة المحيرة الكبرى. هل كنت ستختار الحياة على هذه الأرض، قصُر أمدُها أم طال ألف عام أو مائة مليون سنة؟"

أظن أنّي تنهدت بعمق، مرةً أو مرتين، قبل أن يمتد حديثي عنيفاً. "أم أنك كنت سترفض المشاركة في هذه اللعبة لأنك لا ترضى

بقواعدها؟"

وظللت هادئاً خافتاً على ركبتيّ. ما الذي كنت تفكر فيه؟ كنتَ أشبه بمعجزة نابضة. وقد خيل لي أن شعرك القمحيّ صار يرسل رائحة المندرينا. كنتَ ملاكاً ينبض بالحياة لحماً ودماً.

لم تعد للنوم ثانية، ولكنك لم تقل شيئاً أيضاً.

إنني على يقين من أنك سمعت كل ما قلته، ولعلك أصغيت إليه إصغاءً كاملاً. لكنّ الذي كان يجول بخاطرك ظل عني خافياً. كنا متشبثين الواحد بالآخر، ومع ذلك فما لبث القدر الفظيع فجأة أن فرقنا.

وضممتك أكثر إلى صدري فاعتقدتَ بلا شك أنّي خشيتُ عليك لفح البرد. ولكنني ما لبثتُ أن شوّهتُ ظنّك يا جورج حين بدأتُ في البكاء. كان الأمر رغم أنفي، ولكنني ما لبثت أن تمالكتُ نفسي.. ومع ذلك بكيت.

لقد ساءلتُ نفسي خلال الأسابيع الأخيرة هذا السؤال كثيراً: هل كنتُ سأختار الحياة لو كنت أعلم أنّي سأُنتزَع منها انتزاعاً، في أي وقت من الأوقات، أو ربما حتى في عز نشوة السعادة؟ أم أنني كنت سأرفض منذ البداية ذلك العرض من المشاركة في لعبةٍ لا تنتهي من: "أعطِ الآن ثم استرد لاحقاً"! لأننا لا نُقبل على الدنيا إلاّ مرة واحدة. لا أحد يُمانع دخولنا في هذه الأسطورة الكبرى.. لكن الأسطورة تظل مستمرة إلى ما لا نهاية.

لا، لم أكن أعرف على وجه اليقين أي العروض سأختار، وظني أني

كنت سأرفض شروط ذلك الاختيار. ولعلي رفضت في أدب زيارة هذه الخرافة الكبرى، طالما أن الزيارة قصيرة. بل ولعلي أسأتُ في ذلك أدبي فقلت هادراً إنّ هذا المأزق سيّء ولا أحبُّ الخوض فيه.

لقد آمنت بذلك وأنت في حجري في تلك الشرفة، فقد أيقنت يقيناً راسخاً أنني كنت سأرفض العرض رفضاً لا رجعة عنه.

لو كنتُ قرّرت أن أتورط في تلك الأسطورة الكبرى لما كنت عرفت أيضاً أيّ الأمور كنتُ سأفتقدها. هل فهمت قصدي يا جورج؟ إن أسوأ الأمور عندنا نحن بني آدم أحياناً أن نفقد شيئاً غالياً علينا، من أن لا نملكه أصلا! يعني ذلك أن فتاة البرتقال لو لم تفِ بوعدها بأن نلتقي كل يوم من أيام الفصل، بعد عودها من إسبانيا لكان خيراً لي ألا ألتقي بها إطلاقاً. كذلك الشأن في أساطير أخرى.

هل تعتقد أن سندريلا كانت ستختار العيش في القصر أميرةً لو كانت تعلم أن الحكاية لن تدوم إلاّ أسبوعاً واحداً؟ ما الذي تعتقد أنها كانت ستشعر به حين تعود إلى أحواضها من الرماد، ومن ملاقط الجمر وتلتقي بحماتها الشريرة وبأخواتها؟

آن الأوان لكي تجيب يا جورج، سأعطيك الكلمة بعد قليل، ففي تلك الليلة التي كنا نتطلع فيها معاً إلى السماء، وجاء قراري بأن أكتب إليك هذه الرسالة الطويلة.. في تلك اللحظة انفجرتُ فجأة بكاءً وشهيقاً. لم أبك فقط لأنني كنت أعلم أنّي لا محالة مُفارِقُكُما، أنت وفتاة البرتقال، بل بكيتُ لأنّ الحديث بيننا كان مستحيلاً.

أعود وأسألك مرة أخرى. ما الذي كنت ستختاره لو أتيحت لك

الفرصة؟ هل كنت ستختار العيش وقتاً وجيزاً علـــى هـــذه الأرض لا تمكث فيها إلا ردحاً من الزمن ثم تُنتزَع منها انتزاعاً ولا تعـــود إليـــها أبداً؟ أم أنك كنتَ سترفض العرض ليس إلا؟

ليس لك من بديل آخر. هكذا شاءت القواعد، فإن أنت اخترت الحياة فستختار معها الموتَ أيضاً.

لكن عِدني بأنك ستفكر في الموضوع مليّاً قبل أن تبدي فيه رأياً.

ربما ذهبتُ في هذا الموضوع بعيداً. ربما توغلتُ في مكاشفتك أكثر ممـــا كان يحق لي حقاً، لكنّ في ردّك لي على هذا السؤال بالغ الأهمية، لأنـــني مسؤول مسؤولية مباشرة عن وجودك هنا. ما كان بوسعك أن تجـــيء إلى هذا العالم لو لم أجئه أنا!

قد أشعر ببعض الذنب لأني أسهمتُ في وضعك في هـــذا العـــالم. بشكل أو بآخر، أنا الذي منحتك هذه الحياة، وبالأحرى فتاة البرتقـــال أيضاً. وبحال من الأحوال نحن الذين سنستردها منك أيضاً. لأنّ مـــن ينجب طفلاً صغيراً لا يكتفي بمنحه هبة العالم الكبرى هذه، بل يـــأخذ منه هذه الهدية الغامضة حتماً.

لن أكون معك إلاّ صادقاً يا جورج. لقد أخبرتك بأنني كنت بـــلا شك سأرفض العرض بأن أقوم في تلك الأسطورة الكـــبرى بزيـــارة خاطفة موضوعها "تعرّف على العالم". وإن كنت تشاطرني الرأي فإنني أشعر بالذنب لما أسهمت في صنعه وبنائه.

لقد رميت بنفسي في سحر فتاة البرتقال، واستسلمت لإغراء الحب، وغرّرتْ بي فكرةُ الإنجاب.

دقت الآن ساعة الندامة والاستغفار.. هل ارتكبت خطأً من الأخطاء؟ سؤال يعذبني كالوسواس، ترافقه حاجة للعودة لنظام الأشياء من بعدي.

لكنّ يا جورج قد يطفو الآن مأزق جديد، ربما لا يضاهي الأولَ صعوبة أو مكراً، فإن قلتَ إنك رغم كل شيء ستختار الحياة على قصر مدها، ساعتها لن يكون لي الحق في أن أقول ليتني ما ولدت!

هكذا يمكن للحساب أن يتوازن وللمركزين أن يتعادلا. ذلك بالطبع ما أتمناه، ولذلك السبب بال١ات أيضاً قررت أن أكتب.

لا يسعك الردّ على السؤال الذي طرحتُه عليك ردّاً مباشراً، لكنك تستطيع أن تجيب على نحو غير مباشر. يمكنك أن تجيب بالطريقة التي تختار أن تحيا بها هذه الحياة التي بدأتها حين رفعنا أنا وفيرونيكا وطبيب متمرّد كؤوسنا تكريماً لك في ذلك المستشفى. لقد كان هذا الطبيب المدمن على الشامبانيا فألاً حسناً عليك، لا ريب عندي في ذلك.

الآن تستطيع أن تهمل هذه التحيات التي أرسلها إليك، وقد حان دورك الآن لكي تحيا حياتك.

أما أنا فسأنتقل إلى المستشفى غداً. ذلك هو موعدي المحتوم، وغداً أمك هي التي سترافقك إلى روضة الأطفال.

كان عليّ أن أكتب لك هذا أيضاً، وأحب أن أضيف أنني لن أعدك بالعودة إلى هومليفاي يوماً.

جورج! عندي إليك سؤال أخير: هل يسعني اليقين بأن لا وجود بعد هذا الوجود؟ هل يمكنني الاقتناع بأنني لن أكون في مكان آخر في

اللحظة التي ستقرأ فيها هذه الرسالة؟ لا، إن قناعتي كاملة بأنني لا محالة لن أكون! لأن العالم منذ أن يصير عالماً لا يدع للحدود الوهمية مجالاً، هل فهمت القصد من هذا؟

أنا يا بني مشبع إلى حدّ الذهول بحقيقة هذا الوجود، ولهذا فلن يصيبني مزيد من الذهول لو اكتشفت وجوداً آخر بعد هذا الوجود.

أذكر أننا قبل أيام أمضينا ساعتين معاً في اللعب على جهاز الكمبيوتر. ولا شك أنني كنت أكثر من استمتع بتلك اللعبة لفرط حاجتي إلى شيء من الراحة النفسية. لكن في كل مرة كنا "نموت" فيها في تلك اللعبة إلا وتنفتح للتو لوحة جديدة، فنُعيدُ الكرة مرة تلو المرة. تُرى كيف السبيل لأن نعرف إن كان لأرواحنا "لوحة جديدة" أيضاً؟ لا أظن ذلك، لا أظنه حقاً، لكن الحلم بشيء وهمي يحمل اسماً. ذلك الوهم ندعوه أملاً.

تلك الليلة على الشرفة أذكرها جيداً! لقد ترصّعت في نخاعي الشوكي وارتسمت كالوشم في أعماق قلبي، أما قراءتي لما استذكره أبي من ذكريات فقد بثت القشعريرة في بدني.

قبل هذا اليوم كنت قد نسيت كل شيء، لأنني ما كنت لأتذكر تلك الليلة المرصعة بالنجوم لو لم أقرأ شيئاً عنها، لكنني الآن أكاد أذكر كل شيء منها، بل لعلها الذكرى الحقيقية الوحيدة التي أحتفظ بها من والدي.

كنت عاجزاً عن ذكر أي شيء منه في فجلستون. وعبثاً حاولت

أيضاً أن أغوص في أعماق الذكرى بحثاً عن صور من نزهاتنا حول سونسفان. لكنني صرت الآن أذكر تلك الليلة الساحرة على الشرفة، بل قل إني أذكرها على نحو مختلف.. أذكرها كأسطورة.. كحلم ملؤه الخيال والألوان.

وصحوت من نومي. يومها أقبل أبي من الشرفة ورفعني بين يديه إلى السماء. قال لي سنخرج الآن لكي نحلّق في الفضاء، وأننا سنشاهد النجوم. كان لزاماً أن يدثرني بملابس دافئة، لأن البرد في الفضاء لاذع قارس، كان أبي يريد أن يريني النجوم في السماء، لم يكن له بد من ذلك، وكانت تلك فرصته الوحيدة، وكان علينا ألا ندعها تفلت منا.

كنت أعرف أن أبي كان مصاباً، لكنه لم يعرف أن الأمر لم يعد خفياً. فقد باحت أمي لي بذلك السر حين قالت لي أن والدي قد يضطر للذهاب إلى المستشفى، ولذلك صار كئيباً حزيناً. أظن أنها أخبرتني ذلك في تلك الأمسية نفسها، فلعل ذلك ما جعلني أصحو من النوم، ولعل لذلك السبب لم أعدْ للنوم.

الآن أتذكر بوضوح رحلة الليل الطويلة عبر الفضاء مع والدي في الشرفة، ظني أنني أدركت أن والدي كان على وشك أن يفارقنا، لكنه أراد أن يكشف لي عن الوجهة التي كان سيتجه إليها.

ثم – أني أرتعش وأنا أكتب هذا – بينما كنا نسير في الفضاء شرع أبي في البكاء فجأة، كنت أعرف سبب ذلك البكاء، لكنه لم يكن يعرف أنني أعرف، لذلك إذاً لم يسعني أن أقول له شيئاً، لم أجد بداً من أن

أظل صامتاً مثل سمك الشبوط، كان الحديث عما كان سيحدُثُ أمـراً خطيراً.

وكان في الأمر شيء آخر أيضاً، بعد تلك الليلة أدركت أننا لا يمكن أن نثق بالنجوم في السماء، فهي لا تستطيع بأي حال أن تنقذنا من أي شيء، فحتى النجوم في السماء سنرحل عنها، وسوف تنقطع صلتنا بهـا يوماً.

فحين كنا أنا ووالدي نحلّق في الفضاء في تلك الليلة أدركت حـين بدأ يُذرف الدّمع بغزارة أن كل ما في هذا العالم لا يستحق منـا ذرة واحدة من الثقة.

فبعد أن قرأت الصفحات الأخيرة من رسالة والدي عرفـت لمـاذا كنت أعشق الفضاء، فهو الذي فتح عينيّ على تلك الآفاق، وهو الذي علّمني كيف أزيح النظر عن كل ما يتعثر على هـذه الأرض، فقـد صرتُ فلكياً هاوياً، حتى قبل أن أعي أني صرت كذلك فعلا.

لم يعد، إذاً، في أمر اهتمامنا أنا ووالدي بالمنظار هوبـل مـا يثـير الدهشة، فقد تعلمت ذلك منه، وكل ما في الأمر أني بدأت من حيـث انتهى، كان ذلك أشبه بالوراثة، ألم يكن الأمر كذلك دومـاً؟ لقـد بدأت الاستعدادات الأولى للمنظار هوبل منذ العصر الحجـري. لا، في الواقع يعود العمل التمهيدي الأول لبضع ميكرو ثوانٍ بعد ميلاد الزمـن والمكان، أثناء الانفجار الأعظم.

هناك نشاط ندعوه زرع البذر. فقد زرع والدي بذرته في الوقـت

المناسب قبل أن يموت، فهو الذي إن، صحّ القول، ألهمني موضوع بحثي الأساسي. لا أظن أن والدي أبدى كثيراً من الاهتمام لكرة القدم الإنجليزية، ومن حسن حظه أنه لم يقع في براثن "سبايس غيرلز" . ولا أعلم ما الذي كان روالد داهل يمثله في نظره.

كنت قد أنهيت القراءة وغرقت في التأمل حين طرقت أمي الباب من جديد وسألتني ببساطة:

" جورج" .

فأعلنت لها أنني أنهيت القراءة.

"ستغادر الغرفة الآن إذاً؟"

فأجبتها بأنها تستطيع الآن أن تدخل.

ثم فتحت الباب ودعوتها للدخول، وسعدت حين رأيتها تغلق من خلفها تلك الباب.

لم أنزعج قط للدموع التي كانت تملأ عيني، فقد بكت أمي أيضاً حين التقت بوالدي لأول مرة.

هذه المرة أنا الذي التقيتُ به أيضاً. وعانقتُ فتاة البرتقال وقلت: "لقد رحل عنّا أبي" ، فضمتني أمي إلى صدرها وبكت هي أيضاً.. كثيراً.

ومكثنا بعض الوقت على حافة السرير، وما لبثت أن سألتني عما كتبه لي أبي، " إنك تقدّر أني أتوق لمعرفة ما بالرسالة، لكن الأمر في الحقيقة يفزعني بعض الشيء، أكاد أقول إنني خائفة" .

وأخبرتها أن أبي لم يكتب سوى رسالة حب طويلة، وصدّقت أمي حقاً أن رسالة الحب كانت إليّ وحدي، كان لا بد من أن أصارحها

بالحقيقة، وأقنعتها أن رسالة الحب كانت إليها هي، إلى فتاة البرتقال.

وقلت لها أيضاً: "كنت أعز صديق لأبي، أما أنت فكنت حبيبته، وشتان بين الاثنين."

وظلت جالسة على حافة السرير وقتاً طويلا، لا تنطق بكلمة، كانت أمي ما تزال في عز الشباب، وقد اكتشفت بعد أن قرأت قصة فتاة البرتقال بأنها كانت رائعة الجمال أيضاً. صحيح أنها كانت تحمل بعض ملامح السنجاب، لكنها كانت تشبه قبل كل شيء طُيَيْراً فتيّاً، رأيتُ منقاره يرتعش ارتعاشاً.

تُرى، مَنْ كان أبي؟ لم تكن أمي تعرف على وجه الحقيقة تفاصيل تلك الرسالة التي أمضيتُ الساعات في قراءتها.

"إنه بالطبع جون أولاف."

"نعم، ولكن مَن هو جون أولاف؟ أقصد ماذا كانت أوصافه؟"

"آه.."

*

شيئاً فشيئاً ارتسمت على شفتيها ابتسامة جوكندية صغيرة، ورمتني بنظرة خاطفة، الآن صرتُ ألحظ شيئاً أشارَ إليه والدي مرات عديدة. فقد رأيت كم كانت منكمشة على ذاتها، ورأيت كيف كانت عُيونها البنية تَترنح تارة وتستسلم لرقصة هائجة تارة أخرى.

"لقد كان عطوفاً حنوناً.. كان إنساناً نادراً، وكان بالإضافة إلى ذلك حالماً كبيراً.. بل أكادني أقول مُبدعَ أساطير أيضاً.. كان يردّد دوماً أن الحياة أسطورة، وظني أنه كان يعيش في قلب الأسطورة، وكان شعوره

بالحياة يكاد يكون سحريا. وكان رجلا رومانسيا بل كنا كذلك نحن الإثنين. ثم داهمه المرض فجأة، ولا أخفي عنك أنه استقبل الموت بحزن شديد لا حد له. كانت علته قاسية.. قاسية جدا. كان بلا شك يحبني حبا جما.. وكان بالطبع يحبك أنت أيضا ويبجلك كثيرا. كم كان يعز عليه فراقنا، لكنه كان عاجزا عن مقاومة المرض. لقد أخذه الموت منا بعنف وشراسة. لم يرض يوما بذلك القدر وظل يرفضه حتى آخر لحظة. كان الفراغ الذي تركه فينا سخيفا مريرا. إنني أبحث عن كلمة.. لا بأس، سأجدها!"

"كان كثير الحماسة.. طروبا"، نعم هذا ما كنت أريد أن أقول. وجاء دوري في الابتسام فقلت:

" وكان صادقا أيضا، وكان يعرف نفسه كثيرا, ولم يكن يخلو من سخرية ذاتية، وتلك بالتأكيد صفة لن تجديها في الناس كثيرا."

فأبدت أمي لذلك استغرابها: " ربما ولكن كيف عرفت ذلك؟".

فأشرت إلى كومة الورق "يمكنك أن تقرأي كل ذلك يوما وستفهمين كل القصد مما أقول."

ومرة أخرى راحت فتاة البرتقال تمسح الدمع من عينيها. إلى متى نستمر في البكاء هكذا، وما الذي يفكر به جورجن في هذه اللحظة؟ إنني على أي حال لا أحسده على ما هو فيه. وأعلنت لأمي قائلا:

"هيا بنا نلحق بالآخرين"

حين دخلت إلى الصالون أحسست كأن عمري امتد سنوات عديدة

منذ اللحظة التي دخلت فيها غرفتي مع تلك الرسالة، قبل ذلك بساعات قليلة. فقد شعرت بأني صرت كبيراً و لم أعد أهتم بتلك النظرات الفضولية التي أحاطت بي فصارت تحدّق بي من كل ناحية.

كانوا قد وضعوا على طاولة السفرة الكبيرة بعض الوجبات الباردة من دجاج وجنبون وسَلَطة والدُورفْ مع قطع من البرتقال وإناءٍ كبير من سَلَطة الخسّ. وجلسنا نحن الخمسة إلى تلك الطاولة وكنت أنا في الزاوية.

إعتادت أمي كلما كثر عدد المدعوين إلى الأكل أن تقول "الآن لا بد من أحد يمسك بزمام المائدة" . وقد أحسست أن الأمر يعنيني هذه المرة، وهكذا أمسكت مقاليد تلك الطاولة. وعلى أي حال فأنا الذي كنت محطّ أنظار الجميع، وكنت، إن صحّ القول، أهم شخصية في تلك الجلسة. وفي اللحظة التي جلسنا فيها إلى الطاولة نظرت إلى الجالسين الأربعة وأعلنت قائلا: "لقد قرأت رسالة طويلة كتبها لي والدي قبل أن يموت. وكلكم على عجل لمعرفة ما كتب."

كان الصمت الكامل يلف الجميع. ماذا عساني أقول! ومن أين أبدأ؟

واستأنفت الحديث:

" هذه الرسالة، إذاً كانت موجهة إليّ خصيصاً. لكنْ من منا لم يحبّ والدي؟ الآن عندي إليكما خبران، أحدهما طيّب والآخر سيء. وسأبدأ بالأول. كل المتواجدين في هذه القاعدة سيقرأون الرسالة

كاملة ويقرأها جورجن أيضاً. أما الخبر السيء فهو أن لا أحد منكم سيقرأها هذا المساء."

كانت جدتي شديدة الاهتمام، مفعمة بالأمل، لكن سحابة من خيبة ما لبثت أن غشت وجهها الشاحب. كانت تلك السحابة دليلاً قاطعاً على أنها لم تقرأ رسالة والدي من قبل، لا هذه المرة ولا قبل أحد عشر عاماً. لقد قبعتْ الرسالة بالفعل أحد عشر عاماً في بطانة تلك المركبة القديمة.

"دَعُوا رسالة والدي تستقر قليلاً في أعماق نفسي قبل أن يتحدث الجميع فيما كتب. ثم إنني في حاجة إلى مهلة من الوقت لكي أقرّر أيّ إجابة أجيب بها عن ذلك السؤال الخطير الذي طرحه عليّ، وبأي كيفية من الكيفيات يكون الرد."

وبدا لي أن الجميع قد قبلوا بما قلته ولم يلح أحد على معرفة ما كتبه والدي في تلك الرسالة. بل لقد قام جورجن من مجلسه وأقبل عليّ وربَت على كتفي في ودّ وهو يقول: "أرى يا جورج ما قلتَه معقولاً، لا بد أن نترك الأمور تستقر عليك."

قلت:

" وقد قارب الوقت منتصف الليل، ولا بد أن ننام قليلاً."

وسمعت كم كانت عباراتي ناضجة مهيبة، فقد صرت الآن كبيراً.

لكنني لم أغمض عيناً في تلك الليلة. فبعد أن نام الجميع وعمّ البيت الصمتُ الكامل تمدّدت على سريري أتأمل المنظر الطبيعي الذي صار بياضاً كاملا، فقد توقف سقوط الثلج تماماً.

وحين انتصف الليل ارتديت ملابسي، ولبست أيضاً سترة رياضية محشوة، وقلنسوة، ووشاحاً وقفازين. ثم عبرتُ الشرفة وخرجت إلى السطح. وأزحت الثلج من على المقعد الحديدي المطرّق، وجلست بعد أن أطفأت الأنوار الخارجية.

وتطلعتُ إلى سماءٍ مرصّعة بالنجوم المتلألئة أسعى للتنقيب فيها عن أجواء تلك الليلة التي أجلسني فيها والدي على ركبتيه، وأخالني قد تذكّرتُ كيف كان يضمني إلى صدره ضمّاً، حرصاً منه، إن لم تَخُنّي الذاكرة، ألا أُفلت من تلك المركبة الفضائية. ثم ما لبث ذلك الرجل صاحب الصوت الجهير أن شرع في البكاء فجأة.

وبدأت أفكر في ذلك السؤال الخطير الذي طرحه عليّ يوماً، لكنّ ردي على ذاك السؤال ظل حائراً متردّداً.

لأول مرة في حياتي صرت أعي كل الوعي أنني لا محالة قد أرحل أنا أيضاً عن هذا العالم في يوم من الأيام، وأترك خلفي كل شيء، كم يحزنني التفكير في ذلك.. إلى حدّ لا يطاق، والدي هو الذي فتح عينيّ يوماً على كل هذه الأشياء. هذا الذي حدثني فيه لم أر فيه أي سوء، أليس مُهمّاً أن أعرف رأسي من قدميّ؟ فالأمر أشبه بمعرفة رصيدي في الحساب. ثم ما الذ ّأن يقول لي ليس لك من العمر إلا خمس عشرة.

ومع ذلك فلعله كان خيراً لي أن لا أولدَ على الإطلاق لشدّة حزني على أنني لا محالة صائر حيث صار أبي، لكنني عزمت على فعل ما طلبه مني والدي في الرسالة، وسوف أتأمل الأمر مليّا قبل أن أجيب عن ذلك السؤال.

ومِلْتُ برأسي إلى الخلف كي أشاهد كل النجـــوم والكواكـــب، وحاولت أن أتخيلني على متن مركبة فضائية. وقد لمحت نيازك عديـــدة واستغرقت في ذلك المنظر كثيراً.

وبعد وقت طويل سمعت أحد الأبواب ينفسح ورأيت أمي مقبلـة إلى السطح، كان النهار قد بدأ في الطلوع.

سألتني:

"أنت هنا؟" كانت تراني بوضوح.

"لم أستطع النوم،"

"ولا أنا أيضاً،"

وتطلعت إليها وقلت:

"ضعي شيئاً من الملابس الدافئة وتعالي واجلسي معي."

ولم تغبْ عني كثيراً، فقد عادت إليّ بمعطف أسود اللون أذكر أنهـــا تحتفظ به منذ زمن طويل، هل هو ذلك الذي كانت ترتديه في تلـــك الكاتدرائية؟ لا أستطيع أن أجزم في ذلك، لكن ما إن جلستُ علـــى المقعد حتى بادرتها بالقول:

"لا ينقصك سوى ذلك الملقط الفضي الكبير الذي كان يزين شعرك."

ووضعتْ يدها على شفتيها:

" هل حدثك عن ذلك؟" وأجبتها وأنا أشير إلى كوكب كبير كان قـــد شرع في الصعود شرق السماء، كان كوكباً حقيقياً لأنه لم يكن يتـلألأ مثل النجوم الأخرى، وكنت متأكداً، إلى حد اليقين تقريباً أنه كوكـــب الزهرة.

"هل ترين هذا الكوكب هناك في الأعلى؟ إنه الزهرة وتدعى أيضا نجمة الصباح، لقد كان أبي يفكر فيك كلما رأى تلك النجمة."

حين يمتلئ الدماغ أفكاراً قوية فإنه يجعلنا إما نقول شيئًا أو نظل صامتين، وقد ظلت أمي صامتة

بعد برهة عدت للحديث فقلت:

" ذات مرة أمضيتُ الليل كله هنا مع أبي قبل أن يدخل المستشفى، وستعرفين المزيد عن تلك الليلة حين تقرأين الرسالة. لكن ها نحن الآن هنا.

"إني يا جورج مغتبطة وفي الوقت نفسه خائفة من قراءة هذه الرسالة .. أريدك أن تكون معي حين أقرأها. هل تعدني بذلك."

ومددت لها يدي على سبيل الوعد، فقد قدرتُ أن لعلّ أمي لا تستغني عني عندما تقرأ رسالة والدي. فمن غير الانصاف أن يتحمل جورجن أمر مواساة فتاة البرتقال بعد أن تنتهي من قراءة جون أولاف. لكن ليقرأ هو الآخر رسالة والدي، ليقرأها، فلن يكون أثرها عليه أقل وطأة.

"ففي تلك الليلة التي كنا فيها هنا أخربني والدي بأنه على وشك أن يرحل عنا." فالتفتت إليّ متأثرة:

" هل تعلم يا جورج، لا أعرف إن كنت سأستمر في هذا الحديث طويلا .. ألا تفهم أنك بدأت تنكأ جروحاً قديمة؟ ألا تفهم ذلك؟"

كانت على وشك أن تنفجر غيظاً، بل قل إنها كانت فعلا غاضبة.

" بلى إنني أدرك ذلك."

وظللنا طويلا لا نتكلم إلا قليلا. ربما بقينا على تلك الحال ساعة كاملة. كنت متأثراً منفعلا، وكانت أمي دائمة الشكوى من تأثرها السريع بالبرد.

هكذا كنتُ كلما رأيت شيئاً جديداً في السماء أشرت إليه بإصبعي، لكن النجوم ما لبثت تخبو شيئاً فشيئاً مع بزوغ نهار جديد.

وقبل أن يعود كل منا إلى غرفته تطلعت للسماء من جديد وقلت لها: " هناك في الأعلى عينٌ كبيرة تسبح في الفضاء، وزنها أكثر من أحد عشر طناً. إنه في حجم القاطرة ويتحرك بواسطة جناحين كبيرين."

ولمحت أمي تنتفض، ما الذي فهمتْه تُرى؟ لم أكن أقصد أن أثير الرعب في نفسها ولا فكرت في أن أقصّ عليها حكاية أشباحٍ. وحتى أهدئ من روعها قلت لها للتو: "إنه المنظار هوبل، إنه عين الكون."

وابتسمت أمي ابتسامتها المميزة قبل أن تمد ذراعها وتداعب شعري، لكنني تلافيتها. لعلها اعتقدت أني ما أزال طفلا. لعلها أيضاً تصورت أني أفكر في ذلك البحث الفلكي الذي أعددته يوماً. وختمت الحديث بالقول:

"لا بد أن نصل يوماً إلى اكتشاف الحقيقة .. كل الحقيقة."

في ذلك اليوم وجب علي أن أمكث في البيت .. فقد ارتأت جدتي أن أقول الحقيقة للأستاذ، حسبي أن أخبره بأني تلقيت رسالة من والدي المتوفي منذ أحد عشر عاماً .. وقد أضافت أن الأفضل في مثل هذه الظروف أن أرتاحَ قليلا.

قلتُ لنفسي:

"أيّ "ظروف هذه"، لم يخطر لي أن وصول رسائل من آباء متوفين أمرٌ عادي.

سافرت جدتي وجدي إلى تونسبرغ قبل أن يقرآ رسالة والدي. فقد وعدتهما بأنها سيقرآنها بعد أسبوع على الأكثر. وقد استاءت جدتي بعض الشيء لطول مدة الانتظار. على أي حال هي التي عثرت على الرسالة، وهي التي قررت المجيء إلى أوسلو، لكن جدي ما لبث أن ذكّرنا بما قاله جورجن في هذا الشأن.

توجه جورجن إلى عمله مبكراً في ذلك اليوم، فلم أكَدْ أراه في الصباح، ولم يبق في البيت سوى أنا وأمي، وما لبث أن غلبني النعاس بعد تلك الليلة التي لم أذق فيها طعم النوم، فما إن ودعتنا ساعات الصباح الأولى حتى وجدتني نائماً على الكنبة الصفراء، وما إن أفقت من النوم حتى بدأت حركة نقل في سدّة البيت.

طلبتُ من أمي أن تُخرج كل ما بقي لها من لوحاتها القديمة عن إشبيليا، ومن حسن الحظ أنها كانت تحتفظ بها جميعاً، رغم اعترافها من جديد أن الزمن قد غيّرها وتلاشى اهتمامها بتلك اللوحات. قالت لي ذلك في اللحظة التي كانت تحرّك بورتريه والدي الذي رسمته من وحي الذاكرة. لا أحد أبدى رأيه في تلك الصورة لكنني ما لبثتُ أن انتفضتُ حين رأيتها. لم أر يوماً نظرةً بذلك القدر من الزرقة الصارخة في أيّ رسم، وقلت لنفسي لا شك في أن هذه الزرقة احتوت الكثير من الكوبلت، وبأن هاتين العينين قد رأتا شيئاً لم يره أحد من قبله قط.

"لكنك لم تتغيري ولم تفقدي اهتمامك المعهود بأبي."

لم يكن هذا سؤالا، بل كان أمراً.

وأقنعتها بأنْ تُعلّق لوحة البرتقال القديمة التي كانت في السابق في الغرفة الخلفية، وقد فككنا لوحة أخرى معلقة وعلقنا مكانها اللوحة القديمة، في المكان نفسه الذي كان والدي يطبع فيه على الكمبيوتر. كان ذلك في الفترة التي كان يسير فيها على رؤوس أصابعه حتى لا يتعثر في سكة قطار بريو، كان ذلك في زمن آخر.. مختلف.

هكذا وجدت أن أشجار البرتقال قد وجدت مكانها الأفضل، ناهيك عن منظرها الذي صار أكثر جمالا، ورأيت أن هذه العودة للأصول لن يرى فيها جورجن حرجاً، وقد شاطرتني أمي هذا الرأي.

عثرنا على قطار بريو كبير في سدّة البيت في داخل علبة من الكرتون، ووجدنا الكمبيوتر أيضاً، وحملته إلى الغرفة الخلفية وأوصلت كابلات الشاشة والمُعالِج وحاولت الدخول إلى برنامج معالج النصوص، كان الجهاز قديماً يشتغل على نظام الدوس DOS وكان نظام معالجة النص فيه يسمى "وورْد بِرْفِكْت". ما يزال والد أحد زملائي في الصف يستخدم هذا النوع من الأجهزة البالية، وقد شاركت مرات عديدة في تشغيله. لكن البرنامج كان يتطلب شيفرة من ثمانية أحرف على الأكثر للدخول إلى الوثائق التي حرّرها والدي، وكانت تلك الشيفرة هي التي لم يتمكن أحد من فكّها قبل أحدَ عشر عاماً.

كانت أمي تقف خلفي حين سعيت إلى تشغيل ذلك الجهاز، فقد

شرحتْ لي أنهم جرّبوا كلمات مختلفة عديدة وكثيراً من الأرقام، من تواريخ الميلاد وأرقام السيارات والهويات، وخطرَ لي أنهم لم يُشغّلوا مُخيّلتَهم كثيراً. وكبستُ على الأحرف الستة التالية: ب- ر- ت- ق- أ- ل فردّت عليّ الماكنة "بلينغ!" ووجدتني مباشرة في قلب البرنامج في القرص الصلب.

من المبالغة القول إن أمي لم تتأثر لذلك كثيراً، فقد حملت يدها إلى جبينها وصارتْ على حافة الإغماء.

إن (dir) الكمبيوترات القديمة تنطبق على ما نسميه اليوم بـ "الملفات" في الكمبيوترات الحديثة، وهنا أيضاً لا ينبغي أن تتجاوز الأسماء ثمانية أحرف، أحد هذه الملفات كان يدعى "فيرونيكا" فقد استعملتُ الأسهم وكبستُ على ENTER، لم تكن الأجهزة القديمة مجهزة بالفأرة. ولم يظهر سوى ملف واحد: "جورج. ليت" Georg.let, ومرة أخرى كبست على الزر ENTER، و"بوف!" فإذا بي أري النص نفسه الذي قرأته في غرفتي الليلة الماضية: "هل أنت مرتاح في جلستك يا جورج؟ من المهم أن تكون جلستك مستقرة على الأقل، لأنني سأقص عليك الآن هذه الحكاية المثيرة".

وطبعت HOME, HOME, وضغطت على السهم العمودي لعرض النص، استغرق ذلك وقتاً طويلا، ليس أقل من عشر ثوان، وبالفعل كانت الجملة الأخيرة في ذلك الملف تقول: الحلم بشيء وهمي يحمل اسماً. إنه الأمل.

كان أروع ما وجدته في نصّ والدي على ذلك الكمبيوتر القديم

تلك الجملة: "حين قررتُ أن أكتب هذا الكتاب معه"، تخيلتُ إخراج ذلك الكتاب وما يتطلبه من أدوات من مقص وأعواد غراء، أما الآن فقد صار المشروع أسهل بكثير، لأنه يكفي أن أفتح الملف وأكتب قبل، وضمن وبعد النص الذي كتبه والدي، وهكذا أحس أنني شاركت والدي في إنجاز هذا العمل.

وبعد بضع محاولات تمكنت من تشغيل الطابعة القديمة أيضاً، إنها من نوع ما يسمى بطابعات ذات الإبرة، وهي عجيبة إلى الحد الذي يجعلني أخشى أن يكتشفها أحد من شرطة متحف التقنيات السريين فيسرقها مني، فهي تهدر مثل الرعد وتستغرق طباعة الصفحة فيها أربع دقائق، لأن إبرة صغيرة فيها تضرب كل حرف من الأحرف، على أسطوانة من الحبر، وهكذا يُطبع الحرف على الورق. قبل أحد عشر عاماً، حين مات والدي، كان هذا الجهاز عصرياً!

إني أطبع على هذا الكمبيوتر الآن، أي في هذه اللحظة، آخر ما كتبتُه على هذا الكمبيوتر: إنني أطبع على هذا الكمبيوتر الآن، أي في هذه اللحظة.

تحتفظ أمي بأغنية تسمى Unforgettable, إنه تسجيل فريد من نوعه، لأن هذه الأغنية تغنيها نتالي كول غناءً ثنائياً مع والدها المغني الشهير نات كينغ كول، قد لا يبدو الأمر مثيراً، لكن المهم في هذه الأغنية أن ناتالي كول تغني هذا الثنائي مع والدها بعد

مرور ثلاثين عاما على وفاته، إذ يكفي أن تُغني اللحن القديم لتسجيل

نات كينغ كول الذي مرّ عليه أربعون عاماً. فكأنها حوّلت صوت أبيها إلى مستوى جديد.

من الناحية الفنية ليس الغناء الثنائي مع رجل مات قبل نحو ثلاثين عاماً عملا إعجازياً، فالأمر لا يحتاج لأكثر من جهد ذهني، لكن الثنائي جميل فهو Unforgettable

لا أرى داعياً للإسهاب في هذه القصة، لم يبق عندي سوى شيئين، أما الأول فهو الإجابة التي ينبغي أن أردّ بها على السؤال العويص الذي طرحه والدي عليّ، ثم هناك شيءٌ آخر، لكن سأتناول أولا النقطة الثانية المتمثلة في أنّ هذا الكتاب سينتهي بإجابتي عن ذلك السؤال الخطير.

بعد أن اهتممنا بأمر اللوحات القديمة وبذلك الكمبيوتر القديم جداً توجهت أمي إلى المطبخ لتعِدَّ الفطائر المطلية بجوز الهند، فقد كانت تعرف أشيائي المفضلة، ولذلك بالطبع أرادت أن تُعِدّ ذلك النوع من الأكل في هذه المناسبة الخاصة، وكانت مريام أيضاً مولعة بتلك الأشياء.

وما لبثت رائحةُ تلك الفطائر أن ملأت الغرفة الخلفية، فأسرعت إلى المطبخ أُلِحُّ في طلبِ فطيرة طازجة. ثم كنت أريد أن أسأل أمي سؤالاً ظل يحيّرني، فقد كان ما يزال في قصة فتاة البرتقال خيط مُتقطّع لم تكن أمي قد قرأته بعد.

كانت قد بدأت ترشُّ الفطائر بالسكر الناعم، وقد وضعت على

طاولة العمل كيساً من جوز الهند حتى ترشّه على الفطائر.

من كان ذلك الرجل صاحب التويوتا البيضاء؟

لم أسألها ذاك السؤال إلا من قبيل المزاح والمشاكسة، فقد كنت أعرف أنه كان صديقاً قديماً، فذاك على أي حال ما قالته لأبي.

وبدا وكأن السؤال أغرقها في الذهول، والتفتت إليّ أولا فاغرة الفاه، ثم جلست إلى طاولة المطبخ.

"وحدثك عن هذا أيضاً!؟"

"ظني أنه كان غيوراً قليلا."

وظلت صامتة، فلم أجد بدّا من أن أسألها من جديد:

"ألا تقولين لي فقط من كان معك في تلك التويوتا البيضاء؟"

وبدتْ متصلّبة شاردة. وبدت وكأنها قررت أن تعبُرَ حائطاً من فولاذ.

وبصوت خافت أجابت:

" إنه جورجن."

وأحسستُ بالدوار "جورجن!" قالت "نعم"، فزاد دواري، وأمسكتُ بكيس جوز الهند وبدأتُ أرشُّ قليلا منه على الأرض، وما لبثتُ أن قلبتُ الكيسَ وأفرغتُ كل ما احتواه.

قلت:

" الثلج يتساقط" .

ظلت أمي جالسة إلى طاولة المطبخ، واكتفت بالقول "لماذا فعلتَ هذا؟"

فصرخت فيها:

"لأنك كنت مجنونة، فقد أحببت رجلين معاً!"

فأنكرت ذلك في عناد:

" لم يكن الأمر كما تصورتَ، فمنذ اللحظة التي التقيت فيها بـ" جون أولاف" صار الرجلَ الوحيد في حياتي."

وأحسستُ أن شيئاً قد بدأ يحترقُ في الجو ولم أفكّر في احتراق الفطائر.

"ولما مات جون أولاف صار جورجن رجلَكِ الوحيد؟"

" لا، ولا كان الأمر هكذا أيضاً، لم ألتق بجورجن إلا بعد سنوات. في تلك السنوات لم يكن سوى أنا وأنت، وأنت تعرف ذلك جيداً. لكن حين رأيت جورجن من جديد أحببته مرة أخرى، ولم نقرر العيش معاً إلا بعد وقت طويل.. طويل جداً."

وكدت أشفق على ذلك الطُيَيْرِ الكبير. كان منقاره ما يزال داخل الماء.

ومع ذلك فقد أضفتُ:

" وهل نستطيع أن نعرف مَن من الرجلين أحبّته فتاة البرتقال أكثر؟"

فأجابت بلا تردد:

" لا، لا يمكن طرح هذا السؤال".

لم تكن غاضبة، لكنها كانت مصرّة على ذلك الموقف ثم شرعَتْ في البكاء.

عندئذ آثرت أن أترك هذا السؤال بلا جواب، فقد علمني والدي أن لا حق لي في أن أتدخل فيما لا يعنيني، لكن من حقي أن يكون لي في الأمر رأي.

لم يَطِبْ لي ذلك الذي سمعته، لأن رجل التويوتا البيضاء هو الــذي فاز في النهاية بأمي. لم يكن الخطأ خطأه، ولا خطأ أيّ شخص غــيره، ولكنني كنت سعيداً ألا يعرف أبي من ذلك الأمر شيئاً.

بل لعل الخطأ خطأ والدي ذاته، فلم يفلِحْ في احــترام القواعــد، ولم ينجح في انتظار فتاة البرتقال ستة شهور. وهكذا لم تكــن الســاعات كافية قبل أن يرى طيراً ميتاً في المجرى المائي، ناهيك عــن أن الطــير حمامة. سأفكر في والدي دوماً مثلما أفكر في حمامة بيضـــاء، لكنــني لست على يقين بأني سأؤمن بالقدر كثيراً، ولا أظن أن والدي قد آمــن به أيضاً، وإلا لما اهتم بالمنظار هوبل كل ذلك الاهتمام.

في الساعات المتأخرة من العصر أكلنا الفطائر المطلية بالشــوكولاته مع جورجن ومريام. كان هناك فطيران مطليان بالسكر الناعم فضلنــا أن نقدمهما لجورجن ومريام. فقد رأيت أننا لهما مَدينان.

بعد مرور أيام على حفلة الفطائر عدت للكمبيوتر القديم من جديد. لقد حان الوقت لأن أجيب عن ذلك السؤال الصعب الــذي طرحــه والدي، لقد قررت أن يكون الموعد غداً، لكنّ لا أحد قــرأ رســالة والدي حتى الآن. وغداً ستأتي جدتي وجدي، فقد دعوناهما لعشاء يــوم الأحد. وغداً سينتهي الأجل.

لم أفكر، في الأيام الأخيرة، في شيء آخر غير الاختيار الصعب الذي لا حيلة لي فيه. فقد قرأت رسالة والدي أربع مرات وفي كل مرة أقول لنفسي: مسكين والدي .. مسكين، إنني أشفق عليه لأنه لم يعدْ بيننــا،

لكن ما كتبه لا يخصُّه وحده، بل يخصُّ كل البشر في العـالم بأسره، الذين جاؤوا والذين هم معنا والذين سيأتون من بعد.

"لسنا في هذا العالم إلا لهذه المرة الوحيدة" هكذا كتب والدي. ففي مناسبات عديدة قال بأن وجودنا هنا لا يدوم إلا قليلا. لست على يقين بأنني أحس بهذه الحقيقة على نحو ما أحس بها. فأنا هنا منذ خمسة عشر عاماً، ومع ذلك لا أشعر أن هذه السنوات لم تـدم إلا "لحظة قصيرة".

لكنني أعتقد بأني فهمت ما كان يقصده. فالحياة قصيرة بالنسبة للذين يدركون حقاً أن العالم سوف ينتهي يوماً لا محالة. لكن البشر ليسوا قادرين جميعاً على فهم تلك الحقيقة، حقيقة الرحيل الأبدي الخالد. هناك أشياء كثيرة تنبئنا بتلك الحقيقة، ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة.

"تصوّر أنك عند نقطة من نقاط عتبات هذه الأسطورة،ـ قال أبي في تلك الرسالة ـ في زمنٍ ما، قبل ملايين من السنين عديدة، حين بدأتْ كل الأشياء. حينها تستطيع أن تقرر إن كنتَ ترغب في الخروج يوماً للحياة على هذه الأرض. لن تعرف ساعتها متى ستعيش وكم سيطول بقاؤك، وإن بقيت فلن تبقى إلا زمناً محدوداً. لن تعرف أكثر من أنك إذا اخترت المجيء إلى هذا العالم يوماً عندما يحينُ الوقت أو كما يُقال حين "يكتمل الزمان" فإنك لا محالة ستغادر ذلك العالم وتترك كل شيء فيه."

ولم يسعني بعد الوصول إلى قرار نهائي، لكنني بدأت أتفق مع والدي. فلعلي كنتُ رفضتُ ذلك العرضَ، لأن الزمن القصير الذي سأقضيه في هذا العالم سيكون مجهرياً على صعيد ذلك الخلود في الأبد وفي الأزل.

ولو عُرضت عليّ ألذ الطيبات لأعرضت عن أكلها، طالما أن حصّتي فيها لا تزن إلا مليغراماً واحداً.

لقد ورثت من والدي حزناً عميقاً، آتياً من حزنه لمغادرة هذا العالم يوماً، وقد بدأت أفكر في هذه المساءات الجميلة التي سأحرم منها إلى ما لا نهاية. وورثتُ منه عيناً أرى بها عجائب الحياة وخرافاتها. وفي الصيف القادم سوف أشرع في دراسة الطنانات "عندي مقياس للوقت ولعلي أستطيع أن أقيس السرعة التي تطير بها، ولا بدّ لي من أن أعرف وزنها أيضاً". ولِمَ لا أقوم يوماً برحلة قنصٍ في أدغال إفريقيا. وقد تعلمت أيضاً كيف أتطلع للسماء. وأنبهر بكل ما يبعُدُ عنا ملايين من السنين الضوئية في الفضاء. ألم أتعلّم هذا وأنا طفل في الرابعة!.

لكنني لا أعرف كيف أبدأ الأمور من بدايتها، لا بد لي أن أحاول رؤية الأشياء من زاوية جديدة وأن أحدد اختياري وحدي.

لو كانت قصة فتاة البرتقال فيلماً شاهدته من آخر القاعة وأنا أعلم أنني ما كنت جئتُ لهذه الحياة لو لم يكن ذلك اللقاء ما بين جون أولاف وفتاة البرتقال، لكنت بالتأكيد سأهتف لهما وأهلل، وأمنّي النفس بألا يتخلى أحدهما عن الآخر، لأن ابتعادهما كان سيحزنني. ولكنني خشيت أن يكون أحدهما ملحداً فيرفض، أو ترفض الحضور إلى قداس

ليلة أعياد الميلاد. ولعلني كنت بكيت كثيراً وأنا أرى فتاة البرتقال وهي تصل إلى ساحة أليترا بصحبة رجل دانمركي. وحين تصبح فيرونيكا وجون أولاف متحابين يصيبني خوف من أن ينشب خلاف بين جون أولاف وذلك الدانمركي. وظني أن ذلك الخلاف كان سيستحيل شجاراً كونيّاً.

ولو حدث ذلك لما جئت إلى العالم، ولما كنت شاهداً على هذا اللغز العظيم، ولما كنت تطلعت إلى الفضاء لأرقب تلك السماء المتلألئة بالنجوم، ولما رأيت الشمس من على صخرتي تونسبورغ، ولما شعرت بمتعة الغطس.

الآن صرت أفهم، فجأة، مغزى الأشياء. الآن أدركت فقط.. بجسمي وروحي سرّ الوجود.

أحس بمغص شديد في بطني، أحس بالغثيان، أحس بالغضب.

يرعبني التفكير بأني سأرحل يوماً، سأختفي يوماً، وأرحل لا لأسبوع واحد أو أسبوعين، ولا لأربعة أو خمسة قرون، ولكن إلى الأبد.

أحسني ضحية للأحابيل والخدعة. سيأتي أولاً من يقول لي: "أتوسل إليك، بين يديك عالم يمكنك أن تلعب وتمرح فيه. أمامك لعبتك، قطارك الخشبي، أمامك مدرستك التي ستذهب إليها في الخريف القادم،" وبعد لحظات أسمع ضحكات هازئة تقول: ها ها! لقد أوقعناك في الشراك! وبذلك يضيعُ مني كل شيء.

وأحس بأنني خُدِعتُ في كل شيء، ولم يبق لي مكان أتشبث بـــه، ولا شيء يستطيع أن ينقذني.

لن أفقد العالم وحده، ولن أفقد فقط كل الذين أحببتهم، بل أفقـــد ذاتي أيضاً.

بوف! وينتهي كل شيء.

إني غاضب. غاضب حتى كدتني أتقيّأ، لأني رأيت الشيطان بعينـــه. ولكنني لن أدع الشيطان يقول كلمته الأخيرة، سوف أحِيدُ عن الشـــرّ قبل أن يتملكني، سأختار الحياة، سأختار ذلك القدر من الخير الـــذي سيُمْنَحُ لي، ولعل في هذا الكون كائناً طيباً.

أعرف أن الشرّ قائم لأني سمعت الحركة الثالثة من سوناتة بتـــهوفن "ضوء القمر" لكنني أعلم بأن الخير قائم أيضاً. أعرف أن زهرة جميلـــة تنبت ما بين هاويتين، وأن طنانة عاشقة للحياة ستنطلق قريباً من هـــذه الزهرة.

ها! أنظروا، ألم أقل لكم. من حسن الحظ أن الحساب تضمن أيضـــاً قطعة موسيقية عاجلة (أليغريتو)، مشهداً مسلياً من العرائـــس تجـــري أحداثه ما بين المأساتين في ذلك العرض، لا أريـــد أن يفوتـــني هـــذا المشهد، إنني على استعداد لأن أراهن على الحركة الثانية! هناك شـــيء اسمه "شهية الحياة والهاويتان". لست في حاجة لأن أعيشـــهما، لأن لا وجود لهما إطلاقاً، لا وجود إلا لشيء واحد.. قطعة موسيقية جريئة.

أراني هنا أفكر أفكاراً داهية، إنني أقرّ بذلك، الموسيقار فرانز ليسْـــت

هو الذي وصف الحركة الثانية من السوناتة "ضوء القمر" بـ "زهرة ما بين هاويتين".

وفي هذه اللحظة بالذات، تراودني الفكرة بأنني قد خرجت من كل هذه الورطة ببراعة الفن ومهارته. ثم أراني أحاول أن أتقهقر في الزمان مليارات عديدة من السنين. والآن فقط سأقرر إن كنت سأختار الحيلة على هذه الأرض بعد مائة مليون سنة، أم أنني سأتنازل عن تلك الحياة، لأنني لا أقبل بالقواعد. لكني أعرف الآن على أي حال مَن ستكون أمي ومَن سيكون أبي. الآن عرفت كيف بدأ كل شيء، وأعرف أيضاً من منهما سأحبه أكثر قليلاً.

الآن حان وقت الإجابة. الآن سأحدد اختياري المهيب وأكتب:

أبي العزيز، شكراً جزيلاً لرسالتك، فقد كان وقعُها على نفسي بمثابة الصدمة، وقد أغبطتني وأزعجتني على السواء، وهـأنذا الآن أحدّد، وذلك هو الاختيار الصعب. إنني على يقين مائة بالمائة بأنني كنت سأختار الحياة على هذه الأرض حتى ولو لـ "وقت قصير". يمكنك الآن أن تطمئن وتستريح وتنسى تلك الهموم. نمْ "قرير العين" كما يقال، وهنيئاً لك باصطياد فتاة البرتقال.

أمي الآن في المطبخ، منهمكة في إعداد العشاء، تقول إنها ستقدم لنا طبخاً فرنسياً، وقريباً سيعود جورجن من ممّا يسميه بركض يوم السبت.

أما مريام فهي نائمة. نحن اليوم ١٧ تشرين الثاني، ولا يفصلنا عن أعياد

الميلاد سوى خمسة أسابيع.

سألتَني أسئلةَ مهمة حول هوبل، والحقيقة أنني كتبت قبل حين بحثاً هائلاً حول هذا المنظار.

الآن سأبوح لك بسرّ كبير: أظنّ أنني أعرف هديتي في عيد الميلاد، فقد تلقيت في ذلك بعض التلميح من جورجن نفسه، حيث أراني بعض الصور في الجريدة، وباختصار أقول: أحسّ بأني سأحصل على منظار! ولو كان لي ذلك لكانت فرحتي به لا تصدّق. فقد قرأ جورجن ذلك البحث، بل قرأه مرتين حتى وإن لم يكن والدي الحقيقي. قال لي إنه فخور بي، وظني أنه يعاملني بمثل ما يعامل به مريام أو يكاد. وبكل صدق أقول إنني لا أطمح لأكثر من ذلك، إنني أقدّر هذا الشخص بمثل ما كنت سأعامله به لو كان أباً حقيقياً لي.

لو جاءني منظار في عيد الميلاد فسوف أحمله إلى فجيلستون، لأن الأرض المنبسطة هنا معرضة كما يقول الفلكيون لـ "التلوث البصري". وقد قررت أن أمنحه اسماً، سوف أدعوه منظار جون أولاف! قد يجد جورجن في ذلك بعض الغرابة حتماً، لكنه إذا أراد أن نبقى على ودّ عليه أن يقبل بهذا الشرط.

حين يكون القمر باهتاً يمكننا أن نشاهد العديد من النجوم الساطعة في سماء فجيلستون سطوعاً يجعلنا نتساءل عن أيّ ضرورة لأيّ منظار مداريّ في الفضاء. أجل، أجل يا والدي، لا تظنني غبياً!

إنني أعلم بأن النجوم لا تسطع بذاتها! لكن أليس من الممتع أحياناً

أن نمكث بعض الثواني في قاع مسبح، وننظر في اتجاه حافة الحوض؟ نستطيع على أي حال أن نرى شيئاً، ومن الممكن أن نعرف ذلك الشيء المتحرك، على صفحة الماء. وعلى أي حال ربما كان يمكن ملاحظة فوهات البراكين على القمر، وعلى أقمار المشتري، وحلقات زُحَل. ثم سنرى إن كنتُ سأُحظى يوماً بالصعود على مركبة فضائية حقيقية!

تحيات حارة لك من جورج الذي ما يزال يعيش في هومليفاي، ويعرف الآن أنه ينحدر من سلالة رائعة.

ملاحظة: بعد أن قرأتُ رسالتك الطويلة سأجد الجرأة قريباً لأن أتحدث إلى فتاة الكمان، فقد ألتقي ها يوم الاثنين القادم. ومن يدري فقد تُريني كمانها.

وناديتُ أمي فجاءتني. عند كتابة هذه الجملة ناولتُها رسالة والدي. أعطيتُها الطبعة القديمة منها. قلت لها:

الآن بإمكانك أن تقرئي رسالة والدي.

أما الكتاب الذي كتبته مع أبي فقد يمكنها قراءته في يوم آخر، وسيكون ذلك اليوم بعد أعياد الميلاد. ويا ليتني أتلقى ذلك المنظار من جون أولاف حقاً ما دمت قد تحدثت عنه في هذا النص.

أخشى قليلاً أن يكتشف أحدهم أمر فتاة الكمان من قراءة هذه الأسطر. إنني أرتعش أيضاً حين أتصور أمي وجورجن وهما يقرآن

ذلك المقطع من الرسالة عن تعانقهما في الغرفة، لكنني لا أخشى ذلك إلا قليلاً.

تناولت أمي رسالة والدي وجَلَسَتْ على الكنبة الصفراء في الصالون. قالت لي إنها تريد أن تلقي نظرة على تلك الرسالة، قبل أن يعود جورجن من تمرين السبت. ووعدتها بأنني سأبقى بعيداً. ولم ألمحها إلا من خلال فتحة الباب المنفرجة قليلاً. وسمعتها أحياناً وهي تشهق فأيقنتُ بأنها لم تنسَ جون أولاف نهائياً.

لكنني أواصل الكتابة، عندي كمبيوتر من نوع البي سي PC كما يقال. وعندي إليك يا قارئ هذا الكتاب النصيحة الصغيرة التالية:
أسأل أمك أو أباك كيف التقيا لأول مرة. فلعلهما سيقصان عليك حكاية مثيرة. ولا تخشَ أن تسأل الاثنين، فإنهما لن يحكيا لك الحكاية نفسها.

لا تندهش إن رأيتهما يشعران فجأة بالخجل، رأيي أن لا غرابة في الأمر. إن الأساطير التي نتداولها هنا ليست دائماً متماثلة، لكنني بدأت أدرك أن مثل هذه الأساطير تتضمن قواعد معقدة بعض التعقيد، قد لا يسعنا الحديث عنها. فلعل الأفضل لك ألا تقترب كثيراً من هذه القواعد. ليس من السهل دائماً أن نحولها الى كلمات، وهناك شيء يسمى الفطنة.

كلما كانت هذه الحكايات مليئة بالتفاصيل، إلا وكانت مثيرة أكثر، لأنه لو أن شيئاً ما اختلف لما كنت وُلِدت.

إنني أراهن أن هناك آلافاً عديدة من التفاصيل التي يمكن أن تُغيّر كل شيء إلى الحد الذي يجعلك لا تفهم أي شيء.

أو كما قالت حكمة والدي: الحياة يانصيب عملاق لا ترى منـــــه سوى الأوراق الرابحة.

أنت من تقرأ هذا الكتاب واحد من هذه الأوراق الرابحة! هنيئاً لـــك بهذا الحظ.

التعريف بالكاتب

ولد جوستاين غاردر في العام ١٩٥٢ في أوسلو. وهو أستاذ فـــي الفلســفة وتاريخ الأفكار واللاهوت، ويعمل متفرغا للكتابة.

اشتهر عالميا من خلال كتابه "عالم صوفي، رواية حول تاريخ الفلسفة" الـذي ترجم إلى أكثر من ٤٠ لغة وبيع منه ما يقارب ٣٠ مليـــون نســخة. وقـد صدرت ترجمتة العربية عن دار المنى للنشر في السويد.

" عالم صوفي" هو الذي كرّس صاحبه عبر العالم وأكسبه التقدير لدى النقـاد والقراء على السواء.

وقد أصدر جوستاين غاردر أعمالاً أخرى سواء كتباً للأطفـــال أو روايـــات للكبار، وهي مؤلفات حظيت بشعبية بالغة في كثير من دول العالم.

لا يذكر جورج الصغير عن والده إلا القليل.

توفي والده بعد مرض عضال عندما كان جورج في الرابعة من عمره.

فجأة وبعد أحد عشر عاماً تصله رسالة من والده كان قد عنونها إلى جورج "الكبير".

لقد ظهرت تلك الرسالة في الوقت المناسب. إنها رسالة وداع تروي قصة حب لفتاة البرتقال العجيبة.

هذه الرسالة رحلة إلى الماضي، لكنها تطرح على جورج أسئلة عن مغزى الحياة ودلالاتها.

فتاة البرتقال أنشودة للحياة والحب والشجاعة التي لا غنىً عنها في التغلّب على أكثر الدروب صعوبة ووعورة.

دار المنى
السويد
ISBN 978-91-88356-93-2
9 789188 356932